كلاسيكيات أثر Athar Classics

#39



19.10.2018

يوسف القويوجاقلي

ترجمة جهاد الاماسي



يوسف القويوجاقلي

رواية

صباح الدين علي

ترجمة

جهاد الأماسي



يوسف القويوجاقلي

يوسف القويوجاقلي / رواية

تأليف صباح الدين علي

ترجمة جهاد الأماسي

الطبعة الأولى 1438 / 2017

ردمك 978-2-84409-630-2



دار أثر للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الدمام

تلفون: 00966505774560

الموقع الإلكتروني: www.darathar.net

البريد الإلكتروني: info@darathar.net

الجزء الأول

1

في ليلةٍ ماطرةٍ من خريف عام 1903، أغارت عصابة على قرية قويوجاق التي تقع في قضاء نازلّي التابعة لمحافظة أيدن وقتلت زوجين.

في اليوم التالي، توجه قائم مقام المنطقة، صلاح الدين بيك إلى مسرح الجريمة مصطحبًا معه المدعي العام والطبيب ليحقق بنفسه. ولكون قائد الدرك في إجازة، رافقهم مساعدٌ ثانٍ بصحبة ثلاثة دركيين.

كانت مياه المطر تسيل من على قلابيقهم[1] السوداء المصنوعة من جلد الخراف (ومن على طربوش الطبيب أيضاً) متحدّرةً إلى أصداغهم مكونةً بها أشكالاً غريبةً، ثم متجمعةً تحت أذقانهم لينتهي بها المطاف متقاطرةً على صدورهم.

كما كانت قطرات المطر المتساقطة على أشجار الصفصاف وأشجار كف مريم تصدر هديراً كئيباً، وحوافر الخيل التي كانت تترك آثاراً بخطواتها غير المنتظمة على رمال الطريق تصدر أصوات سحق وفرقعة.

مع اقترابهم من القرية كانت أنواع الأشجار التي تحف الطريق تتغير.

1-جمع قلباق، وهي نوع من أنواع القبعات.

فأصبحت تحيط بهم أشجار جوزٍ وتين، ترتفع كجدارين أخضرين يحيطان بالطريق، كما كانت أشجار الجوز الكثيفة تشكل حزاماً طبيعياً في بعض المناطق.

كانت رؤية هذه القافلة وهي تتقدم رويداً رويداً في هذا اليوم القاسي الماطر تبعث في النفس الرهبة. ورغم عدم تجاوز القائمقام سن الخامسة والثلاثين، كان بشعراته البيضاء الظاهرة من تحت قبعته يتقدم الركب ورأسه محنيٌّ إلى الأمام، وعيناه مثبتتان على أذني الحصان المدببتين المبتلتين. كما كان المدعي العام بجانبه يتأرجح على ظهر الحصان بطريقة مرتبكةٍ لا تدل على احتراف، محاولاً إشعال سيجارته التي تأبى أن تلتقط شعلة القداحة. أما الطبيب فقد كان هادئاً رزيناً، كرجلٍ خَبَرَ من الحياة الكثير. كان عازفاً جيداً للطنبور؛[1] والآن يصفّر بهدوءٍ من تحت شواربه التي يتخللها الماء، يقلد معزوفة عازف الكمان نيقولاي أفندي ماهور ساز سماعي[2] والتي كان يتدرب عليها في تلك الأيام.

عناصر الدرك الأربعة الراكبون في الخلف كانوا متدثرين بأعطفتهم المطرية، وبنادقهم التي كانت من نوع مارتين معلقةٌ على ظهورهم بشكل متقاطع. ولأن معاطفهم كانت وبريةً وطويلةً تصل إلى بطون الأحصنة فقد جعلتهم يبدون كمخلوقات برية هرمية سوداء.

بلغوا قرية قويوجاق بعد ساعتين. لم يكن ثمة مخلوق في الشوارع الموحلة؛ عدا طفلة عارية القدمين تصرخ باستمرار هاشةً بعصىً في يدها على ثلة إوزّات تجري ضاربةً بأجنحتها بقلق، محاولةً إدخالها من خلال فتحةٍ صغيرةٍ

1- آلة موسيقية تشبه العود وهي أكبر منه.

mahur saz semaisi -2

في السياج إلى حديقة المنزل. عندما رأت الأحصنة صعدت فوق كومةٍ من السماد تنتشر رائحتها الحمضية بعيداً؛ وراحت تراقب المارّين بعينين متسعتين بينما عصاها تلامس أطراف قدميها. وعندما التفّوا عند زاوية الطريق تركت الإوزات وألقت بالعصا راكضةً إلى بيتها.

دون أن يأخذ القادمون قسطاً من الراحة، أخذوا مختار القرية معهم إلى مكان الجريمة. كان بيتاً صغيراً ذا حديقةٍ في أحد أطراف القرية. اجتازوا باباً أسود ذا درفتين يؤدي إلى حديقة صغيرة... ولكنها مليئة بالأزهار؛ وبعد المرور بصفين من غراس نباتات البقسيس وعدة شجيرات مشمش، ظهر سلمٌ خشبي. ولجوا إلى أول غرفةٍ تقابلهم بعدما رقوا السلم. جعل المنظر الذي رأوه أبدانهم تقشعرّ، حتى الدرك الذين كانوا معتادين على أشياء مثل هذه.

عند الدخول من الباب، وفي الجانب الأيمن من الغرفة كان هناك بعض المتاع، وبعده بقليل تسريحةٌ مرتفعة. وعلى التسريحة، تحت الفانوس الزجاجي ساعة من الطراز القديم، ومصباحا غاز مكتبيان مغطيان بأغطية حمراء، ومرآةٌ كبيرةٌ بإطارٍ ذهبي اللون، وفوق المرآة، على الجدار، مسدسان ذوا فوهتين معلقين بغمديهما. وفي الجهة المقابلة، وأمام النوافذ التي كانت ستائرها مسدلةً تماماً، أرائك منخفضةٌ ممتدةٌ على طول الجدار،[1] مغلفةٌ بأغطيةٍ مزركشة، وعلى أركان الأرائك وسائد بأغطيةٍ مخملية، وفوق الوسائد محارم منمنمة على شكل ربطات.[2] وما بين الباب والأرائك سريرٌ مؤخرته باتجاه الباب؛ وعلى السرير جثتان آدميتان هامدتان ومنتفختان تغطيان كل السرير، وأطرافهما ممتدةٌ إلى جانبيه.

1- كالجلسات العربية القديمة.

2- كشرائط الهدايا.

كان خيط الدماء البادئ من طرف السرير ممتداً إلى منتصف الغرفة، مكوّناً بحيرة صغيرة من الدم المتخثر يوحي بأن أحداثاً عديدةً حصلت هنا.

لكن ما كان يدهش الداخلين إلى الغرفة لم يكن بحيرة الدم ولا الجثتين المنتفختين تحت اللحاف؛ بل كان طفلاً جاثياً يربض في طرف المجلس وينظر إليهم بنظراتٍ جامدة.

أزاح القائمقام قبعته المبللة إلى الخلف قليلاً، ومشى باتجاه الطفل، بينما كان الطبيب قد رفع أغطية الميّتين وبدأ بمعاينتهما.

سأل القائمقام:

"ما اسمك يا بني؟"

"أنا يوسف!"

"يوسف من؟"

"يوسف ابن أدهم آغا!"

قطع القائمقام أسئلته كأنه فوجئ. فقد كان الطفل ابن القتيلين.

"ماذا تنتظر هنا؟"

أشار إلى الجثتين:

"أنتظرهما!"

"ومنذ متى أنت هنا؟"

منذ المساء... هرعت إلى الدرك بعد الحادثة، أبلغتهم وعدت مجدداً. كيف

لي أن أترك المسكينين وحدهما..."

"ألا تخاف؟"

"هما أبي وأمي، لم عساي أخاف منهما؟"

"هل كنت هنا وقت الحادثة؟"

"كنت في الغرفة المجاورة. استيقظت عندما صرخت أمي، وركضت إلى هنا فوراً، لكن الكفرة كانوا قد ذبحوهما قبل أن أصل".

"ألم يفعلوا لك شيئاً؟"

"هجم عليّ أحدهم، ثم جاء آخر من الأسفل، أخذ زميله ومضى".

"ما الذي في يدك؟"

هز الطفل رأسه بطريقة لا تدل على أن هناك شيئاً مهماً، ومد يده:

"كانت أمي ما تزال حيةً عندما دخلت إلى الغرفة.. تتخبط في دمائها. فانقضضت على المجرم، وتعاركنا قليلاً، لكن أمي خمدت فجأة، فتركت خناقه. نظرت إلى إصبعي بعدها فإذا به مجروح. آلمني كثيراً، آلمني جداً لكن الألم خفّ الآن..."

سقطت من يده اليمنى التي مدها إلى الأمام كمادات مخضبة بالدم. وعندما رأى الجميع أن إبهامه كان عبارةً عن قطعة اللحم تتدلى إلى الأسفل متأرجحة سرت بأجسادهم رعدةٌ تملؤها الدهشة.

غطى الطبيب الجثتين وانتقل إلى جانب الطفل، بتر الإصبع المصاب تماماً ثم بدأ في تعقيم اليد وتضميدها. في تلك الأثناء كان الطفل يبدي ثباتاً

وعدم اهتمامٍ يثيران العجب، لكنه كان يعض على أسنانه ووجهه يصفرّ بين وهلةٍ وأخرى. بعد كل هجمات الألم تلك، ظهرت على شفتيه الصفراوين النحيلتين ابتسامةٌ وكأنه خجل من إظهاره لضعفه ومن الدمعات التي ملأت مقلتيه. قال للطبيب الذي كان ينظر إليه بتعجب:

"ليس بالشيء المهم يا سيدي الطبيب، فما المهم في إصبع واحد؟"

"لا شيء، لكنك فقدت دماً كثيراً يا بني!"

والتفت موجهاً كلامه للقائمقام:

"أتعجب من قدرته على الوقوف حتى!"

في هذه الأثناء سأل المدعي العام:

"هل دخل إلى هنا أحدٌ قبلنا؟"

تدخل المختار:

"دخلت أنا فقط، لكنني تركت كل شيءٍ كما هو. وجدت الغرفة هكذا عندما أتيت".

عاد المدعي العام إلى الطفل:

"هل أنت من وضعهما على السرير؟"

"آآآ... كانا على السرير أصلاً. لكنني أسندت رأسيهما على المخدة، وغطيتهما بالبطانية، لينام المسكينان. ماذا نفعل؟"

كان وهو يقول ذلك في غاية الهدوء والثبات، لدرجةٍ تجبر الكبار على غبطته. فإظهاره لذلك القدر من التأثر من أجل شيءٍ لا إمكان لتغييره أمام

ابن المدينة بالذات كان ليضرّ بكرامته.

عاد القائمقام إلى سؤال الولد:

"ألك أحدٌ غير أبويك؟"

"ليس لي أحدٌ غيرهما!"

كانت رباطة جأشه تقطّع قلوب من كانوا هناك. في الحقيقة، إن منظر من يتلقّون المصائب بسكون وضبط نفسٍ لهو أكثر فظاعةً وإرباكاً من منظر أولئك الذين يتلقونها بالجزع والبكاء. ينتاب الإنسان فزعٌ وتردد شديدان ويحزن لأنه لا يعرف أي نار تشتعل خلف تلك العيون الجافة الثابتة، ولا ماذا يغلي داخل ذلك الصدر الصغير الذي يعلو ويهبط ببطء...

تناول القائمقام يد يوسف بيده وسحبها إليه. قال وكأن عينيه قد أدمعتا:

"تعال معي إذاً..."

"إلى أين؟"

"تعال معي... ابق معي. سأحبك كأبٍ لك، اتفقنا؟"

"لكنك لن تستطيع أن تحبني كما كان أبي يحبني، سأجيء. هل أنت أيضاً ليس لك أحد؟"

"بلى، لي، ولكن تعال أنت. كن ابني. فليس لي ابنٌ!"

أمسك بيوسف من أسفل ذقنه، ورفع رأسه. لكن يوسف جفل وسحب رأسه. وعلى مهلٍ انسحب إلى إحدى زوايا الغرفة. كان يوسف برفقتهم وهم عائدون إلى القرية خوالي الوفاض بعد أن لم يعثروا على أي دليل. كان يمتطي

بجلسةٍ معتدلة حصاناً صغيراً أمنوه له من القرية. لكنه في الليل وعندما نام على فراشه، فقد تحكمه بنفسه وراح يهذي تحت لظى نيران الحمى ليومين.

2

لم تكن شاهيندة هانم زوجة القائمقام مسرورةً من إدخال "لقيط قرويٍ" إلى بيتها، ولم تك تخجل من التصريح بذلك بصوتٍ عالٍ أمام الصبي.

كان صلاح الدين بيك، وبعد أن أمضى فترة شبابه كطائش ذاق فيها كل متع الحياة قد أحس فجأةً بالتعب ورأى بأنه لم تعد به قوةٌ كافية للسعي وراء الملذات فتزوج قبل خمس سنوات بفتاةٍ تصغره بخمس عشرة سنة.

مرض الزواج المزمن هذا حكمه سارٍ على الدوام في مدن أناضولنا الصغيرة. فحتى أقوى الأقوياء كانوا بعد الصبر والتحمل لسنةٍ أو سنتين يسقطون في قبضة الميكروب الغادر ولا يستطيعون تخليص أنفسهم منه، وكالعميان يتزوجون أول من تظهر أمامهم.

من الطبيعي ألا يُفكر أحد في تفويت هذه الزيجة، فهي بالنسبة للرجل تعني وجود امرأةٍ في المنزل أكثر من كونها مشاركة الحياة مع شخص آخر، وهي بالنسبة للمرأة وجود "نصيب مناسب". لكن نشاط هذا الميكروب لا يبدأ إلا بعد الزواج؛ ففي البداية يصيب أصحاب الآمال والأحلام من الرجال ممن يريدون الارتقاء وإثبات أنفسهم وترك أثرٍ خلفهم باللامبالاة وعدم الاهتمام. أن يقضي المرء عمره مع مخلوقٍ لا يستطيع التحدث ومشاركة طموحاته معه، مخلوق تختلف درجته وأخلاقه ونظرته للحياة وعاداته عنه يجعله متشائماً فيما يتعلق بالعالم الخارجي ومرتاباً من كل الناس.

بعد أن يتزوج الرجل فإنه يسوق كلَ أهدافه وأفكاره المستقبلية والبلاء الذي وجد نفسه فيه وتقبله كقدرٍ محتوم، ويمضي باحثاً عن المزايا والسعادة التي يقول الناس عنه إنه يملكها وهم لا يجدونها.

استطاع صلاح الدين بيك بشبابه وشعلة نشاطه التي لا تخمد أن يحمي حريته واستقلاله حتى سن الخامسة والثلاثين. لكن عروق الإنسان وأعصابه أحياناً ما تكون أقوى من إرادته وعقله، كما أن مخيلاتنا تصور لنا الكثير من المغريات الخادعة. وإذا ما أخذ هؤلاء زمام الأمر بأيديهم فإن الأمر يعتبر منتهياً؛ ولا تتبق إلا مسألة أن يمنطق دماغنا هذا الأمر ويعرضه كمعقول أمامنا.

لم يحب صلاح الدين بيك هذه الفتاة الجميلة جداً في البداية كمخلوقٍ مساوٍ له، بل أحبها كقطة جميلة، كحَمَل. لكنه اكتشف سريعاً بأنها لم تكن ترى نفسها صغيرةً وبسيطة، بل تريد المساواة.

اكتشف أيضاً في غضون فترةٍ بسيطة بأن لهذه القطة الجميلة الكثير من المخالب الحادة، وأن للحمل قروناً مدببة. أرادت شاهيندة من صلاح الدين بيك المسكين أمراً لم يخطر على باله، فقد طلبت منه أن يعاملها ككفءٍ وند له. وطبعاً ظهرت من فورها مشاكل كثيرة، بل وآلامٌ بالغة. في تلك الفترة كان العقل والمنطق أضعف ما يمكن أن يقف في صفها، يراها وسائل عاجزة وسخيفة وذات تسميات مبالغ فيها. أما الفتاة التي رُبيت في بيئةٍ منغلقة، والمجبورة بالتالي على أن تحبس كل غرائزها الطبيعية واحتياجاتها بداخلها، كانت وكنتيجة طبيعية جداً، عصبيةً ومدمرةً نفسياً. ومع أن أمها وقبل أن تخرج بها للتنزه كانت تصفف لها شعرها لمدة ساعة، إلا أنه لا أمها ولا أباها كانا يشغلان نفسيهما بما يدور في رأس البنت الصغير. كانا يعاملانها كأنها

هي تفاحةٌ في سلة، يزينانها وينظفانها ويلمعانها، ثم يقدمانها إلى زبونٍ ممتلئ. أليست تلك هي الغاية من تنشئة البنات؟

في الواقع، كان هذا النوع من النساء مناسباً لرجل يعود إلى البيت بوجه صارم، بعد أن يسهر إلى منتصف الليل في الثرثرة ولعب الطاولة، ليبحث عن جسدٍ أبيضٍ بضٍ في السرير. لكن أمثال صلاح الدين بيك من الذين يريدون "تأسيس عش عائلي!"، يُصدمون ويتعرضون لخيبة أمل عندما يرون بأن الأمور باتت تنحى منحى مغايراً، وبأنهم كانوا غافلين جداً.

لم يبق لصلاح الدين شيء لم يفعله! فقد جلب لشاهيندة كل ما وقعت عليه يده وظن أنها ستفهمه من الكتب، كان يريد لفكرها أن يرتقي. لكن أول عواقب ذلك كان استخدام زوجته لمصطلحاتٍ في غير محلها، وعندما كان يحاول أن يصحح لها ما تقوله كان "غرور" زوجته يُجرح، فتقوم القيامة الحمراء فوراً.

ظن صلاح الدين بيك بأن الطفلة كانت ما تزال صغيرةً في سن التشكل، وبأنه سيفتح عينيها للدنيا في بيته، ويرشدها ويوجهها ويجعلها صديقة له. أصبح يعاملها معاملة الابنة والأخت الصغيرة لكنه قوبل بسخريةٍ لاذعة؛ فتحول إلى أن يعاملها معاملة السيد المتحكم، فأصبحت تقابله بالعصيان، وأحياناً إذا زادت الأمور عن حدها تقابله بنوبات الإغماء. في النهاية، وعندما قرر أن يمنحها المساواة الكاملة أصبح مجبوراً على أن يتحمل طلباتها اللا مبررة، وتصرفاتها السخيفة، ورغبات طفلةٍ حديثة عهدٍ بنعمة.

لتُطرح البركة، فكما للأناضول مشاكله الحصرية فإن له أيضاً الحل الحصري لكل مشاكله، وهو "الراكي".[1]

1- المشروب الروحي الأول في تركيا. وتسميته مشتقة من كلمة عرق.

هنا، الموظف المنكوب يشرب، والتاجر المفلس يشرب، والشريف صاحب المحصول الكاسد يشرب، والضابط المتعض لبقائه في المنصب نفسه منذ سنوات يشرب، وأخيراً، القائمقام الذي لم يستطع أن يتكيف مع زوجته يشرب...

كان صلاح الدين بيك يشرب أيضاً، فبدأ سكره ومعاقرته للخمر ينتشلان زوجته من مرتبة الزوجة السيئة قليلة الخبرة إلى مرتبة الملائكة الصابرين المتحملين.

حتى الطفلة التي خرجت إلى الدنيا في أولى سنوات زواجهما لم تستطع أن تكون جسراً فوق الهوة التي تفصل أبويها عن بعضهما.

عمل الأبوان ومنذ ولادتها على أن يوضحا لها بأن الدنيا عبارةٌ عن دار عجائب. في منتصف الليل، وبينما كانت تغط في نومٍ مريح، امتدت إليها وحضنتها يدان متهيجتان ثم أخذتا تضغطان على صدرها الشاهق من الخوف. نظرت الطفلة بعينين لا تفهمان كنه الحركات الغريبة التي تحدث، ثم تسرب إلى قعر أذنيها أزيز بكاء.

"آه يا بنتي التعسة! آهٍ يا عزيزتي البائسة.. يا صغيرتي اليتيمة. أرأيتِ؟ لم يعد أبوك بعد! آه يا تعسة، صغيرتي البريئة!"

لم تكن الطفلة تعي شيئاً من كلام أمها، لكنها حاولت أن تخبر أمها بأن تعاستها الحقيقية كانت بسبب أن أمها أيقظتها من نومها الهانئ، ثم وعندما لم تتحمل أكثر، اشتركت مع أمها في البكاء.

ولكي تهدئها أمها هذه المرة أخذتها في حضنها تهدهدها متجولةً في غرف البيت، ثم مخرجةً إياها إلى الحديقة قاصدةً إلهاءها.

هدأت الطفلة قليلاً عند رؤيتها شعاع القمر المتسلل من بين الأشجار ذات الأوراق الداكنة، ثم شعرت بالبرد يخترق عظامها فبدأت بالصياح من جديد موقظةً جيرانهم.

"شششش يا سكّري... اهدئي يا فلذة كبدي الوحيدة... اهدئي... سيأتي أبوك قريباً... لا تبكي يا من تيتّمتِ وأبوك حي. اللهم لا تجعلنا منهم..."

في هذه الأثناء تُفتح نافذة أحد الجيران، فيظهر منها رأس امرأة تسأل:

"ما الأمر يا ابنتي شاهيندة، أتأخر السيد مرة أخرى؟"

"لم يعد يا خالتي العزيزة.. وبنتي المسكينة لا يغمض لها جفنٌ قبل مجيء أبيها. منذ العصر وهي تصرخ بابا، بابا... لا أدري ماذا أفعل يا خالة!"

سحبت الجارة رأسها إلى الداخل بعد أن أدلت إلى شاهيندة بحفنة من النصائح وأهالت على زوجها أنواعاً من اللعنات... بعدها بقليل فُتح الباب ودخل منه صلاح الدين بيك إلى البيت، صعد السلالم بعنفٍ وثقل، ثم ارتمى على السرير من دون أن ينزع ملابسه.

كان دخول المرأة إلى غرفة زوجها لتنزع عنه ملابسه سبباً كافياً لانسكاب مشاعر الرقة والندم التي تكون جاهزةً للخروج لدى الرجل الثمل، فراح الرجل الذي لا يعي ما يدور حوله يتمتم بكلماتٍ غير مفهومة بينما يضم يد زوجته لاثماً إياها وضارباً بقبضته على صدره ورأسه ذي الشعر الأبيض. كان شكل الاستسماح الحامي ذلك يجعل دمع شاهيندة الحساسة والمتهيجة ينهمر، ويترك بكاء الطفلة التي كانت موضوعةً في طرف السرير غير مدركة لما يجري يستمر ممتلئاً بالعتاب.

3

كان يوسف ينظر إلى أحوال المنزل غير المعتادة هذه بأعين الحيرة والدهشة. صحيح أن الخصام كان يقع بين أبيه وأمه أحياناً، ولكن وصفه بأنه إفراغٌ للحنق المكتوم لدى أبيه بسبب غضبه على أي شيءٍ آخر على أمه أصوب من وصفه بالخصام. لأن المرأة المسكينة لم تكن تقدر على الرد أو حتى فتح فمها أو رفع عينيها، بل كانت تبكي في صمتٍ فقط.

كان يوسف يتعجب من قدرة امرأةٍ على فتح حنكها إلى هذا القدر، وينظر إلى القائمقام الذي كان يتحملها ببعض الشفقة.

لم يكن يلقي بالاً للمعاملة التي يتلقاها في البيت. فبرأي يوسف، طالما أن صاحب الكلمة والقرار الأوحد في البيت هو صلاح الدين بيك، فليس هناك أهميةٌ لما تقوله شاهيندة. في بعض الأحيان كان عندما تتواقح عليه ينظر إليها بنظرات تقول: كلام النساء لا يؤخذ بجدية، لا بد أن عقلك ليس في مكانه! ويتحير من عدم إمساك صلاح الدين بيك لزوجته من ذراعها وقذفها خارج الباب لثرثرتها الزائدة.

لم يكن يرغب في الكلام مع أحدٍ في أول أيامه في البيت. ولبدء الجو في البرودة رويداً رويداً أصبح يجلس في الغرفة، وفي أوقات فراغه ينظر من النافذة ناحية جبال قويوجاق ويحاول النظر إلى ما وراء السحاب، لكنه وبمجرد دخول أحد إلى الغرفة يشيح بوجهه عن النافذة ويشغل نفسه بأي شيء آخر.

كان يتصرف ببرودٍ مع الجميع، حتى مع القائمقام. وكانت شاهيندة تردد بأنه ليس لديه حسٌّ إنسانيٌ أو شعور، زاعمةً بأنه لم يكترث بموت أبيه وأمه. في الحقيقة، لم يشهد أي أحد هذا الطفل وهو يظهر أي نوعٍ من المشاعر في أي

مناسبةٍ حتى الآن.

لكنه كان بين حينٍ وآخر، وبينما يتخاصم الزوجان مع بعضهما، يسلط على الزوجة نظراتٍ كأن فيها البغض والاستخفاف، وعندما تحل نظراته على صلاح الدين بيك تلين من جديد، نظرات حلوة ومليئة بشراراتٍ تريد قول الكثير، لدرجة تجعل من يراها يظن بأن في داخل يوسف أحاسيس ومشاعر مختلفة وأكثر عمقاً من تلك التي يملكها الآخرون.

كان الكائن الوحيد الذي لا يتردد يوسف في إظهار مشاعره له هو الطفلة معزّز.

عندما تتجول معزز بساقيها الممتلئتين وخطواتها القصيرة الظريفة في الغرفة، كان يوسف يتابعها بابتسامة على طرف شفتيه، ثم يأخذها في حضنه غير قادر على التحمل، ويبدأ بتمسيد شعرها برفقٍ شديدٍ وكأنه يخشى عليها من التكسر. الطفلة الصغيرة بدورها كانت تبدي لهذا الطفل المنشغل بها بكل هدوءٍ وسكون وجهاً لطيفاً لا تظهره للآخرين كثيراً، فتشد أنفه وشعره؛ وتنفجر ضاحكةً مميلةً برأسها إلى الوراء كلما قذف بها إلى الأعلى.

لكن هذه الألعاب والطفلة الظريفة لم تكن كافيةً لإبهاج يوسف وجعله يندمج مع الجميع. ففي بعض الأحيان وعندما تقع عينه من خلف النافذة على ناحية قويوجاق يغمره جمودٌ مفاجئ، فينزل الطفلة عن حضنه ويغرق في التفكير. حينها تأوي الطفلة إلى ركنٍ من أركان الغرفة من دون أن تصدر صوتاً، وكأنها تفهم كل ما يدور ناظرةً إلى يوسف بعينين واسعتين ومغمومتين.

استمرت تقلبات يوسف هذه إلى أن عُيّن صلاح الدين بيك في منطقة إدرميت بعيداً جداً عن قويوجاق.

4

بدأ يوسف يرتاد المدرسة لأول مرة في إدرميت. لكنه لم يستمر طويلاً.

عندما قدموا إلى هنا كان يوسف في العاشرة من عمره. أصفر السحنة نحيل، لكنه كان قوياً وصبوراً. لم يكن من يرونه يتوقعون أن بإمكانه أن يرهب من هم أكبر منه سناً. بينما في الواقع، ومع أنه لم يكن يتدخل في كل شجارات الحي، إلا أنه عندما يتدخل فإنه ينتصر دائماً، يتصدى لأربعة أو خمسة أفراد بمفرده. ما كان يخيف خصومه أكثر من قوته وشجاعته كان سكونه الذي لا يفقده أبداً، وتصرفاته التي توحي بثقةٍ بالغةٍ في النفس.

كانت المدرسة تثير ملله. فقد اهتمامه وفضوله للتعلم سريعاً بعد أن تعلم القراءة والكتابة. كان يردد بأنه وحتى يكون صاحب علم "تافه" فسيكون عليه أن يخالط "أبناء السادة" ولن يستطيع التخلص منهم لاحقاً. وطبعاً، كان ذلك يفتح المجال لشاهيندة للهجوم على يوسف والتكهن بمستقبله. فكم من مرةٍ قالت لصلاح الدين بيك صارخة: "ألم أقل لك يا سيد بأن هذا الطفل سيكون وجعاً لرأسك؟ هيا انظر إلى نتائج خوفك من أن تتصرف كرجل. أبصم لك بالعشرة أن هذا الطفل سوف يكون حمالاً أو قاطع طريق. ولا ذنب لأحد في ذلك..."

"حسناً، ولكن ماذا تريدين من هذا الطفل يا زوجتي العزيزة؟ لنرَ، ليكبر قليلاً، ربما يتغير، فلم يمض على تركه قريته أكثر من عامٍ واحد... في داخله نزعة إلى الحرية مهما كان قدرها. لم يستطع أن يتكيف على حياة المدن".

"أنت أعرف. لكن لو استمر ابن الحرام هذا في انعزاله واختلافه فسآخذ ابنتي وأهجرك؛ وعش أنت بعدها مع حبيبك يوسف".

أوضح صلاح الدين بيك لزوجته بلهجةٍ قاسية بأنه لا حاجة لمثل ذلك، وبأن عليها أن تتخلى عن تهديداتها المستمرة بتركه، وبأن الباب واسعٌ لتخرج لو لم يطب لها الحال، كما أخبرها أن أباها لن يكون سعيداً لرؤيتها تعود إليه، لكنه اضطر بعدها إلى أن يحاول تهدئتها بعد نوبة بكاءٍ استمرت لأكثر من نصف ساعة.

لم تكن لا مبالاة يوسف تجاه التحصيل العلمي تعجب صلاح الدين بيك كذلك، لكنه كان متردداً من أن يصرّ عليه لمعرفته بأن لهذا الطفل طبيعة مختلفة. أصبح يسأله تارةً وأخرى:

"لماذا لا تريد أن تدرس يا يوسف؟"

"لقد تعلمت القراءة! ماذا سأتعلم بعد؟"

"لا يكفي ذلك يا عزيزي. عليك تعلم أشياء كثيرة في هذه الدنيا!"

"سأتعلم ممن يعلمون عندما أضطر للتعلم!"

"أليس التعلم من المعلم أفضل يا بُني؟"

عبس يوسف رغم إرادته عندما تذكر المعلم. ورفع حاجبيه:

"لو كان ما يعلمه المعلم مفيداً لنفعه هو. حتى أنت درست وتعلمت، ماذا أصبحت يا ترى؟ أبي لم يكن يعلم الكثير ولكن كلمته كانت ساريةً في البيت". قالها ثم تابع بأدبٍ واحترام: "ما فائدة تعليمك إذا كنت لا تستطيع إيجاد حلٍ يسكت أمي شاهيندة التي لا تكف عن إزعاجها وحماقتها؟"

لم يمنع كون هذه الكلمات طفوليةً وبسيطة أن تكون حقيقية؛ وجد صلاح الدين بيك أن في الرد على الطفل وإقناعه صعوبةً كبيرة.

قرر أن يترك كل شيء يمضي كما هو. حتى شاهيندة لم تكن متذمرةً من ذلك رغم كل نكدها: فقد كانت تستطيع ترك معزز ليوسف ليعتني بها وتخرج هي إلى حيث أرادت، كان يوسف يوفر عليها عناء اصطحاب معزز معها أو المكوث معها في البيت والاهتمام بها.

وبذلك، فإن يوسف الصغير أصبح كشجرة تينٍ بريٍ نابتةٍ على أطلال قلعة، متشابكةً وبشكلٍ عشوائي، لكن حرةً تكبر وتتمدد كما تريد.

5

كانت إدرميت بلدةً لطيفةً وكبيرةً إلى حدٍ ما، تحيط بها من ثلاث جهات قرية تشامتبه وإبراجاكوي وطاوشانبايري. يمر من خلالها ومن وسط شوارعها جدولا ماء يتحدان معاً في مكان يسمونه السوق السفلية، ثم وبعد مسافة ليست بالطويلة يتحد مع نهر بويوكشاي المحاذي للبلدة.

منظرها من فوق التلال بديعٌ ليس له نظير:

أشجار التوت والبرقوق والتين بأوراقها الواسعة كأنها تسعى لتغطية قرميد أسطح البيوت الداكن المليء بالطحالب، وعلى جانبي الجداول أشجار حور طويلة تميل أوراقها للون الأبيض، تشبه في بعض الأماكن شريطاً مقطوعاً يحاذي أحياء الضفتين؛ وبينها ترتفع ربما أكثر من عشرين منارة ناصعة البياض، يخيل للعين التي تنظر إليها أنها تتأرجح بخفةٍ مع الهواء تماماً كأشجار الحور.

وقبة جامع قورشونلو الذي يقع وسط منطقة السوق العلوية تلمع دائماً ببريقٍ باهت.

كان في منظرها العام تناسقٌ وتلائمٌ كما في اللوحات المرسومة.

يلف بهذه التشكيلة من المنارات والأشجار والقراميد طوقٌ أخضرٌ من أشجار السفرجل والفواكه المختلفة والحقول المزروعة؛ وحول هذا كلها تمتد أشجار زيتون سوداء الأوراق إلى مد البصر.

يُظهر وسط البلدة منظراً لتجارٍ وحرفيين متوسطي الحال. للبيوت الخشبية المنمقة التي تقع على جانبي الطرق الضيقة، والتي تشبه بعضها تماماً حدائق بالتأكيد. تبرز من بين بعضها بيوت أشراف ووجهاء البلدة. جيرها الأبيض، وبواباتها ذوات المصاريع المزدوجة، وصور الحروب والسفن الحربية المعلقة على الدور الثاني، كلها تذكر المرء بالحكايات التي سمعها في طفولته.

كان بيت صلاح الدين يقع في حي يسمونه بايرام يري، بعيدٍ عن الحي الذي يقطنه الروم وعن منطقة السوق السفلية.

وكان في ظهر بيته الذي يقع على زاوية الشارع حديقةٌ كبيرة يمر الجدول بمحاذاتها، يحاول الأطفال في الجدول الذي لم يكن عمقه يتجاوز الشبرين اصطياد السمك بأطراف أغطية البراميل الحادة.

وفي الجهة التي تقابل المنزل كانت هناك مطحنة برغل؛ كانت النسوة يدرن الذراع الخشبية لرحاها الصخرية وهن يتضاحكن.

وعلى بعد مسافة غير طويلة، كان الأطفال الكبار يتحرشون بالبط في المنطقة التي يتسع فيها الجدول.

هنا يكون للأطفال، مثل الكبار تماماً، مجموعاتٌ وتصنيفاتٌ مختلفة، ولكن تصنيفاتهم تعتمد على أسسٍ تختلف كثيراً عن الأسس التي يعتمدها الكبار.

كان الفتوّات والوقورون منهم أكثر المَعتبَرين أصحاب الكلمة السارية؛ لم يكن هؤلاء يتدخلون في أي عراكٍ ومشكلة، لكنهم لو فعلوا ودخلوا في عراك ما فإنهم لا يرهبون حتى خطر الموت. يعملون على حماية أطفال الحي الضعفاء، وحل منازعات الأطفال باللين، وبالقوة إذا تطلب الأمر. أي أن لهم السلطة في كل شيء. يتكون هؤلاء في معظمهم من أطفال العوائل الفقيرة ومتوسطة الحال، لكنها شريفة؛ يتعلمون حرفةً من أحد الحرفيين أو يساعدون آباءهم.

يأتي من بعدهم الأطفال ذوي التربية والذين لا يتدخلون بشأن أحد. أغلب هؤلاء الأطفال مجتهدون يذهبون إلى المدرسة. لا يشتبكون مع أحد. وحتى لو اشتبك معهم أحد فإنهم يتركونه ولا يردون عليه. وإذا زاد التعرض لهم يبكون ويشتكون إلى آبائهم. لكن من يدعى في الجماعة "بالفتوة الشريف" كان يحميهم أكثر مما كان آباؤهم يفعلون. كان نساء الحي ومسنّوه يكنون لهم الاحترام، كما كانوا بالنسبة لآبائهم وأمهاتهم "مصدر فخر".

هناك أيضاً فتواتٌ أشقياء ظالمون أصحاب المشاكل. حتى هؤلاء لم يكونوا يهابون شيئاً؛ لكنهم لم يكونوا وقورين مثل غيرهم. لا يفتؤون يفتعلون المشاكل والحوادث، ولا شغل لهم إلا مضايقة البط ولعب الخرز، أو قذف أشجار توت الجيران بالحجارة. كان هؤلاء أخشى ما يخشاه الأطفال المهذبون، الحي كله يتبرأ منهم.

أما أكثر من يُستخف بهم فقد كانوا السفهاء، الجبناء، المتملقين العالات، ويمثل هؤلاء أبناء الموظفين. كان هؤلاء الأطفال الذين يتلقون تربيةً غير صالحةً، ويتلقون كثيراً من الصفعات في بيوتهم، ولم يبق لديهم شيءٌ اسمه عزة نفس، ويداومون على التهرب من المدرسة يُنظر إليهم بعين الاحتقار

والاستصغار من قبل الفتوات الحقيقيين. وحتى لو نجحوا في جعل أحدٍ يعيرهم اهتمامه بغرض أن يستغلهم (لأنهم كانوا يسرقون أشياء ويحضرونها من بيوتهم)، فإنهم كانوا سرعان ما يتم طردهم في أقرب فرصة. ليس لهم أي دورٍ في عراكات ونزهات الحي.

في الأخير، تأتي مجموعة من الأطفال المساكين الجبناء الذين لا يمس أجسادهم الماء ولا الصابون، لم يكن لهؤلاء أيُّ اعتبارٍ ولم يكن يلقي لهم أحدٌ بالاً؛ وكان الجميع يتركهم وشأنهم، لأنهم كانوا يشبعون من عصا الفلقة، فقراء يقضون ثماني عشرة ساعةً من يومهم بجانب بيطريٍ أو في مقهىً يعملون به لسد رمقهم؛ أو أيتاماً يكدحون في الحقول في الصيف، وفي الشتاء يعملون في مزارع الزيتون ليطعموا أمهاتهم. الكل ينظر إليهم بشفقةٍ وخجل.

6

لم يتدخل يوسف في شؤون الحي لمدةٍ من الزمن لسببين، أولهما أنه لم يكن قادراً على أن يطرح عن رأسه ذكرياته القديمة الفظيعة، وثانيهما أنه كان يستشعر غربته الشديدة عن هذا المكان. فالناس هنا يعرفون أشياء كثيرة؛ أشياء لم يكن يعرف منها شيئاً... وهذه المعارف كانت تنضح من كل تصرفاتهم. لم يعيروا هذا الطفل الغريب أهميةً في البداية، لكنهم عندما لاحظوا بأنه هو الذي لا يعبأ بهم أرادوا استفزازه والسخرية منه. لم يفهم شيئاً من تهكماتهم المستظرفة، لكن في يوم من الأيام لكم يوسف فتى اسمه قاراباش محمد لكمتين، وكان هذا أحد الذين كانوا يسخرون منه بسخرياتٍ لم يكن يفهمها، ويحاولون إضحاك من حولهم. تقلّب الطفل بفمه الدامي على الأرض وهو لا يدرك ما حصل. حاول أن ينهض وينقض على يوسف،

لكنه تعرض لهجومٍ ثانٍ طرحه قبل حتى أن يجد وقتاً ليعتدل واقفاً. انسحب يوسف بخطواتٍ هادئةٍ من بين الأطفال الذين كانوا يراقبونه بدهشةٍ وصمت ثم عاد إلى البيت. ومنذ تلك الحادثة أصبحت كل الحارة تخشاه. كما أصبح له أصدقاء فجأة، على رأسهم كان علي ابن البقال شريف أفندي. تعرف يوسف على هذا الطفل الذي كان يرتاد المدرسة بانتظام ولا يدخل في عراكٍ مع أحد وهو في بيته مع أمه. ومع أن علي كان أكبر منه إلا أن يوسف أصبح يحميه ويعامله كأخيه الصغير. كان علي يتعلم أشياء كثيرةً في المدرسة، ثم يحكيها بدوره ليوسف. ينصت إليه يوسف أحياناً بابتسامةٍ خفيفة وأحياناً يرفع حاجبيه باهتمام، لكنه لم يكن يظهر تعابير الدهشةِ قط. وكأنه كان يعلم كل هذه المعلومات من قبل. حتى أكثر أحداث الدنيا إثارةً للدهشة والفضول لم تكن لتقدر على إزالة عدم مبالاته على كل حال. ورغم امتعاض عليّ من ذلك إلا أنه سعيدٌ لإنصات يوسف له بهدوء، يحكي له ويحكي، ثم عندما يحل المساء يخرج معه للتسكع في الشوارع، أو تناول الجرار والذهاب إلى نبع شنار لملئها بالماء. كان النبع ذو الماء الأنقى يكون في غاية ازدحامه في المساء وكأنه يوم المحشر؛ فتياتٍ بالغاتٍ يمضغن العلك وجرارهن مائلةٌ على أذرعهن، حافيات ومنتعلات؛ وأطفال يحملون أباريقَ جاؤوا بها بشق الأنفس، يباشرون في البكاء عندما يحل الظلام قبل أن يعودوا؛ وقهوجيون متمرسون يتجمعون هنا دائماً بمراييلهم البيضاء، وشعورهم المفرقة من المنتصف، في يد كلٍ منهم تنكتان، يتحدثون ويتخاصمون مع غيرهم على الأولوية في الصف، ثم يملؤون تنكاتهم ويمضون. حتى أبناء العائلات النبيلة من الأطفال كانوا مكلفين بتأمين ماء الشرب لعائلاتهم من هذا النبع. هذه عادةٌ قديمة.

•

كان يوسف وفي مراتٍ كثيرةٍ يصطحب معه معزز في رحلاته إلى النبع.

كانت الطفلة تتمسك بيد يوسف بشدة بينما يتحدث مع صديقه علي دون أن تصدر أي صوت، تقفز بقدميها الصغيرتين من حجرٍ إلى حجرٍ في الطرقات المهترئة. وبين حينٍ وآخر يترك يوسف الثرثرة وينظر إليها، فترفع رأسها نحوه وتضحك، لكن قدمها ما تلبث أن تصطدم بحجرٍ فتعبس لأنها تضطر إلى النظر إلى الطريق من جديد، وبذلك تُضحك يوسف.

ورغم كثرة أصدقائه في الخارج إلا أن الشخص الوحيد الذي لم يكن يوسف يهمله قط هو معزز. يزداد عدد أصدقائه مع مرور الأيام. أحياناً كان يصعب على والدها وأمها التعامل معها فيوكلونها إلى يوسف.

لم تخرج معزز عن طاعة يوسف قط. كان لتركهما وحدهما دون تدخّل أثرٌ كبير في انسجامهما مع بعضهما إلى هذه الدرجة. وجدت شاهيندة هانم في هذه البلدة الأكبر والأكثر تطوراً من نازيلّي العديد من الصديقات والجارات المناسبات لها. كانت تتنزه معهن، تستمتع وتحتفل وتمضي أوقاتاً جميلة على أنغام المعازف. أما صلاح الدين بيك فلم يكن يمر على حيه. فعمله الحكومي الصباحي ومجالس الراكي في الليل كانت سبباً في ألّا يرى الطفلان وجهه لعدة أسابيعٍ أحياناً.

كانت الخادمة الروملية[1] تضع أطباق الطعام أمام الطفلين، ثم تذهب إلى غرفتها لتنام تاركةً إياهما لوحدهما. في الحقيقة فإن معزز الشقية بعض الشيء كانت ستقلب المنزل رأساً على عقب لولا وجود يوسف فيه. لتُطرح البركة في الآخر، كان ينظم لها ألعابها ويرتبها ويتصرف معها كصديق، ويحاول أن يكون لها مربياً على قدر ما يستطيع.

1- روميليا هو الاسم الذي كان يُطلق على الأراضي العثمانية الواقعة في أوروبا.

كانت السنوات تمضي على تلك الحال، ببطء، لكن بلا توقف.

7

كان صديق يوسف الآخر هو كاظم ابن رشدي أفندي وهو من ألانيا. كان الأطفال يلعبون في حديقتهم في أغلب الأحيان لأنها واسعةٌ جداً. ففيها الكثير من أشجار الفاكهة التي يحبونها، ومنها شجرة توت أسودٍ ضخمة كانت تجذب الأطفال إليها كالمغناطيس. هناك من كانوا يصادقون كاظم لكي يأكلوا من توت هذه الشجرة فقط. في الأصائل المنعشة كانت تمتلئ الشجرة بأطفالٍ صغارٍ وكبار، تارةً تُرى قدمٌ متدليةٌ تتأرجح بين أوراقها الخضراء الواسعة، وتارةً تُرى ذراع تحاول التمدد على غصنٍ آخر. ينزلون عنها ووجوههم وأيديهم وقمصانهم مزينةٌ ببقع حمراء داكنة، وفي يد كل واحدٍ منهم رزمة أوراق توت، يعدون إلى مضخة الماء ليفركوا بها ملابسهم ويزيلوا عنها البقع.

كان كاظم المداوم على الذهاب إلى المدرسة، والمساعد لأبيه في متجر القماش، أكبر الأطفال سناً في المنطقة وأكثرهم اعتباراً. لا يعطي شيئاً بلا مقابلٍ أبداً، وحتى التوت الذي يؤكل من شجرتهم يعوض حقه، ففي النزهات المنظمة أيام الجمعة لا يحضر معه أي شيء، ويعتمد على ما عند الآخرين.

كانت نزهات الجُمع هذه من أهم متع أطفال الحي. يطلبون من أهاليهم

تحضير الحلوى في يوم الخميس، وفي يوم الجمعة يأخذون كباب ورق[1] أو طنجرة إلى الفران أو يشوونه في الخلاء بأنفسهم. كان أمهرهم في الطبخ ابن رئيس قسم الشرطة وصفي. لم يكونوا يحبون أن يضمّوه إليهم لكونه متملقاً وجباناً بعض الشيء. أصدقاؤه في المدرسة بالذات كانوا يتشكون من وشايته، ولكنهم كانوا يتحملونه لفكاهته وإضحاكه لهم بنكاته. كان هذا مثل كاظم، إلا أنه كان يعتمد على الآخرين بدون أن يعطيهم أي مقابل.

أكثرهم غنىً وتواضعاً كان ابن الحاج رفعت واسمه إحسان. قضى أبوه وهو في رحلة صيدٍ بسبب حادثة (هناك من يقولون بأنها لم تكن حادثةً بل كان انتقاماً من الآغا غالب الأرناؤوطي على مسألة مزارع زيتون لم تحل بينهم)، فورث كل ثروة أبيه ومسؤولية طفلٍ في الرابعة لأنه أصبح "رجل البيت" بعد أبيه. في هذه الأيام أصبح يتغيب عن المدرسة، وعندما يعود ليداوم يحكي لأصدقائه عن جلسات الراكي التي قضاها مع بعض الشباب وعن مغامراتهم النسائية، فتفغر أفواه المستمعين من التعجب والغبطة. كانوا جميعهم ينظرون إليه كرجل بالغ، ويرون في كونه منهم شرفاً كبيراً لهم. كان عيب إحسان الشجاع صاحب القلب الطيب هو كونه بطراً ومفتعلاً دائماً للمشاكل. في كثير من المرات كان يتسبب في دخول الحي بكامله في عراكٍ مع حيٍ آخر على مسألةٍ سخيفة.

كانوا في نزهات يوم الجمعة هذه يأخذون حملانهم لترعى على الحشائش الخضراء بينما يحضر قسمٌ منهم الطعام ويشعل النار، والقسم الآخر يستحم في الجدول. وبعد أن يتناولوا طعامهم المختلط على عجل يبدؤون في الترنم بأغانٍ شعبية، والعزف على المزامير المصنوعة من أغصان الصفصاف، أو

1 - وصفة كباب ملفوف بالورق.

سرقة اللوز والبرقوق من إحدى المزارع القريبة. أما الرزناء منهم فكانوا يجلسون تحت شجرةٍ ويراقبون الحملان وهي ترعى، بينما يحكون لبعضهم عن مغامرات الفتوة والتمرد. كانت مشاهدة هؤلاء الفتيان في المساء وهم عائدون منهكين مرهقين يسوقون حملانهم وعلى ظهورها أحزمة البرسيم بأغصانٍ غضةٍ اقتطعوها شيئًا رائع حقاً.

8

مرت السنوات الطويلة والمتشابهة على مهل. أصدقاء يوسف هم نفسهم أصدقاؤه القدامى، والحي نفسه الحي القديم، ومطحنة البرغل هي نفسها لم تتغير، والنسوة اللاتي يدرن رحاها أيضاً لم يتغيرن. لكن الفرق أن أطفالهن المتسخين أصبحوا يلعبون حول الملاءة التي كان عليها البرغل؛ أيديهم كبرت وأصواتهم ثخنت.

كان قد مر على خروج يوسف من قويوجاق ست سنوات. كأنه لم يعد يتذكر. لكنه عندما يعجز عن التفاهم مع أصدقاء البلدة يشعر بحنينٍ ومشاعرٍ مبهمةٍ أخرى نحو أصدقاء القرية.

هذه السنوات الست كان يمضيها متجولاً في الأرياف صيفاً، أو نائماً تحت أشجار مزرعة صلاح الدين بيك التي كانت تقع في منطقة تدعى جنت ياغي؛ أما في الشتاء فقد كان في السنوات الأولى يسرق العيدان الصغيرة التي كانت تربط شُوالات الزيتون الموضوعة أمام المصنع ويلعب بها لعبة

القازق،[1] أما في الشتاءات الأخيرة فقد كان يشرف على هز أشجار الزيتون وجمع ثمارها في مزرعة صلاح الدين بيك.

بلغ عامه السادس عشر، وشيئاً فشيئاً أصبح يفضّل الصمت أكثر. كان يجلس مع صديقه علي الذي أتم دراسته وورث عمل أبيه أمام دكانه الذي كان في منطقة بايرام يري، يجلسان على دكةٍ بلا مسندٍ لساعاتٍ دون أي كلام. كان في الميدان الذي يقابلهما نافورةٌ كبيرة. يتوضأ المسنون فيها وهم ذاهبون إلى المسجد. وفي النافورة عدة بطّاتٍ تسبح مهتزةً خلف بعضها البعض، مصفية المياه العكرة بمناقيرها المفلطحة. كان حفيف أوراق شجرة الدلب التي تظلل كل الميدان لا يتوقف، وعلى مسافةٍ قريبة فوق سطح منزل آل قاربوز لقلقٌ يحاول تعليم أفراخه الطيران ويصدر أصواتاً غريبة. يبدأ التسوق هنا عندما يقترب موعد الأذان، أما قبل ذلك فنادرٌ أن يأتي أحد إلى الدكان. وهكذا كان الصديقان محبا الهدوء ينظران إلى أوراق شجرة الدلب أو إلى البط ويغرقان في التفكير.

أحياناً كانا يضعان أوشحةً مصنوعة من قماشٍ أسود على رأسيهما ويلوحان بأطرافهما في الهواء فتأتي بعض الفتيات ويخترن حريرياً مذهباً. وامرأةٌ عائدةٌ من ضيافة عائلةٍ ما تنظر إلى فناجين القهوة، وخادمةٌ تشتري نصف أوقيةٍ من الليمون والملح، وحفيد آل قاربوز يطلب فستقاً مملحاً.

كانت أيام الشتاء مختلفةً وتمر بسهولة أكبر. يستيقظ يوسف قبل أن تشرق الشمس، يرتدي حذائه ومعطفه ويتوجه إلى مزرعة الزيتون قبل العمال.

1- لعبة تتم برمي عود تلو الآخر على الأرض، بحيث يُسقِط العود الثاني العود الأول دون أن يسقط هو. للاستزادة يمكنك البحث في موقع يوتيوب باستخدام الكلمة: oyunu kazık.

هناك يشاهد ضرب العمال السريع لأغصان الزيتون بعصيهم الطويلة، والعاملات الثانيات لأرديتهن السوداء والمثبتات لها على خصورهن، وهن يجمعن الزيتون المتساقط بأصابع متجمدةٍ من البرد، أو كان يسند ظهره إلى شجرةٍ وينظر إلى الأرض.

كانت هذه الأشجار ذات الوجوه العابسة المحدودبة التي فقدت شكلها بسبب قطع أطرافها كل سنة كأنها أحرفٌ غريبة تروي حكايةً طويلة، ويوسف كان يفهم لغتها على كل حال.

كان يوسف يفهم لغة العاملات أكثر من أيّ أحدٍ آخر. فبينما كان ملاك المزارع الآخرون لا يسمحون للعاملات المصطحبات لأطفالهن الرضع بأن يلقمنهم أثدائهن حتى، كان يوسف حالما يلحظ بأن إحداهن تعبت قليلاً يأمرها بأخذ قسطٍ من الراحة. كان مع رؤيته بأن ما هم عليه من تدبير القدر يتألم لحالهم كثيراً. كانت صاحبات السحنات الشاحبة اللواتي يتدفقن من الشوارع باتجاه مزارع الزيتون قبل طلوع الفجر كل يوم منكمشات من البرد وأطفالهن على ظهورهن وفي أياديهن قصعات من الخبز، ليعملن مقابل أجورٍ هزيلة يثرن فضوله. وفي مراتٍ كثيرةٍ بينما كن يمررن بجانبه شعر برغبةٍ ملحةٍ في أن يوقف إحداهن ويكلمها؛ عن أي شيء كان، أن يتكلم فقط. لأنه ومنذ ست سنوات لم يصادف عاملة تتكلم مثله وكانت تنتابه شكوكٌ في قدرة عاملات الزيتون أولئك على الكلام مثله.

***

فعلياً لم يكن قادراً على التعود على أبناء المدينة، فعل ما فعل، أو صادق من يصادق... كان يجد نفسه غريبةً ومنفصلةً جداً عن هذا المكان. لم يكن

يستطيع تفهم أفعالهم، فمثلاً حتى أقرب أصدقائه له كانوا ولمجرد المزاح فقط يخونونه أحياناً ويكذبون عليه أحياناً أخرى. كان يستاء منهم في البداية؛ لكنه عندما رأى بأن ذلك كان يعد شيئاً طبيعياً يمارسه الجميع تراجع عن غضبه، لكن حيرته لم تزل بعد: لماذا كانوا يشعرون بالحاجة إلى الكذب بداعٍ وبلا داعي؟

ثم لماذا يعتقدون بلزوم معاملة هؤلاء العمال الفقراء كالكلاب؟ نعم، صحيحٌ أن الله خلقهم فقراء، لا ذنب لأحدٍ في ذلك، لكن لماذا يُركب على ظهورهم لمجرد أنهم خُلقوا كذلك، ولا تتم معاملتهم كالآخرين؟ ماذا لو خلق الله الأغوات - السادة- وأبناءهم فقراءً؟ نعم، فما دام خالقهم كلهم هو الله... أليس لهم أن يطلبوا أن يعاملوا بنفس الطريقة؟

كانت أفكاره بحق الله لا تتجاوز ذلك الحد، كان يتصوره إلهاً مخيفاً قادراً على فعل أي شيء؛ وبما أنه يعرف بأنه لم يكن يقول شيئاً يستوجب غضب الله، فلم يشعر أن هناك داعٍ لأن يخاف.

***

أصبح عمر معزز عشر سنوات. أكملت المرحلة الابتدائية التي كانت عبارةً عن أربع سنواتٍ فقط. أصبحت بفضل بعض الجارات الطيبات تتعلم الخياطة والنقش والنسج، وتذهب مع قريناتها من الفتيات إلى الخياطة مروّت هانم ليتعلمن العزف على العود. لكن يوسف لم يدعها تكمل دروس العود هذه، ولم ير هناك حاجةً لأن يشرح أسبابه. لم يكن صلاح الدين بيك سعيداً بانقطاع ابنته عن دروس الموسيقى التي كان يراها مهمةً جداً، لكنه تخوف من أن يجادل العنيد يوسف في ذلك. حتى شاهيندة تكلمت لفترةٍ

ثم سكتت: أصبح يوسف هو صاحب الكلمة المسموعة في البيت. حتى شاهيندة اعتادت على ذلك. أصبحت ترى كل شيءٍ طبيعياً، وكأن الأمور كانت هكذا دوماً.

في الحقيقة كانت معزز هي الحزينة لانقطاعها عن الدروس. فقد كان بيت مروّت هانم مزدحماً ومسلياً، تجتمع فيه الفتيات المرحات العارفات الماكرات. لكن ما الحل؟ فمن المستحيل أن تتحدث مع يوسف في مرادها، والشيء الوحيد الذي يخفف حزنها قليلاً كان متعة إطاعتها لكلمة يوسف. أما سبب رفض يوسف فقد كان عدة إشاعات غير لائقة سمعها عن بيت مروّت هانم من إحسان.

9

كانت الأعياد أحد الأحداث النادرة التي تكسر رتابة هذه المدن الصغيرة. عيد الفطر بالذات، يكون حافلاً لكونه يأتي بعد انتظار واستعداد شهرٍ كامل.

أكثر الأولاد كانوا يصومون، ويؤدون الصلاة. أما القيام للسحور، والنوم إلى الظهيرة ثم التسكع في حالةٍ من الخمول والنعاس كان متعةً مختلفة. في الظهر يذهبون إلى جامع قورشونلو ويستمعون لمواعظ الشيخ سليم إبرادلي، وفي العصر لا يفوّتون حلقات القرآن، وقبيل المغرب تتعلق الأعين على التلة انتظاراً لرؤية قذيفة المدفع. ولإمكانية رؤية القذيفة من أي مكان في البلدة كان الناس، الأطفال منهم بالذات، يتجمعون في ميادين المدينة ويتابعون حركة رامي المدفع بنظراتٍ مدققة. أما من كانت بيوتهم

مجاورةً لمسجد قورشونلو فكانوا يراقبون إعطاء المؤذن صاري حافظ الذي ينتظر فوق المنارة وهو ينظر إلى ساعته إشارة حلول الوقت إلى رامي المدفع. وبمجرد فرقعة المدفع، يتفرق الجميع متصايحين إلى بيوتهم وكأن قذيفةً حقيقيةً سقطت بينهم.

وفي الليل يخرجون بصحبة الكبار إلى الشوارع، يتجهون إلى صلاة التراويح، لكنهم لا يلبثوا أن يخرجوا غير مستحملين طول الصلاة، يستغلون عدم وجود الكبار فيذهبون إلى المقاهي ويلعبون الطاولة. وبعد انتهاء التراويح يتجولون في الشوارع في جماعاتٍ والهراوات في أيديهم، أو يدخلون في عراكٍ مع حارة الكفار.

كانوا ينتظرون ليالي الخميس بالذات بصبرٍ نافذ. لوجود جلسة ذكر في التكة القادرية، يصطف الأولاد حول التكة، ويتفرجون على الداخلين، النساء منهم خاصةً، ثم متدافعين عند النوافذ يشاهدون الدراويش. كان بينهم بعض المهذبين وأصحاب الامتيازات الخاصة، كان يُسمح لهم بالدخول إلى التكايا مع آبائهم، والمشاركة في جلسات الذكر العلنية أحياناً. هؤلاء، كانوا في انجذابٍ وغشاوةٍ لا يفهمون سببها، يأرجحون أجسادهم يمنةً ويسرةً بكل مرونة، وبين وقتٍ وآخر يرفعون أنظار أعينهم الضبابية إلى الأعلى، ناحية قسم النساء.

يأتي العيد عقب ذلك كله حافلاً ومليئاً بالمرح. صادف يوم العيد بداية اندماج يوسف في جو هذه المدينة التي كان يحس نفسه غريباً عنها، ومشاركته في مناسباتها الجيدة والسيئة وبدء "حياته" الحقيقية فيها.

في أول يوم عيدٍ من أعياد الفطر، عاد يوسف من صلاة العيد ومكث

يراقب شاهيندة وهي تزين معزز وتلبسها الفستان الذي اشتراه لها وهو يبتسم.

سيأتي كاظم، ووصفي ابن رئيس قسم الشرطة، ومليحة أخت وصفي، وعلي ابن شريف أفندي ثم يذهبون سوياً بسيارةٍ إلى شاطئ مدينة أكشاي القريبة.

لكن علياً جاء وقتها وأخبر يوسف بأن والد كاظم أمره أن يفتح الدكان لأن دخل الدكان في صباح العيد يكون أكثر من دخله في الأسابيع الأخرى، وبأنه لن يسمح له بالذهاب إلا بعد الظهر، فأُجّلت الرحلة إلى ما بعد الظهر.

فقرروا الذهاب إلى بايرام يري لتمضية الوقت حتى الظهر. كان يوسف ومعزّز وعلي قد ارتدوا ملابس جديدة. وقميص علي الافرنجي المحاك من الزفر شامي اللون وسترته المطرزة والمزينة الطرف مجهزان خصيصاً لهذا اليوم.

يوسف كان يبرق بلباسه المحاك من قماش الشيطان، ونعله المطاطي ذي الكعب المنخفض وقبعته المائلة إلى الوراء.

لكن الأكثر تألقاً بينهم كانت معزّز. على ظهرها سندسية بنفسجية وفستانٌ يظهر لمعان عينيها تحت الشمس، وفي قدميها حذاء بشرائط جميلة، وعلى شعرها ربطاتٌ حمراء مخاطةٌ متدلية للخلف.

معزز التي كانت في الثالثة عشرة من عمرها والتي ازداد جمالها فجأة، أصبحت كأنها سيدةٌ ناضجة وبالغة. ورغم كل حيائها ومحاولاتها فإن صدرها النافر قليلاً من وراء ردائها الفضفاض كان يجذب نظرات علي

المسكين الفضولية والمتعجبة إليه.

مشوا إلى حي بايرام يري، وكان الوقت ضحىً. والصخب المرتفع من كل الجهات يكاد يصم آذانهم. وفي طرف الميدان مباسط مظللة، عليها أوشحةٌ وأساور وحنة وعلكة ينادي عليها باعةٌ متجولون من ألانيا وأكسكلي. والأطفال ينفخون في مزاميرهم المتينة بتصميمٍ لا يعرف التعب. وأحد سائقي العربات واقفٌ بجانب أحصنته وفي يده سوطٌ يهتف: "إلى حي صوغوك طولومبه، إلى حي جنت ياغي! إلى حي صوغوك طولومبه، إلى حي جنت ياغي!" محاولاً جمع الزبائن. امتلأت العربة بالأطفال، وهم يتصايحون ويتحدثون ويعزفون على المزامير. وفي تلك الأثناء تمر عربةٌ ممتلئةٌ بسرعةٍ من جانبهم يصرخ سائقها "ابتعدووووا"؛ ومن بداخلها يرفعون أصوات الفرح ويترنمون بأغنيةٍ شعبيةٍ تقول:

حانةٌ على رأس الزاوية

بابها من كرمة عنب

اخترت مواجهة الخطر

حتى لو سجنوني خمس عشرة سنة

وعلى بعد مسافةٍ بسيطة منهم كانت قد نصبت أرجوحات في وسط الميدان، واحتشد الزحام الحقيقي حولها. بعضها كانت مثل غرفٍ صغيرة تستوعب عشرة أو خمسة عشر طفلاً صغيراً، يتأرجحون فيها بملابسهم ذات الألوان الفاقعة. أما الأطفال الأكبر سناً فكانوا يركبون الأراجيح المزدوجة.

قال علي بعد أن تفرج على المنظر لمدة: "هيا نركب!" هز يوسف رأسه قائلاً:

"اركبوا أنتم. أما أنا فسأصاب بالدوار".

ركب علي ومعزز أحد الأرجوحات التي خرج منها أطفالٌ للتو. بدأت بالتأرجح بهدوء، ورويداً رويداً راحت حركتها تتسارع وكأنها تطير. كان علي مربوطاً بالحبال من الجانبين، يضرب الحزام بكل قوته، أما معزز فقد كانت خائفةً قليلاً، وجهها ضارب الحمرة تجلس في مكانها متمسكة. كانت عينا علي، ورغم محاولاته النظر إلى جانبي الأرجوحة وجهوده لإدارة وجهه إلى اتجاهات مختلفة، تقعان على وجه معزز فيحمرّ وجهه كاحمرار وجهها هي. كان يمكن الاعتقاد بأن معزز لم تكن تعي ما يجري. لأنها كانت ومع كل اقترابٍ للأرجوحة من الأرض، تلوّح باسمةً إلى يوسف المتكئ على شجرةٍ على مقربة منهما، وتشير له برأسها.

في تلك الأثناء توقفت الأرجوحة التي كانت بجانبهم وركبها زبونان جديدان. كان أحدهما إحسان ابن الحاج رفعت، والآخر شاكر ابن حلمي بيك صاحب المصنع. تعكّر وجه يوسف في الحال. فشاكر هذا ورغم عدم تجاوز سنه الثامنة عشرة، إلا أنه كان يثير استياء كل من البلدة منه. كان سكيراً مسرفاً ولا مبال. يبدد أمواله على العاهرات الروميات أو أولاد إزمير، لم تبق موبقةٌ لم يرتكبها.

كان يرتدي قميصاً لاجوردياً بصدرية، وفوق الصدرية مقدار نصف أوقية من تطريز الذهب. وعلى رأسه طربوشٌ ملفوفٌ بوشاح مبالغ فيه.

رأى إحسان ابن الحاج رفعت يوسف بعد أن ركب الأرجوحة وحياه بيده ورأسه. ثم بدأوا في التأرجح. ومع تسارع الأرجوحة، بدأ شاكر يتخبط في كل اتجاه، كان يبدو أنه في حالة سكرٍ شديد. وإحسان كان يحاول تعديل جلسته قليلاً. لكنه قفز عن الأرجوحة صارخاً "هوووب" فجأة. بدأ بضرب الحبل وشعره منسدل على وجهه. امتقع وجه يوسف صفرةً. كان شاكر ينظر إلى معزز وعلى وجهه ابتسامة ثملٍ خبيثة، يحاول متابعة حركة أرجوحتها يمنة ويسرة برأسه المشوش.

فجأةً نزع الوشاح المطرز الذي كان يلف طربوشه وألقاه على أرجوحة معزز.

ألقت معزز بصيحةٍ مذعورة. حاول علي على الفور إيقاف الأرجوحة بالضرب على الحبل. وإحسان كان يحاول الإمساك بشاكر، وإعادة توازن الأرجوحة المختل.

قال يوسف للنازلين من الأرجوحة:

"هيا اذهبوا أنتم إلى البيت، أما أنا فسألقن إحسان كلمتين!"

مشى علي ومعزز قليلاً، لكن معزز توقفت خلف عربة بائع مهلبية بعد مسافة قريبة وكأنها لا تعرف ماذا سيحدث وأوقفت علياً معها.

مشى يوسف في اتجاه إحسان النازل من الأرجوحة وسأله:

"إحسان، ماذا يريد ابن الكلب هذا؟"

التفت شاكر وهو يحاول إدخال شعراته المزيتة واللامعة تحت طربوشه:

"من تقصد بابن الكلب يا ولد؟"

ادخل يده في جيبه الخلفي كحركةٍ اعتاد فعلها. لكنه وفي نفس اللحظة تلقى من يوسف لكمة على وجهه لا تُقاوم، فسقط في الأرض يتلوى من الألم. أمسك إحسان يوسف بكلتا يديه محاولاً تهدئته:

"لا تفعل أرجوك، أقبّل عينيك، انظر يا يوسف! إنه سكران كما ترى! سآخذه وأذهب".

تخلص يوسف من قبضة إحسان وركل الطريح مرتين، لكن معزز وعلي اللذين عادا راكضين أوقفاه وأخذاه معهما.

كان شاكر الذي وقف على قدميه، يريد اللحاق بهم؛ لكن إحسانًا ومراقب الأراجيح أمسكا به من ذراعيه محاولين نزع المسدس من يده.

وفي نفس الوقت قدم أعز أصدقاء شاكر، حاجي أدهم. أمسك بالثمل من ذراعه وقال لهم:

"دعوه لي!"

ثم ذهب يصطحبه معه بصعوبة.

كان حاجي أدهم هذا شاباً جميلاً وماكراً في الرابعة والعشرين من عمره. سُمّي بذلك لاصطحاب أمه وأبيه له عندما ذهبوا إلى الحج وهو في الرابعة. ورغم أنه لم يكن من عائلةٍ موسرة إلا أنه كان يلبس أفضل من الجميع،

ويتسكع مبذراً. يُقال بأن ماله كان يأتي من بعض أصدقائه الأغنياء المسرفين أمثال إحسان وشاكر، وبأن أدهم كان يتملقهم ويداهنهم، بل ويحضر لهم أناساً من الجنسين لحفلاتهم ومتعهم ويقدم لهم العديد من الخدمات الصغيرة الأخرى. لكن ذلك لم يكن ليمنحه الاعتبار والفخار والبطولة. لكنه ورغم ذلك، كان يرخي طربوشه حتى حواجبه ويتجول، ويلقى الاحترام في كل مكان.

كان هناك حزبٌ يتكون من أمثال شاكر. لم تكن لا الحكومة ولا الدرك تتدخل في شؤونهم. لأنهم كانوا يلعبون بالمال بشكل لا يصدق.

كانت تشكل أغلبية هذا الحزب مبذرين كبار. وبعد تبديد أموالهم يمنة ويسرة، يستفيد هؤلاء من شهرة وتجربة وسخاء الشبّان الجدد المنضمين إليهم والذين في يدهم مالٌ وفير ويتعالون عليهم.

كان لهم نفوذٌ كبيرٌ وشديدٌ داخل العوائل أيضاً. ولكونهم كلهم من عوائل المدينة العريقة والمعتبرة، وحتى لو سقط اعتبارهم فإنهم يحاولون الاستمرار في ممارسة نفوذهم، وينجحون إلى درجةٍ ما في ذلك. لأنه ما زال في ذاكرة الجميع فخامة حفل زواج فلان، وعظمة الحفلة التي أحياها فلان في العيد لفلان. وعندما تذهب الكبيرات إلى بيت إحدى العائلات التي سقطت، يتذكرن جلساتهن القديمة هناك، ويصبحن كأنهن يرين خيال الآغا المرحوم أمامهن، ويظنُن بأن لا شيء قد تغير. وفي نظرهن، فإن أنسب أزواجٍ يجدنهم لبناتهن هم هؤلاء الشباب الأشراف، الطائشين المحتاجين، السكارى المفلسين. يتحدثن عن تصرفاتهم وتبذيرهم مبتسمات بلهجةٍ تعذرهم، كن يقلن: "سوف يكبرون قليلاً ويعتدلون، ماذا نفعل؟ هذا هو الشباب!". لكن أكثر هؤلاء "الشباب" كانوا فوق سن الأربعين. حتى لو طلبوا يد بنت

أشرف عائلات المدينة، فليس هناك من يرفض. كأن هناك عهداً موجوداً بين عائلات الأشراف لا يتغير منذ الأزل، يُحترم دائماً مهما تغير الشكل الخارجي، وأصبح وضعها مختلفاً. ولذلك، لم يكن يخطر على بال أحدٍ أن يرفض لهم طلباً، وبناتهم ذوات الخمسة عشر أو الستة عشر عاماً، الجميلات الطاهرات المسكينات كان يلقى بهن إلى أحضان هؤلاء السفهاء الذين بدأت شعورهم تشتعل بالبياض، البالين مادياً ومعنوياً. فتتحول بيوت هؤلاء السفهاء، المصاب جلّهم بأمراضٍ قذرة، إلى أوكارٍ لمصائب ومآسٍ مخفيةٍ بشدة لا تبدو للخارج. ما كان يحمي بنات البلدة من هؤلاء الرجال، الذين كانوا يمضون وقتهم بين العاهرات، ولو قليلاً هو انتهاء حياتهم برصاصة، أو نتيجة لأحد الأمراض المعدية قبل أن يجدوا وقتاً للزواج الذي لم يكونوا راغبين فيه كثيراً. كانوا مدينين ببعض من نفوذهم لأقاربهم الذين تصرفوا بتعقل وحكمة وحافظوا على مناصبهم، على عكسهم هم.. هؤلاء الرجال الذين منهم من كان رئيس البلدية، ومنهم من كان مالك مصنع، حتى وإن كانوا لا يحبون مخالطة أقربائهم المقطوعين أولئك، فإنهم تحت تأثير النساء في البيت يضطرون إلى الدفاع عنهم في كثير من الحوادث الجدية. لأنهم إما أن تكون زوجة أحدهم أختاً لأحد هؤلاء السفهاء، أو إحدى أخواتهم زوجةً لواحد منهم؛ وأفكار العائلة وروابط القرابة، كانت لها مراعاةٌ كبيرة بين النساء بالذات.

وهكذا فإن اشتباك يوسف مع أحدهم من مَن لم يجدوا وقتاً كافياً ليبددوا كل ما لديهم من مصادر مادية، قد لا يكون بالشيء الجيد.

لكن حالياً لم يظهر ما يوحي بأنهم ينوون فعل شيءٍ سيء. ربما كان كون يوسف ابن القائمقام (كثير ممن هنا يعرفون ذلك) يوجب عليهم أن ينتظروا

لفترة أطول ويحتاطوا أكثر في تحركاتهم.

10

لو لم يظن يوسف أن الجميع مثله ولو نظر حوله بعينٍ متمعنة، لشعر بتغير كثيرٍ من تصرفات أصدقائه نحوه منذ واقعة يوم العيد، فمثلاً وصفي ابن رئيس قسم الشرطة لم يعد يرغب في التنزه معه كثيراً كما كان في الماضي، وعندما يذهب إلى دكان كاظم لم يعد يلقى الحبور المعتاد. كلهم كانوا يرهبون شاكر وجماعته.

لكن يوسف، لأن عقله لم يكن يدرك هذه الأشياء ولعدم اهتمامه بتصرفات أصدقائه، لم يكن يعي أي شيء يجري.

وحتى حلول الشتاء لم يخرج أيّ صوتٍ من أي مكان، لكن في الشتاء، جعلته بعض الأحداث يدرك أن هناك من يناصبه العداء. لو تُرك يوسف وحده فإنه لم يكن سيفهم ما يدور حوله، لكن علياً بورك فيه، الذي لم يكن ينفصل عن يوسف ولا يتركه رغم كل التهديدات والعروض كان يخبره بكثير من الأشياء التي لم يكن يعرفها، ويحاول أن يبين له الصورة ولا يجعله يمشي كالأعمى.

كانت مسألة عاملة الزيتون أهم هذه الأحداث وأكثرها تأثيراً على حياة يوسف المستقبلية.

في يوم قارص البرد، ذهب يوسف إلى مزرعة الزيتون كما العادة. في ذلك

اليوم رأى من بين العاملين امرأةً لا يعرفها مع طفلة في الثانية عشرة. فدعى رئيس العاملين إبراهيم كوسه وسأله عنهما.

قال إبراهيم: "عاملتان، يا سيدي! كانتا تعملان في مزارع شاكر بيك، ضربوهما فجاءتا إلى هنا تريدان العمل معك ولو بالكفاف!"

نادى يوسف المرأة: "لأي سببٍ تركت سيدك وأتيتِ إلى هنا يا خالة؟"

"لقد ضربوني يا سيدي!"

"وهل يضربون العاملين دائماً؟"

"ضربوني كما قلت!"

هز يوسف كتفيه غير مستوعب:

"حسناً ولكن، ماذا أجعلك تفعلين؟ فعمالي يكفونني".

"أرجوك يا سيدي، سأصبح جاريتك، لا تصرفني عنك إلى وجوههم النحسة! لقد وقعنا أنا وابنتي المسكينة في مأزق!"

نظر يوسف إلى الطفلة بجانب المرأة. وفجأةً سرت في جسده رعشة أوقفت شعره. لكنه لم يرفع أنظاره عن الطفلة لمدة طويلة. كان لهذه الطفلة النحيلة والطويلة بالنسبة إلى سنها وجهٌ أصفر شاحبٌ جداً لدرجة تثير الرعب. لكن هذه الصفرة كانت فوق الشحوب الذي ينتج من النحول وفقر الدم، تشبه صفرةً مائلة للاخضرار بسبب مرض ما. كانت عيناها الواسعتان شديدتا السواد تحت حاجبيها الدقيقين الحادين تنغرزان في وجه من أمامها

بلا تردد بنظرات مجرب تعطي انطباعاً بأنها تعرف الكثير. وفي طرف شفتيها الشاحبتين الهزيلتين تجاعيد تخبر عن "تجاربها" أيضاً. وعلى وجهها ينعكس تعبير ملال وفتور، بل وكره أيضاً. هذه النظرة وهذا الوجه كانا يسحقان يوسف بشعور الذنب.. سأل أم الطفلة مجدداً من دون أن يزيح نظراته عنها:

"هل أنتما من هنا؟"

"لا نحن من تشينة!"

"ماذا؟ تشينة؟ تشينة أيدن؟"

"نعم صحيح".

"ولأي سببٍ جئتما إلى هنا؟"

حكت له المرأة أنها كانت زوجة رئيس رقباء، وبأنهما قدما معاً إلى هنا، وبأن زوجها هرب لاحقاً مع عاهرة وتركهما على هذا الحال، وبأن هذا السفيه ترك العاهرة لاحقاً ويعمل حالياً في تهريب التبغ في نواحي مانياس لكنها لم تبحث عنه قط.

يوسف عندما علم بأنهم من تشينة أصبح وكأنه التقى بقريبٍ له، وعاد إلى نواحي أيدن ونازيلّي.

"اعملا لنرَ، سنجد حلاً!" قال.

كانت المرأة تعمل بكل جهدها؛ لكن ابنتها أمضت الوقت إلى المساء جالسة تحت إحدى الأشجار، أو متمشية ومتفرجةً على العاملين وهم

يهزّون الشجر، ولم تتكلم مع أحد. وقرب المساء عندما تناولوا السلال قال لهم يوسف وهم ذاهبون:

"لا تبتئسا، محنةٌ وتزول!"

لوحت المرأة بيديها ليوسف شاكرةً ومرددة أنواع الدعوات له، أما بنتها فكانت تراقبهم بعينيها الباردتين الغريبتين من دون أي حركة.

وعندما جاءت المرأة في اليوم التالي لم تكن الطفلة معها، بل نائمة مريضة في البيت. سأل يوسف:

"هل لكم من أحدٍ في البيت؟ من يعتني بالمريضة؟"

"ليس لنا أحد! المسكينة تنام وحدها!"

أعطاها يوسف ظهره ومشى من دون أن يقول شيئاً، لكنه ظل يفكر في المريضة التي ليس لها أحد يرعاها إلى المساء. كان يتخيلها نائمةً بلا حركة على فراشٍ قاسٍ، وعيناها متجمدتان على السقف.

وفي العصر أشار إلى المرأة أن تتبعه قبل وقت الاستراحة. وبلا أي صوت مشيا حتى وصلا البلدة. كان المطر يتساقط خفيفاً والطريق تملؤه آثار العربات. تعدّيا السوق السفلية. دخل يوسف إلى دكان علي الواقع في منطقة بايرام يري. وَزَن بعضاً من الرز والزيت. وأشار برأسه إلى المرأة أن تأخذه. وعادا إلى المشي مرة أخرى. كانت المرأة تسكن في منطقةٍ تسمى دايرمان على طريق قرية إبرامكوي. وبعد المرور ببستان كبير محاط بسياج يدعى بستان السفرجل، وصلا إلى كوخٍ طينيٍ مستند إلى تلة خلفه. وعلى جرف التلة الحاد

شجرة تينٍ بري أغصانها متدليةٌ على سقف الكوخ.

ورغم أن النور لم يختف بعد، إلا أن داخل الكوخ كان دامس الظلمة. وبينما كانت المرأة تحاول إشعال قنديل زيتي فوق ما يشبه الفرن، كانت عين يوسف قد تعودت على الظلمة فرأت الطفلة النائمة في الركن.

كانت نائمةً على جنبها في مواجهة الجدار تحاول تغطية نفسها. عند دخوله إلى الكوخ كان قد سمع بعض الجلبة التي اختفت فوراً. الآن وبعدما رآها تتحرك في فراشها راودته ولسبب ما فكرة أنها دخلت إلى فراشها للتو فقط.

قالت المرأة لابنتها:

"هيا يا كبرى، اعتدلي جالسة، فقد جاء يوسف آغا!"

التفتت الطفلة. ونظرت باتجاه يوسف. ثم اعتدلت ببطء ساندة ظهرها على الجدار وساحبة الفراش إلى صدرها. كانت تحاول إرجاع شعرها المتهدل على كتفيها إلى الوراء. وذراعاها العاريتان إلى الكتف كانتا ترتجفان من البرد.

سحب يوسف نفسه إلى إحدى زوايا الغرفة ونظر إلى الطفلة طويلاً. هي أيضاً كانت تنظر إليه من دون أن تلتفت. بعد مدة شعر يوسف بالتعب وبدأ بالتجول بعينيه في الغرفة.

كان كل البيت عبارة عن غرفة أرضيتها ترابية. ومن الأثاث كان هناك سرير كبرى، وصندوق خشبي صغير بين السرير والفرن وسجادة قديمة مفروشة مقابل السرير. كانت المرأة التي تعمل على الفرن تفتح الصندوق تارةً وأخرى تخرج منه قدراً طينياً أو بعضاً من الملح. وفي داخل القدر ذي

الغطاء الطيني كانت عدة حبات ذرة تهتز في الماء المغلي. وعلى الجدار الذي كان عند رأس السرير ثقب، وفي الثقب قطعة زجاج مدهونة بالجص. كانت تؤدي وظيفة النافذة على كل حال، لكن الجصة التي كانت موضوعة كيلا يظهر ما بداخل البيت لم تكن تسمح بنفاذ إلا قليلٍ من الضوء إلى الغرفة. وعندما وقعت نظرات يوسف على البنت من جديد اكتشف أنها كانت تراقبه طوال الوقت. شعر أن عليه أن يقول شيئاً:

قال: "هل أنت مريضة؟"

"لست كذلك!"

"هذا جيد!"

وعاد الهدوء من جديد.

لم يكن هناك أي صوت عدا صوت جلبة المرأة التي كانت تحاول تحضير حساء عند الفرن، والصوت المختنق لتساقط حبات المطر على سقف البيت الطيني...

في تلك الأثناء سُمع صوت وقع أقدامٍ في الخارج، تجولت في الجوار قليلاً، ثم ظهر رأس آدمي من النافذة الزجاجية فجأة. انتبهت المرأة وابنتها لذلك. نظرا إلى بعضهما. وثب يوسف من مكانه فوراً إلى الباب؛ لكن المرأة لحقت به وأمسكت بذراعه:

"لا تشغل بالك يا بني، انه من أولاد الحي بالتأكيد. يحدث هذا دائماً. اجلس أنت، لا تقلق نفسك!"

عاد يوسف إلى مكانه وجلس. ثنى ركبتيه وأسند ذقنه عليهما شابكاً يديه من الأسفل. في هذه المرة أصبح يقلب بصره عشوائياً مرة على المرأة ومرة على البنت.

أخيراً أصبح الحساء جاهزاً. سكبته المرأة في إناء من الزنك ثم ناولته ابنتها مع ملعقةٍ خشبية أخرجتها من الصندوق.

تناولت الطفلة الإناء مخرجة يديها من تحت اللحاف، ثم ارتشفت عدة رشفات. لكنها ألقت بالإناء والملعقة من يدها. هرعت الأم إليها مفجوعة. دفعتها البنت بكلتا يديها وغطت نفسها باللحاف ثم راحت تشهق بالبكاء. كان جسدها يهتز تحت قميصها الأبيض المتسخ.

تجمدت أمها في مكانها، وبدأت دموعها هي أيضاً بالانهيار. نهضت من مكانها فجأة وركضت إلى يوسف، قالت وهي تضم يديه:

"اذهب يا سيدي، ارحل عن هنا. فقد كدنا نحرقك!"

دفع يوسف المرأة برفق لتجلس وقال بصوتٍ هادئ:

"أخبريني بما يقلقك يا خالة، دعي عنك البكاء وأخبريني". وعندها بدأت المرأة بإخباره بحكايتها التي جعلت جسده يقشعر.

11

زادت شدة هطول المطر في الخارج وتسارعت أصوات تساقطه المختنقة

على السطح. القنديل يهتز فوق الفرن، يؤز ولا يضيء إلا نفسه. وأمام السرير إناء الحساء المسكوب والملعقة في مكانهما لا تمتد إليهما يد.

جلس يوسف على طرف السرير، ينظر أمامه، ويستمع إلى حكاية المرأة التي كانت تتقطع بنوبات بكاء بين حين وآخر. والبنت في طرف السرير الآخر، مدفونة في لحافها، لا تتحرك. ولا تصدر أي صوت.

بدأت المرأة بقولها: "ولأي سبب أحكي لك كل شيءٍ وأصدع رأسك... لو لم نترك مكاننا لما حلت بنا كل هذه المصائب، لكن ماذا نقول؟ مقدر ومكتوب، ليس بيد العبد تغيير قضاء ربه. عندما أراد زوجي أخذي والمجيء إلى هنا أخبرته أنني لن أذهب، وتعنتّ. لكن في النهاية، كلمة الرجل هي الأخيرة، لا أستطيع عصيانه أكثر! هو أيضاً وقبل أن نهجر تشينة كان رجلاً كالملاك. أقنعوه من أقنعوه بأن يأتي إلى هنا. أشربوه الخمر، جعلوه سكيراً. كما جعلوه لا يأبه ببيته وابنته. ماذا أقول؟ رحلنا وتركنا تشينة الجميلة، وجئنا إلى هنا. كانت البدايات هنا جيدة. لكن زوجي بدأ بالتغير مع مرور الأيام. وأصبح يعود إلى المنزل متأخراً. وأحياناً يمر أسبوع لا يمر فيه على البيت، وعندما أسأله كان يقول: لقد كنت مراقباً! لكنني كنت أعرف بأنه لم يكن مراقباً أو شيءٍ من هذا القبيل. هناك آغا اسمه يونس في أراس يعمل إسكافياً، كان يخبرني أن زوجي كان يذهب إلى هاوران أو إلى قرية فرنك كوي ويعبث مع النساء. في مرةٍ جاء وأخبرني أنه مراقبٌ أيضاً، لكنه كان فيها منهكاً جداً وشاحب اللون. صدقته وقتها. ذهب إلى فراشه وتمدد. وتظاهر بالنوم. كان واضحاً أنه لم يكن نائماً، يتقلب في سريره ذات اليمين وذات الشمال، وتنظر إلي عيناه بين وقت وآخر. وفي ثلاثة مرات لم يستطع كبتها زفر زفرات شاكية: أوف. فاقتربت منه وقلت: هل بك شيء يا سيد

أفه! كان من الدرك، لكنهم كان يدعونه أفه في تشينة دائماً. هو نفسه كان يحب الأفوات والزيابق ويحميهم.[1] ألقى القبض على محمد قارا الديناري مرتين، ثم أطلق سراحه مجدداً. كان يقول لي: لا تخبري أحداً بذلك وإلا سيشنقونني! ثم يحكي لي ما يفعل. قلت: يا سيد أفه، لماذا تقسو علينا؟ ماذا بك اللهم لا اعتراض؟ لم يكن يصدر صوتاً، قطب وجهه وتظاهر بالنوم، لكن وجهه أصبح أحمر، يرفع صدره اللحاف ويهبط به. كان همه كبيراً، لكن ماذا كان؟ لماذا لم يكن يخبرني؟

"نهض قبيل المساء. كانت كبرى ترتاد مدرسة الحي في تلك الأيام، قال أبوها إن عليها أن تتعلم قراءة القرآن... ماذا كنت أقول؟ نهض قبيل المساء. وسأل عن كبرى. قلت له إن دوام المدرسة انتهى ولكني سأرى. مشيت إلى منطقة دايرمان. كنت أرتجف خوفاً من أن تكون قد نسيت نفسها وانهمكت في اللعب مع بنات الحي من جديد، لأن أباها سيصفعها. لم أجدها هناك. فتابعت المشي إلى بيت رقية مولا، فالمدرسة كانت هناك... لكني لم أجدها هناك أيضاً، قالوا لي بأنها خرجت للتو وذهبت إلى المنزل. تأخرت لأنها ساعدت رقية مولا في تصفية الطحين. فقد كانت بنتي ماهرة في هذه الأشياء. لكنها تركت كل شيء الآن. آه يا بنتي ويا لحظك الأسود! آه يا بنتي..."

بدأت المرأة بالشهيق والبكاء وكأنها تغرق في سيل من الدموع. رفعت كبرى رأسها ونظرت إلى أمها، لكنها ودون أن تصدر صوتاً أو تقوم بأي حركة أرجعت رأسها بين اللُحُف. هذه المرة انتظرتها أن تهدأ من دون أن تسكنها. مسحت المرأة دموعها بطرف كمها وعادت إلى إكمال قصتها. كانت

1- الأفوات هم قادة قوات غير نظامية كانت تنشط في منطقة غرب تركيا، والعضو منهم يسمى زيبق، كانوا يحمون القرى والقرويين من الأسياد ويدافعون عنهم ويتمتعون بسلطة كبيرة.

الشهقات تقطع كلماتها وتجعلها غير مفهومة في البداية.

"عدت إلى البيت لأرى ماذا؟ كبرى جالسة عند الباب تبكي صارخة: بابا! بابا! ... آه، قلت لنفسي من المؤكد أن السيد أفه ضرب المسكينة من جديد! سألتها لماذا تبكين يا بنتي؟ قالت: أريد أبي!"

"فوجئت بجوابها. دخلت إلى البيت، لم أجد السيد أفه، سألت كبرى، لكنها لم تكن في حالة تسمح لها بالجواب. وعندما هدأت أخبرتني: عندما عاد إلى البيت وأخذها إلى حضنه وبدأ يغرقها بالقبل. خافت البنت عندما نظرت إلى وجه أبيها، سألته: بابا هل أنت مريض؟ ماذا بك؟ لماذا تبكي؟"

"كما أقول لك، الرجل الناضج كان يبكي كطفل. أنا ومع أنني زوجته لم أر دمعة تنزل من عينه قط. احتضن السيد أفه ابنته مجدداً، ثم لف أغراضه في كيس، وتناول بندقيته من على الجدار، ألقى نظرة على الغرفة ثم خرج. نظرت إلى البنت فرأيت ياقتها مفتوحة، وعندما سألتها عما حدث أخبرتني أن أبوها أخذ تميمتها وهو ذاهب، وعلقها على رقبته! كانت المسكينة تتقطع من البكاء".

"لماذا تبكين يا بنتي؟ ذهب ليلاحق أحداً ما بالتأكيد، ستجلب له التميمة الحظ ويعود سالماً إن شاء الله! قلت لها ذلك وعيناي تسيلان بالدموع. قالت البنت: لن يعود مرة أخرى! فسألتها: كيف تعرفين ذلك؟ فقالت: كان ذلك جلياً من طريقة رحيله. وبالفعل، لم نرَ وجه السيد أفه من يومها. جاءوا إلى البيت في اليوم التالي وبحثوا عنه. سألتهم وألححت بالسؤال لكنهم لم يخبروني شيئاً. ذهبت وقتها إلى قائمقام ملتحٍ. وعندما أخبرته بمن أكون نظر إلى وجهي بشفقة، وقال: يا سيدة، نحن أيضاً نبحث عن زوجك. فقد أخذ

خيرية الملقبة بكاسرة الملاعق وهرب معها. لكن اللوم عليك أنتِ، فيبدو أنك لم تعرفي كيف تضبطين زوجك... لم يعد يرجى منه خير. اعتني بنفسك!"

توقفت المرأة لمدة، نظرت إلى ابنتها، ثم استأنفت من جديد: "لم أكن لأحزن لو أن ذلك لم يحدث، لكن البنت بعد أن رحل أبوها أصبحت تنظر إلى يدي الخاوية. حتى وقتها لم نكن في بحبوحة من العيش لكن ولله الحمد لم نعانِ من معسرة أيضاً. إلى اليوم الذي خرج فيه السيد أفه من البيت لم ينقصنا شيء قط. وبعدما رحل عن البيت كفانا البرغل والزيت الموجود لمدة خمسة عشر يوماً. وبعد ذلك نفد كل شيء. بقينا جائعتين ليومين، وثلاثة أيام. لم تكن ابنتي المسكينة تتشكى أو تصدر صوتاً، لكن صمتها كان يجرح قلبي. في صباح يوم قالت لي: أمي، رأسي يدور، لن أستطيع النهوض من السرير. المسكينة لم تكن تقول بأنها جائعة أو مريضة، بل تقول إن رأسها يدور. وقتها أوشك عقلي أن يطير من رأسي. يا إلهي، ستموت ابنتي أمامي وتتركني... سألت نفسي ماذا أنتظر؟ ابنتي تذوب كشمعة أمامي وأنا ماذا أفعل؟ وضعت غطائي على ظهري وخرجت على الفور. وفي الطريق صادفت جارنا الإسكافي يونس آغا الذي سمع بما حصل وكان قادماً إلينا. نظر الرجل إلى وجهي ففهم كل شيء. أمسك بذراعي وقال: لا تهتمي يا بنتي، هذه هي الدنيا، هناك دائماً ما هو أسوأ. رتبي أمورك واعملي بذكاء. ما زلت بصحتك وعافيتك ما شاء الله، لا تحوجي نفسك ولا ابنتك إلى القذرين! كان الرجل عجوزاً بوجه منير. دائماً ما يسدي لنا النصائح، ويهدينا الطريق. أظهره الله لي في طريقي هذه المرة. قلت: يونس آغا، أين أعمل؟ أنا غريبة، ولا أعرف أحداً هنا، من سيمنحني عملاً؟"

"فكر الرجل قليلاً. ثم قال: كان صديقي يقول شيئاً عن بحث حلمي

صاحب المصنع عن عاملات أو شيء من هذا القبيل، تعالي لنذهب إلى بيتهم. مشينا. ووصلنا إلى البيت. وكان صحيحاً ما قال. فقد كان السيد حلمي يبحث عن امرأة تخدم عنده في البيت. ارتدت زوجة يونس آغا غطاءها وأخذتني معها. كانت زوجة السيد حلمي سيدة بدينة ومزينة باللؤلؤ والألماس، أخبرتها زوجة يونس آغا عما جرى معي. يبدو أن الجميع كانوا يسمعون بما يحصل أيضاً. قالت: وهل يؤمن جانب الرجال أبداً؟ اعملي الآن وعيشي من كسب يدك. سوف ترتاحين هنا أكثر من بيت زوجك! كانت لها لهجة متكبرة بعض الشيء، لكنها كانت تبدو طيبة القلب. لو كان الخيار لي، فسأفضل بيت زوجي ولو كان غير مريح. لكن ماذا بيدي؟ مهما كان العمل شاقاً هنا فسأعمله لخاطر ابنتي فقط... المهم، لن أطيل عليك، انتقلنا في اليوم التالي إلى منزل السيد حلمي. أعطونا غرفة صغيرة. لا أكذب عليك، كان العمل شاقاً لكن شبع بطننا واشتدّ ظهرانا. مهما كان فإن الإنسان يعتاد شيئاً فشيئاً. قلت لنفسي: سأعمل بكل تفانٍ وأثير إعجاب أحد الأسياد ثم أمضي بقية عمري مرتاحة. وأريح نفسي لو أزوج ابنتي أيضاً لأحد الحرفيين. من يدري؟ ربما يكون زوج ابنتي شاباً خيّراً فيجعلني أعيش معهم، وبدل أن أعمل في بيت السيد حلمي أجعل من شعر رأسي ممسحة في بيت ابنتي وأرعى أولادها. كانت كل آمالي معلقةً على كبرى".

حاولت المرأة جاهدة أن تمسك نفسها، ولكن اندفاع الدموع كان أقوى منها فبكت هذه المرة بصمت ونصف دموعها تنسكب داخلها.

في نفس الوقت حدث شيء غير متوقع ترك حكاية المرأة نصف مكتملة.

من بين أصوات تساقط المطر المخنوقة في الخارج اقترب صوت وقع أقدامٍ من الباب فجأة، ثم طرق الباب بسرعة.

اصفرّ وجه المرأة من الخوف ووثبت إلى الباب سائلة:

"من هناك؟"

"افتحي... افتحي، هذا أنا!"

تعرف يوسف على صوت أدهم على الفور.

"افتحي هيا!"

فتحت المرأة الباب ببطء. ظهر أدهم في الخارج من بين قطرات المطر بمعطفه المطري. خطى خطوة باتجاه الداخل إلا أنه تراجع حالما رأى يوسف. لم يكن يتوقع أن يراه هنا في هذا الوقت على كل حال.

لكنه استجمع نفسه بسرعة. قال ضاحكاً:

"مساء الخير، يا يوسف البطل!" ثم وبلا أن يلقي عليه نظرة حتى، سحب المرأة إليه وأراد أن يخبرها شيئاً.

تغير وجه المرأة على الفور رغم أنه لم يقل لها إلا عدة كلمات. استجمعت قبضتها ومدتها إليه وهي تصيح:

"ماذا تريدون مني أكثر؟ ها؟ ماذا تريدون أكثر من ذلك؟ أخبرني لنر يا حاج أدهم، لأي سببٍ أتيت إلى هنا؟ أتيت لتستعلم عن الأحوال صحيح؟ أتيت لتسأل عما إذا كان كل شيءٍ يسير على ما يرام أليس كذلك؟! لا شيء يسير على ما يرام يا حاج أدهم! لم نستطع أن نوقع به. لم يهن علينا ذلك. ماذا نفعل؟ يبدو أننا لم نصبح قساة القلب مثلكم. ما زلنا مبتدئين في هذه الأعمال.

لماذا تنظر إليّ وكأنك تريد قتلي؟ لا.. لا تغضب مني! فليس لي أي ذنب. ربما كنت أستطيع أن أتم المهمة كما أردت، لكن أترى هذه البنت؟ إنها لم تتحمل. لم تستطع أن تكمل لعبة العهر هذه. أظهرت كل شيءٍ وأخجلتني. لقنت أمها درساً. ليعفُ عني الله. هذه البنت البريئة، (قولوا ما تقولون عنها، فهي بريئة، قلبها طاهر وبريء)، كما أقول، هذه البنت نبهتني أنني دخلت في أكبر خطيئة. انظر، إنها تختنق من البكاء. هل يعجبكم ما فعلتموه؟ هل تظنون أن الله كان ليترككم وفعلتكم؟ وهل تضيع تأوهات هذه البنت سدى؟ انظر يا حاج أدهم انظر: ألا ينفطر قلبك عندما ترى ذلك؟ وفوقها تجيء لتسألني عما حصل من دون إحساس بالذنب؟ لم يحدث شيء. لن تستطيعوا أن تفعلوا شيئاً لهذا الشاب. على الأقل لن تستطيعون أن تجعلوننا نفعل له شيئاً. سأخرج إلى ميدان البلدة وأصيح لأمة محمد كلها بكل ما فعلتم، أعني كل شيء، أتفهم؟ سيكون هناك من يصدقنا من المسلمين بالتأكيد. اقتلونا بعدها لو أردتم، هذا هو الشيء الوحيد الذي لم تفعلوه بعد، افعلوه أيضاً! لكني سآخذ ابنتي قبلها، وأذهب إلى ميدان السوق السفلية، وأفصح عن كل شيء. وعندما ينظر أقسى الرجال إلى ابنتي تغمرهم الشفقة عليها ويلينون ويصدقوني...»

أمسك الحاج أدهم بذراعها قبل أن تكمل كلامها وصفعها على فمها. أطلقت كبرى صرخةً حادة وركضت ناحيتها، لكن يوسف سبقها وأمسك بخناق السفيه بيد. وجمع قبضة الأخرى ليلكمه، لكن يديه ارتفعتا فجأةً وأصدر تأوهاً ثم تأرجح ساقطاً إلى الخلف.

12

القائمقام صلاح الدين بيك، وكما قلنا في البداية، كان يمضي حياته مشغولاً بأعماله الثقيلة في النهار، وفي الليل معاقراً لشرابه. عدد الرجال الذين كانوا يناسبونه في بلده قليل وهم مُختارون بعناية. علمته تجربته الطويلة في عمله سبب محاولة السكان المحليين كسب وده ومصادقته. ولأنه لم يكن يحب التورط في أي شيء أو التعرض للاحتيال، ويعتزم البقاء شريفاً، لم يكن يلقي بالاً للضيافات والدعوات، ويفضل أن يشرب بهدوء مع بعض المحامين من خريجي الحقوق الذين يثق فيهم وأحياناً مع رئيس محكمة الجزاء.

أحد هؤلاء المحامين، السيد خلوصي بيك كان له منزل جميل في طاوشانبايري. وحديقة منزله من أجمل حدائق إدرميت. أطرافها محاطةٌ بأشجار البقس، والطرق المرصوفة بالحصى هنا تعطي منظر حديقة متكاملة. وفي مقابل البيت تماماً كرمة عنب وحوض ماء وسطه نافورة. في المساء كانوا يجلسون على أحد جوانب الحوض، ويضعون على طاولةٍ سلطة باذنجان وقدر سمك مطبوخ وإلى آخره، ويصفّون زجاجات الراكي على طرفها. وفي أيام الشتاء تُحضّر هذه المائدة في غرفةٍ بداخل المنزل، وتُوقد مدفئةٌ صينية زرقاء ليس لمثلها لزوم حقيقي في إدرميت، ويُشرب الراكي.

تجمع صلاح الدين بيك ورئيس محكمة الجزاء وبعض المحامين في بيت خلوصي بيك في يوم شديد البرد من أيام الشتاء.

وبينما هم غائصون في ثمالتهم دُق الباب ودخل منه صاحب المصنع حلمي ومعه الحاج أدهم.

كان حلمي بيك هذا، الذي ينتسب إلى إحدى عائلات النبلاء القديمة، رجلاً لبقاً. ولكونه خريج إعدادية مدينة مديلي فإنه يعتبر من أكثر أهل البلدة ثقافةً وتحصيلاً وفي كل مكان يتلقى الاحترام والتقدير، لكن سبب احترام الناس الحقيقي له كانت ثروته التي يقال إنها ليس لها نهاية. من الأكيد أنه لا يوجد في إدرميت كلها من يمتلك مزارع زيتون أكثر منه. يقال إن السيد حلمي بسبب كثرة أمواله وعدم تفرغه لعدها يزن عملاته الذهبية بالصاع.

لا بد من أن هناك بعض من الحقيقة فيما كان يقال. لأن ثروةً مثل تلك لم تكن تنفد رغم إسراف الابن وأبيه. كان توافق الابن وأبيه هذا منبعاً لكثير من الإشاعات القوية. لأن حلمي بيك، بدلاً من أن يرشد ابنه شاكر ويعلمه الصواب، كان يمارس نفس الأشياء، وفي أحيانٍ كثيرةٍ يمارسها مع ابنه حتى، في الصيف يرتب جلسات الشراب في حي جنت أياغي، وفي الشتاء يرتبها في الحمام، يشرب مع شباب الروم المحليين أو الإزميريين أو المديليين، ويبذر الكثير من المال. من يرى أفعال أبيه تلك يتحير من عدم تقدم شاكر على أبيه في هذا المجال.

من الشائعات التي كانت تدور في المدينة أيضاً هي أن هناك مسائل مخفية بين الابن وأبيه، وبأن هناك أسراراً تربطهما.

هناك سببٌ لقدومه في هذه الليلة على كل حال. وبما أن المحامي خلوصي بيك لم يكن صديقاً جيداً له، فلم يستطع أن يعتبر هذه الزيارة تصادفيةً بلا معنى كما تبدو. فمن المؤكد أن في مجيئه مع الحاج أدهم مقصداً مخفياً.

اشترك معهم في المجلس لمدة. شرب بعض الكؤوس. لكن تأثير الشراب لم يبدُ عليه لأنه جاء صاحياً متنبهاً. كان يتفحص الغرفة بعينيه الصغيرتين بلا

توقف.

وبينما هم جالسون قال لرئيس محكمة الجزاء:

"لنلعب قليلاً لو أردت، ماذا تقول؟"

رغم كون رئيس الجزاء رجلاً شريفاً جداً ومستقيماً، فإنه لم يكن يمانع بالمقامرة. لم يكن يشارك في المقامرات الكبيرة، لكنه لا يمنع نفسه من اللعب لساعة أو ساعتين.

"أنتم أدرى. نلعب قليلاً!" قال.

رُفعت مائدة الراكي. وأُحضرت طاولةٌ أصغر من الداخل. غُطيت بشرشف أبيض وظهرت أوراق اللعب.

يلعبون في العادة لعبة تسمى واحد وثلاثون، وفي النادر ما يلعبون البوكر. لكن في هذه الليلة قال حلمي بيك وهو يضحك: "يا رئيس بيك، أتكسر سيفاً في هذه الليلة؟"

"دعنا من هذا لأجل الله، فهذه من ألعاب السجن!"

"أليست كلها تعتبر قماراً يا عزيزي، بدلاً من أن ندخل في لعبةٍ طويلة، نلعب بسرعة ونحن وقوف... فالمقصد هو تزجية الوقت!"

"أنت أدرى!"

تجمعوا حول الطاولة متضاحكين. كانوا يعتبرون هذه اللعبة التي لا

تتناسب مع صيتهم وسمعتهم شبه مزحة.

صفّ حلمي بيك الأوراق. سأل القائمقام الجالس بجانبه: "ماذا أعطيكم يا أفندي بيك؟"

فوجئ القائمقام: "دعني يا بيك، أنا لا ألعب هذه الألعاب. بالذات لعبة السيف هذه أو مهما تكون، لا أعرف لعبها!"

"لا يوجد فيها ما يُعرف، ستتعلمون على الفور يا أفندي بيك!"

شرح له اللعبة بعدة كلمات.

"لكنني لا ألعب ألعاباً".

تدخل رئيس الجزاء: "هيا يا عيني، لا تكن جباناً! سنلعب دورتين ثم نتفرق!"

ضحك صلاح الدين بيك: "يا عزيزي أنت بالذات تعرف أني لا ألعب!"

قال حلمي بيك: "لا تدعها باللعبة وتهولها، كل ما نريده هو بعض المرح... ماذا أعطيكم؟"

أخرج صلاح الدين بيك ربع عملة فضية أمامه: "أعطوا هذا ورقة تسعة!"

وزع حلمي بيك الأوراق بسرعة وبعد قليل وقعت التسعة أمام صلاح الدين بيك. فأخرج حلمي بيك من جيبه ربعين وألقاهما أمامه قائلاً:

"تفضلوا! خذوا الأوراق أيضاً. دوركم في توزيع الأوراق!"

احتدمت اللعبة بعد نصف ساحة وحميت، انقطعت الأصوات، وتعابير الوجوه انتقلت من الضحك والابتسام إلى الحماس والحرص.

"الشيبة بليرتين!"

"ثلاثي، لإثارتنا!"

مثل هذه الكلمات كانت تتردد وأوراق اللعب التي كانت تُرمي بسرعة خلف بعضها تصدر أصوات خشخشة.

المصباح الأصفر الموضوع على طرف الطاولة كان لا ينير منطقة اللعب إلا قليلاً، والقسم المتبقي من الغرفة كان يغوص في ظلامٍ هادئ. كانت ظلال اللاعبين تنعكس على الجدار في أشكال كبيرة وغريبة تقوم بحركات مبالغة.

وعلى الرف الأول للدولاب الزجاجي عدة أقداح وزجاجة راكي نصف ممتلئة، وقليل من البيض المخفوق بالسجق وبعض من المخللات تنتظر لمدة طويلة من دون أن تمتد إليها يد.

لم يعد أحد منهم يذهب إلى الدولاب يشرب كأساً ويعود إلى المشاركة باللعب بفم ممتلئ بالطعام كما كانوا يفعلون في البداية، لم يعودوا يريدون التحرك من أماكنهم.

فجأة أصبحت أشكالهم بوجوههم الصفراء وأياديهم المرتجفة تثير الشفقة. تسقط نصف الأوراق بينها يوزعونها، فيجمعونها ويخلطونها من

جديد، ثم ومن أجل (قص) الورق يناولون الشخص الخطأ.

وبين حينٍ وآخر تمتد أياديهم إلى جيوبهم لتخرج أكياس نقودٍ حاكتها زوجاتهم كجزء من جهاز العرس، وبأيدٍ مرتجفة من جديد، يخرجون منها نقوداً.

لم يكن خلوصي بيك والمحامون الآخرون يخسرون كثيراً. لم يكونوا يتكلمون بثقة وتباهٍ، ولا يفتحون ورقهم لمن يفعل ذلك. أما رئيس الجزاء، فكان فوق أنه انغلق على نفسه، يقف الآن في مكانه محاولاً عدم خسارة المزيد. أما المتضررون الحقيقيون فقد كانا حلمي بيك وصلاح الدين بيك.

صلاح الدين بيك، فاجأ نفسه تحت تأثير الراكي، فبعد أن أخرج كل ما في جيبه من نقود استدان من حلمي بيك خمسين قطعة ذهبية. كان يلعب وكأنه لا يعرف نفسه أبداً، ومثل كل المقامرين المبتدئين، كان بجنونه وعصبيته يحاول قلب الحظ إلى جانبه. كان بعد خسارته الأولى يقامر على ضعف المبلغ الذي خسره في الأولى، وفي الثالثة على ضعف المبلغ الذي خسره في الثانية. وعلى هذا المنوال، خسر مبلغاً يخشى حتى من التفكير فيه عندما يكون واعياً.

كان الحاج أدهم هو من يأخذ كل الأموال. كان بتعابير جديةٍ ومن دون أن يتكلم قط يوزع النقود أو يخلط الورق. لم يكن أمامه الكثير من النقود. فلعدم وجود شرط يفرض ترك النقود على الطاولة، كان يضع ما كسبه في جيبه ويترك عدة مجيديات[1] أمامه على الطاولة.

كان حلمي بيك ودون إصدار أي صوت يضيع، وعلى طرف شفتيه

1- عملة عثمانية.

ابتسامة مهذبة جامدة، وفي كل مرةٍ تنفد النقود من أمام صلاح الدين بيك كان يقترب من ظهر كرسيه قائلاً:

"أنا أعطيك يا أفندي بيك" ويضع أمامه حفنة من النقود.

كأنما شعر خلوصي بيك والآخرون (ما عدا رئيس الجزاء) بوجود أمر مريب. لكن لم يكن من الصواب ادعاء وجود شيء لم يتثبتوا من وجوده بأعينهم. فحالياً هم يعدون ما يمكن أن يربحوه. لم يبقَ في أحدهم تأثير للشراب. كانت عيون خلوصي بيك تنظر إلى صلاح الدين بيك برحمة وعجز، وهو يحاول تفادي تلاقي نظراته مع نظرات حلمي بيك. لم يكن من الممكن فعل شيء: رفض صلاح الدين بيك عروضهم بالتوقف عن اللعب بإشاراتٍ عصبية من يديه، وحتى حلمي بيك كان يقول:

"اتركوه يا أعزائي، ليلعب السيد أفندي! فربما يحالفه الحظ. انظروا، حتى نحن في خسارة، لكننا لا نترك اللعبة في منتصفها!"، عندها تحول كل شيء كان يمكن فعله إلى مستحيل.

تحت ضوء المصباح الأصفر كان وجه القائمقام يبدو أطول مما هو عليه في الحقيقة. وشعرات رأسه البيضاء كالفضة متحدرة على صدغيه كاسبة لوناً ملوثاً. ولحيته طالت في غضون عدة ساعات، وعلى ظهر يديه ظهرت عروقٌ بنفسجية. عيناه المحمرتان من داخلها وخارجها تتلفت حواليه، وفي نفس الوقت تعطي انطباعاً بأنه لا يعي أي شيء يجري. تصادفت نظراته عدة مرات مع نظرات خلوصي بيك المعاتبة. يبتسم له بشفتيه اللتين خسرتا لونهما ابتسامةً عصبية وبلا معنى، تختفي من شفتيه حالما يحول نظراته إلى طاولة اللعب. ومع أذان الفجر انتهت اللعبة. دفع صلاح الدين بيك بيده حفنة

المال التي مدها إليه حلمي بيك وقال بلهجة يائسة:

"يكفي!"

نهض من مكانه وأسقط الكرسي وهو ينهض، وبعدما خطى عدة خطواتٍ باتجاه الباب التفت إليهم وسأل: "بكم أنا مديونٌ لكم؟"

تناول حلمي بيك علبة سجائره من على الطاولة، وجمع أوراق اللعب المبعثرة، وقال:

"ثلاثمئة وعشرين ليرة". ثم شفع ذلك بابتسامة خفيفة.

"ليس الأمر بالمهم يا أفندي بيك، يقال إن قروش المقامر لا تنتقل إلى جيب مقامرٍ آخر، نجتمع مرة أخرى ونعوض الخسارة."

13

في اليوم التالي لم يستطع صلاح الدين بيك أن يذهب إلى عمله إلا بعد الظهر. كان وجهه لا يزال شاحباً وحليقاً. دخل في شجارٍ شديد مع شاهيندة هانم في البيت واختلط عليه ذهنه. وجد خلوصي بيك ينتظره في العمل. فقال بابتسامة حزينة: "هذا ما يدعونه بالمصيبة غير المتوقعة يا عزيزي..."

"ليس هناك وقت نضيعه. عليك بالتفكير في حل!"

"وهل هناك حل لهذه المصيبة؟ فحتى لو بعت كل أشجار زيتوني وأعطيته

مرتبي لسنة كاملة لن يكفي. إنها 320 ليرة ذهبية... انتهى يا خلوصي بيك، انتهى كل شيء. تأمل حتى أن رحيلي من هنا غير ممكن، فأنا محكوم بأن أبقى هنا سفيلاً رذيلاً. خلال ثلاث سنوات أو خمس، مهما يكن، سأحاول أن أسدد الدين".

أنهيا حديثهما لدخول بعض أصحاب المصالح. فجأة أصبح القائمقام وكأنه يرى خلفهم وجه الحاج أدهم ففوجئ. دفع أدهم من كانوا أمامه وتقدم إلى الأمام ومد ورقة أمام القائمقام.

وما أن ألقى صلاح الدين بيك نظرة على الورقة حتى اصفرّ وجهه تماماً، وبدأت يداه بالارتعاش. سأل ببطء: "وما لزوم هذا؟"

"يا بيك، لا تسئ الظن... ليس له لزوم طبعاً، ولكنها عادة، هذا كل ما في الأمر. تفضلوا بالتوقيع!"

أمضى القائمقام الورقة بيدٍ مرتعشة ثم خرج الحاج أدهم بسرعةٍ محاولاً ألا تلتقي عيناه بعيني خلوصي بيك.

بعد أن أمضى أوراق المراجعين الآخرين من دون أن ينظر إليها حتى، عاد القائمقام إلى خلوصي بيك: "جعلوني أمضي على سندٍ بدين ليلة البارحة!" قال.

"ولماذا أمضيتم؟"

"ماذا أفعل؟ ثم ألا ترى في أي وقت غير مناسب جاء. مؤكد أن الخبيث انتظر حتى يمتلئ الداخل بالمراجعين ليدخل. قلت لك أن كل شيء قد

انتهى!"

"لا يا عيني، فأنت لم تسئ لحلمي بيك قط. فليس من الممكن أن يحاول الانتقام منك. له هدفٌ آخر على كل حال. إما أن يكون له مصلحةٌ عندك، أو شيء آخر. فحلمي بيك يعرف تماماً بأنه لن يستطيع أن يستوفي منك الثلاثمائة ليرة تلك. لم يكن ليجعل القائمقام مديوناً له لمجرد المتعة. لنر، وننتظر مدة. ستظهر رائحته بالتأكيد. وأنت كل ما عليك فعله أن تتحكم بنفسك ولا تفقد توازنك. وهل هناك مصيبةٌ بلا حل في هذه الدنيا؟"

هز صلاح الدين بيك رأسه بإيماءة تقول بأن هذه الكلمات أبعد ما تكون عن التهوين عليه.

وعندما عاد إلى بيته في المساء قابلته شاهيندة مبتسمة. أثارت المجاملة هذه بعد كل الشجار الذي حصل قبل ساعات قليلة تعجبه.

أمسكت شاهيندة بذراعه وهمست في أذنه: "عندي لك أخبار جيدة!"

"ليكن خيراً"

"لا تسأل، اليوم زارنا أهل حلمي بيك. لكنها لم تكن من الزيارات المعتادة، بل يبدو كأنهم جاؤوا للرؤية!"

"رؤية ماذا؟ ولمن؟"

"ولمن ستكون يا بيك، أنسيت أن ابنتك في سن الزواج؟"

"أجاءوا من أجل معزز؟ ألم تخبريهم بأنها ما زالت صغيرة؟"

”ليست بالصغيرة يا صلاح الدين بيك، كم كان عمري عندما تزوجتك؟“

”حالياً ليس لدي بنت لأزوجها. أخبري القادمين بذلك. ولا تتدخلي كثيراً في هذه الأمور“.

”وهل يعقل ألا أتدخل؟ ألست أمها؟ على كل حال، لا تصرخ. فقد قلت لهم بأني سأبحث الموضوع مع أبيها. لكن يبدو أن لا نية لك في تزويجها، بل تريد أن تبقى البنت في البيت إلى سن العشرين“.

عندما ذهب صلاح الدين بيك إلى غرفته جلس يفكر طويلاً في حوادث اليومين الأخيرين محاولاً ربطها ببعضها واستنتاج معنىً منها. يحس وكأنه بدأ يفطن لما يحدث، لكنه لا يستطيع أن يفهم تماماً. إذا كان حلمي بيك يريد أخذ معزز لابنه فما كان لزوم ما فعله ليلة البارحة؟ ألم يكن يستطيع أن يأتي ويطلب يدها مباشرة؟ ليس من المعقول أن ابنه، ابن العائلة الغنية الأصيلة ظن بأن طلبه سيُرد فساق أباه لفعل ما فعل.

لكن في اليوم التالي، وبعد أن سأل عن شاكر من هنا وهناك فهم لماذا أرادوا ربط يديه وقدميه بهم.

حتى خلوصي بيك عندما سمع كل شيء قطب وجهه وقال: ”هذا لم يخطر على بالي أبداً. سيكون هذا مؤسفاً للبنت!“

”ولماذا يكون مؤسفاً؟ أنا لا أزوج بنتي عبثاً هكذا!“

”من المؤكد أنهم فكروا بأنك ستقول ذلك. لأي سبب أعطوك ثلاثمائة ليرة في ذلك المساء؟ توقف قليلاً، فهذا لا يعتبر شيئاً. أرجو ألّا يبدأوا في

المكائد الحقيقية، هذا لا شيء. أعطوك هذا المال لكي تصبح عاجزاً عن أن تترك إدرميت وترحل. أعتقد أنهم متجهزون لأي شيءٍ تفعله. لكن عقلي لا يستطيع الوصول إلى شيء: فشاكر عربيد في هنائه ومتعته، فمن أين جاءته فكرة الزواج يا ترى؟"

استغرق صلاح الدين بيك في التفكير مجدداً. فعقله لم يكن يستطيع استيعاب أنه سيكون مجبراً على أن يسلم ابنته لكلب شارد حسبما يقولون عنه.

قال خلوصي بيك:

"مع ذلك، قد يكون كل ذلك أحد ألاعيب شاكر. غداً يمر يومٌ آخر. في الوقت الحالي حاول أن تؤجل الموضوع قدر المستطاع. أعطهم إجاباتٍ مناورة، ربما تجعلهم يملّون منك وينهون الموضوع من أساسه. أما بالنسبة إلى موضوع الثلاثمئة ليرة، فكما قلت لك، يعرفون جيداً أنهم لن يسترجعوها منك. تعرف أيضاً أنك مهمٌ لهم في كل وقت. ثم فالحاج أدهم يعني شاكر. فالنقود التي خرجت من حلمي بيك لم تذهب إلى أحدٍ غريب!"

وجد صلاح الدين بيك أفضل حل لتسويف الأمر حالياً.

فضّل ألّا يفتح أي موضوعٍ مع يوسف. خوفاً من أن يهتاج يوسف فيذهب ويعمل عملاً طائشاً ويفتعل واقعةً كبيرة فيتأزم الموضوع ويصبح حله مستحيلاً. ولأنه كان يعرف بعضاً مما جرى بين شاكر ويوسف في العيد، رأى أن من الأفضل ألا يعلم يوسف بأي شيءٍ حالياً.

وهكذا، مرت عشرة أيام، وخمسة عشر يوماً، ثم في ليلة من الليالي

أحضروا يوسف إلى البيت. من أحضره كان إسكافياً عجوزاً اسمه يونس آغا وامرأة في أواسط الثلاثين ترتدي ملابس رثة وبجانبها فتاةٌ في ملابس المرض تبكي بلا توقف.

لم تبرح الأم وبنتها جانب فراش يوسف تلك الليلة وطوال الأيام التالية وبقيتا في بيت القائمقام.

14

لم تكن إصابة يوسف خطيرة. فلم يكن الحرق في وسطه والسكينة التي طُعن بها في ساقه لتفعل شيئاً غير ترقيده في الفراش لخمسة عشر أو عشرين يوماً.

فوجئ صلاح الدين بيك عندما رآه على تلك الحال، بل فوجئت شاهيندة أيضاً. لم يعرف صلاح الدين بيك كم كان يوسف عزيزاً على قلبه إلا في ذلك الوقت. كان يمر على البيت عدة مرات في اليوم، يصعد إلى الأعلى بجانب يوسف، يقول ضاحكاً:

"انظر إلى المخادع! بدأ بالفتوة من هذه السن الصغيرة. مهما كانت بسيطة، ففيك بعض مظاهر الفتوة، أليس كذلك؟ إيه، متى ستخبرني بما جرى؟"

ثم يحرك رأسه مستفسراً عمن تكون الأم وبنتها من دون أن تلاحظا.

لكن يوسف كان مصراً على السكوت، وعندما يتعرض للإلحاح بالسؤال

يدير وجهه ناحية الجدار بتعب.

وجدت كبرى وأمها مكانهما الطبيعي كخادمتين في البيت، وعندما ينظر إليهما أحدٌ كذلك لم تكونا تستاءان قط. لذلك لم تكونا تدغدغان فضول أي أحد. لكن كان من المؤكد أن خبر ما حصل انتشر في المدينة على كل الألسن.

كان يقال إن حلمي بيك وشاكر وقعا في هلعٍ من موضوع كبرى، وحتى الحاج أدهم الذي لم يكن يتأثر بأي شيء قط كان وجهه مقطباً. ولم تبقَ إصابة يوسف في بيته سراً كذلك. حتى هذا الحدث كان هناك من يعطيه تفسيراتٍ شتى.

وحتى صلاح الدين بيك كان مضطراً إلى أن يكتفي بالأخبار التي تتناهى إلى مسامعه من الخارج. كان من الصعب على الرجل المسكين أن يقنع بما يسمعه عن الأعمال المنجزة من بيته، لكن يوسف هو الذي كان لا يدرك ما يجري...

كان هناك أيضاً من لم تكن تكتفي بالروايات التي تسمعها من هنا وهناك: معزز.

أرادت معزز أن تعرف حقيقة كل شيء وأصله، لكنها لم تكن تجسر على سؤال يوسف قبل أن تتحسن صحته. حكت لها المرأة عما حدث باختصار:

"كانت ابنتي مريضة، أخذ لنا سيدنا يوسف أرزاً وزيتاً، وجاء ليسأل عن حالنا. ليباركه الله، إنه شابٌ رحيم جداً. ما كاد يخرج من البيت حتى جاء أحدٌ وطعنه بسكين، يبدو أن السفيه ظن يوسف أحداً آخر. وإلا فماذا من الممكن أن يكون يوسف قد فعل؟"

سألت معزز: "هل كانت كبرى مريضةً ليلتها؟"

"نعم، كانت ترقد في فراشها..."

"حسناً، لكنك وابنتك أتيتما مع يوسف سويةً عندما طُعن، ألم يحدث لها شيء وهي تمشي في البرد وتحت المطر؟"

"آه يا بنيتي العزيزة، نحن معتادتان على ذلك. وهل كانت المحن التي مررنا بها قليلة؟ لقد زال ما كان بابنتي من هول الموقف. فهي تحب سيدها يوسف جداً".

لكن هذه الكلمات كانت أبعد من أن تكون مطمئنة لمعزز. وفي النهاية لم تعد تحتمل. في ليلةٍ ذهبت إلى الغرفة التي يرقد فيها يوسف، جلست على طرف السرير وسألته:

"أخي يوسف، أخبرني هيا.. ما معنى كل ما حدث؟ ثم من هي هذه البنت؟ كبرى هذه؟"

احمرّ وجهها بلا سببٍ ونظرت أمامها.

قال يوسف: "هي من عباد الله المساكين يا معزز. لقد عانت كثيراً، انظري إلى وجهها!"

وثبت معزز بثرثرةٍ طفولية:

"أعرف يا أخي يوسف. لكن حالها غريب. فمع أنها أصغر مني عمراً إلا أنني عندما أكون معها أشعر بمعاناتها وحزنها. ولو ترى إلى أي درجةٍ

تحبني. أحياناً تتحدث معي بلا توقف وتتعلق برقبتي، وتقبل خديّ. حتى أنت تحبك كثيراً على كل حال.. رأيتها أكثر من مرة عند باب الغرفة تحاول التنصت. وعندما تراني تنصرف عما تفعل وتنظر أمامها كأنها فعلت شيئاً غير لائق وتنزل فوراً. لكني قلت لنفسي: لا أستطيع أن أتقارب معها أبداً. لا أستطيع حتى لو حاولت. شيءٌ غريب أليس كذلك؟"

لم يجبها يوسف. كان ينظر إلى معزز التي كانت تلعب بيده المتمددة فوق اللحاف بشرود. فهمت معزز بأنه لن يخبرها شيئاً، ففتحت فمها كأنها تريد أن تقول شيئاً لكنها تراجعت لأن الجرأة لم تسعفها. في النهاية وبعد ترددٍ طويل، لم تستطع أن تصبر أكثر فقالت:

"أتعرف، يا أخي يوسف.. لقد طلبوا يدي!"

فتحت عينيها ونظرت إلى يوسف وكأنها هي أيضاً فوجئت من نفسها، كيف أخبرته بهذه البساطة والصراحة. اعتدل يوسف في جلسته في الحال وسأل:

"من؟"

"طلبوني من أجل شاكر ابن حلمي بيك. أمه جاءت... يدعون أنهم يبقون الموضوع سراً، لكن لم يبق أحدٌ في البلدة لم يصله الخبر..."

"ماذا قال أبي؟"

"قلب أبي لم يرتح للموضوع. لكن أمي هي من تريد على الأغلب! في الأيام الأخيرة إما أن تكون أمي عندهم، أو هم عندنا. يقولون إنهم شديدو

الغنى. حتى أنهم بدأوا في إهداء أمي الهدايا من الآن. ثم..."

مدت يدها اليمنى إلى يوسف. في معصمها سواران ذهبيان منقوشان بإتقان.

"قوليها، لقد تطور الموضوع كثيراً ها؟ معنى ذلك أنهم بدأوا في النظر إليك كعروسٍ من الآن وأهدوك أطقم الذهب! ليزدهم الله، ويرزقك الشكر. لعابك يسيل لأنهم أغنياء، انظري إلى نفسك".

نهضت معزز وامتقع وجهها بالحمرة كأنها كانت تنتظر ردة فعل مختلفة. كأن عينيها أدمعتا. ورددت بشفتين مرتعدتين:

"أخي يوسف!"

ثم بحركةٍ عنيفة أخرجت السوارين من معصمها وألقتهما على اللحاف.

تناول يوسف السوارين الساقطين أمامه، وسحقهما لاوياً إياهما بين أصابعه ثم ملقياً بهما كتلة معدنية في أحد أطراف الغرفة.

انفجرت معزز بالبكاء الشديد جالسة على طرف السرير. أمسك يوسف يديها برقةٍ وسحبها إليه، وهمس في أذنها مقرباً فمه من شعرها:

"يوجد هناك من يستحقك أكثر يا معزز. ماذا ستفعلين مع سفيه مثله؟ وهل هذا وقت مناسبٌ لمثل هذا الموضوع؟ أنتِ حتى لا تعرفين كم هو شاكر بيك أحمق. هل يستحق رجل مثله البكاء؟"

سحبت معزز رأسها بسرعة. جففت دمع عينيها. وبتعابير من لا تريد

أن تفهم، ومن دون أن تقول شيئاً، نظرت إلى يوسف. كانت في نظراتها تلك حيرة، وعتاب، وقليل من الحنق.

تابع يوسف:

"يا بنتي، أنت أيضاً في شبابك، من الطبيعي أن تشعري بالضيق عندما ترين من هن في عمرك يتزوجن. لكن النساء ولسببٍ ما يُعجبن بالفسّاق من أمثال شاكر بيك، وفي النهاية يضربن رؤوسهن في الصخور. لا تفكري أنتِ أيضاً مثل الأطفال، ليكن فيك قليل من الرزانة. لتأتِ قسمتك الخيّرة! فليسوا بمبقيك في البيت إلى الأبد، سوف يزوجونك أحدهم بالتأكيد. وهذه التي من المفترض أن تكون أمك لماذا تأخذك كل يومٍ وآخر إلى آل حلمي بيك؟ هل أنت طفلة، حتماً أن ما تريده هو أن تملأ عينيكِ بأبهة منزلهم وفخامته. على كل حال، أنت فتاةٌ عاقلة، لا تكوني قليلة الصبر هكذا!"

لم يستطع يوسف أن يزيد شيئاً على ذلك. أخافه وفاجأه وجه معزز. كانت عينا الفتاة الشابة الواسعتان تتقدان ناراً، وأطراف شفتيها ترتجفان كأنها تلقت صفعة عليها.

كان يظهر عليها أنها تتوجع لدرجة أنها لا تستطيع البكاء، وأنها على وشك أن تنتابها أزمة عصبية. لكن لم يحدث شيءٌ من ذلك. نهضت معزز ببطء من طرف السرير، وبهدوء شديد، ورأسها منحن، خرجت من الغرفة، وبقي يوسف متحيراً لا يفهم شيئاً.

15

في يوم العيد، وبعد أن تشاجر شاكر مع يوسف، قال بثمالة:

"لو لم آخذ تلك الفتاة إلى بيتي وأجعل منها زوجتي، فاللعنة على أمي وأهلي. يجب أن يفهم الأجنبي يوسف من يكون شاكر!"

أخطأ كل من اعتقد بأن ما قاله شاكر كان مجرد كلامٍ فارغ تحت تأثير السكر. كان شاكر، هذا الشاب المدلل صاحب الكلمة السارية في كل مكان، عاجزاً عن نسيان ألم اللكمةِ التي تلقاها أمام الجميع، لذلك كان يرى بأن أخذه لأخت يوسف سيكون جزاءً عادلاً له. عندها سيقول ليوسف: أهذه هي الفتاة التي تخبئها؟ انظر كيف آخذها إلى بيتي زوجةً! ولن يريد شيئاً آخر. في البداية لم يرغب أبوه في أن يستمع إلى ما يقوله حتى. فلم يكن يفكر في تزويج ابنه من ابنة موظف حكومي مهما يكن. لكنه اقتنع بعد أن أقفلا على نفسيهما الباب وتناقشا في الموضوع مطولاً. لسبب ما فإن هذان الأب-الابن لم يكونا يختلفان قط. بل إن حلمي بيك كان يتصرف بتردد أمام ابنه. حتى في المرات التي كان يعارضه ويخالفه فيها كان يغير رأيه ويقبل بعد نقاش خاص وسري.

لم يعد الأب يجد لزوماً لإصراره على رأيه في هذا الموضوع. فقائمقام واحد قد يكون أحياناً أكثر فائدةً من ابنة غني من الأشراف. يحتمل أن يكون شاكر قد خدعه عندما تحدث عن ضرورة الزيجة هذه. لكن كلاهما ولسبب ما، وجدا أن ربط صلاح الدين بيك من يديه ورجليه قبل طلب يد الفتاة مناسباً. ربما فعلا ذلك لإنجاز المهمة بأسرع وقت ممكن. تشبثهما بالوصول إلى نتيجة حاسمة وعدم رضاهما بأجوبة صلاح الدين بيك المتذبذبة يدل على

أنهما لا يريدان الانتظار كثيراً.

إصابة يوسف وانتقال كبرى وأمها إلى منزل القائمقام بالذات جعلتهما يحاولان التعجل أكثر. كل أصحاب الكلمة المسموعة في البلدة بدأوا بالضغط على صلاح الدين بيك بتأهبهم للحشد للحرب. في البداية كانوا يحاولون إقناعه بالرجاء والمخادعة، لكن بعد ردود صلاح الدين بيك المبالغة في التهرب اتخذت كلماتهم طابعاً تهديدياً. لم يتوقع الرجل المسكين أن تصل الأمور إلى هذا الحد، لمعرفته كم قد تكون تافهةً قيمةُ موظف حكومي بالنسبة لهؤلاء الرجال الذين لهم إدارة البلدة الحقيقية، وأن الاحترام الذي يُظهَر للقائمقام سيختفي في اللحظة التي سيقف فيها في وجوههم وسيتحول إلى دمية يتخلصون منها. بدى وكأنه قطع أمله تماماً. الحل الوحيد الذي كان بيده وهو أن يهجر المكان ويرحل أصبح مستحيلاً بعد أن وقع على السند. لكنه لو استمر على هذا الوضع طويلاً فقد يتسبب في أن يتخذ أصحاب النفوذ في البلدة قرارات بحقه قد تصل إلى عزله، وفي النهاية إلى فضحه.

لم يبدُ أن أعصابه التي أضعفها الشراب تستطيع التحمل كثيراً. ورويداً رويداً بدأ بالتفكير بطريقة مختلفة وبسؤال نفسه: ما معنى كل هذا الإصرار؟ عدم تراجع بكير عن هذا الموضوع، بل على العكس من ذلك، زيادة إصراره وتصميمه يدل على أن رغبته لم تكن مجرد نزوة عابرة، رجلٌ يتمسك ويصمم على شيءٍ إلى هذه الدرجة لا يستبعد أن يصلح نفسه بنفسه مع الوقت. بل ربما التقزز والبغض الذي بدأ يشعر به شاكر تجاه الحياة القذرة التي يعيشها هو ما جعله يرغب في الزواج. مقابل كل ذلك، كم كانت الحجج والأسباب التي ساقها لهم واهية! أليست أفعال شاكر هي نفسها ما كان يفعلها صلاح الدين بيك في شبابه؟ حتى وإن لم تصل إلى هذا الحد؟ ومع استرساله في التفكير

كان يجد أن ردود أفعاله لم يكن لها مبرر، وأنه كان يضيق على نفسه وعلى الآخرين بلا سبب منطقي. حتى خلوصي بيك لم يعد يصر على اعتراضاته القديمة، فكان يقول:

"أنت أعرف، أتمنى أن يكتب لها ما فيه الخير!". فقد كان على المسكين ألا ينسى أنه يعيش في هذه البلدة ويأكل من خبزها.

أخيراً في يوم من الأيام فاتح صلاح الدين بيك يوسف في الموضوع، سحبه بعد تناول طعام العشاء إلى ركن وقال:

"يوسف! معزز أصبحت في سن الزواج الآن، وهناك من يطلبونها لأنفسهم. لم أفتح معك الموضوع إلى الآن لكنك سمعت به على كل حال؛ إنه شاكر ابن حلمي بيك! أعرف أن الأمور بينكما ليست جيدة. لكن الأهم هو سعادة أختك. أنا لم أكن مؤيداً لذلك. لكن بعد أن استمعت لبعض من أثق بهم، أخبروني أنه ليس بشابٍ سيء في الحقيقة، لكن هيجان الشباب وتأثير بعض أصدقائه جعلاه يعيش حياة طائشةً وسفيهة. لكنه حالياً، ومنذ طلبه ليد معزز، لم يره أحدٌ يمارس طيشه القديم. الكثيرون يقولون: نتعجب من تهذب هذا الذي لم يكن يثبت في مكان! معنى ذلك أن في خميرة الرجل بعض السمات الطيبة. أنت أيضاً ليس من المعقول أن تعارض الأمر لأن بينكما خصاماً قديماً!"

لاحظ صلاح الدين بيك أثناء كلامه أن يوسف لم يكن ينصت إليه، وأنه كان يعبث بأذيال الستائر التي كانت كخصلات الشعر. فقطع كلامه على الحال مستاءً.

ترك يوسف طرف الستارة والتفت إليه:

"أنت اتخذت قرارك، فلماذا تخبرني بكل هذا؟" سأل. "أنت أبو البنت، أنت من عليك أن تفكر في مصلحتها أكثر مني، ما دخلي أنا؟"

"لا تقل هذا يا يوسف! ألا أعرف أنك تهتم بمعزز أكثر مني؟ فأنت كنت بمثابة الأخ الكبير والأب لها في نفس الوقت. لماذا أكذب، فأنت تعبت معها أكثر من تعب أمها معها حتى. فما لزوم قولك ما دخلي أنا؟ انظر، أنا أتحدث معك كندٍ لي، وأستشيرك. اترك ثأرك القديم جانباً، وأخبرني إذا كنت ترى شيئاً سلبياً في الموضوع. لماذا لا تريد التدخل في هذا الموضوع حتى؟ أهناك شيءٌ تعرفه؟"

"ما أعرفه هو أن شاكر كلب قذر، ولا يُزوّج أمثاله!"

"أنا أيضاً كنت أفكر مثلك يا يوسف. لكن هل من الصواب اتخاذ حكمٍ قاطع بشأنه هكذا؟ الكل يقول إنه تغير تماماً".

"ولماذا تغير برأيك؟"

"لم سيكون؟ لنيته بأن يعتدل ويصبح رجلاً مهذباً!"

"ابق في وهمك هذا!"

"ولماذا تهذب؟"

"من الخوف. لو تعلم فقط كم ينتظر حلمي بيك وشاكر في هذه الأيام على أحر من الجمر! كنت أشعر بوجود شيء ما لكني لم أستطع أن أعرف ما

هو. الشكر لعلي فقد فتح عيني قليلاً على ما يحدث. أخبرني أن هناك ما يحيكه العزيز شاكر وحلمي بيك. هو أيضاً لم يكن يعرف شيئاً أكيداً، يخبرني بما يسمعه من هنا وهناك. لكن كما تعرف، لا دخان من دون نار. لو كان عُشر ما سمعه علي فقط صحيحاً، فرجلٌ مثله ليس فقط لا يُزوّج، بل لا يلقى عليه السلام حتى..."

"تلك أخبارٌ مبالغ فيها، أو إشاعات مختلقة بالتأكيد. أمن المنطق أن نحكم على الرجل من خلالها؟"

أشاح يوسف بوجهه منزعجاً من هذا النقاش.

"افعلوا ما تريدونه!" قال. "قلت ما أعرفه لأنكم سألتموني!"

انفعل صلاح الدين بيك من تصرف يوسف هذا:

"طبعاً سأفعل ما أريده. لكن لو أنك أنت أيضاً تخبرني بما تعرف بدلاً من هذا التأفف سيكون ذلك أفضل".

هز يوسف كتفيه.

لم يستطع صلاح الدين بيك أن يتحمل أكثر، أمسك بذراع يوسف الذي كان يريد النهوض والخروج من الغرفة وسحبه إليه.

شحب وجهه تماماً. قال بصوتٍ خفيض ومرتعشٍ قليلاً:

"هل اتحدتم كلكم عليّ ونويتم قتلي؟ كلكم، كل من في البلدة ومن في بيتي حتى، هل قررتم أن تهجموا عليّ وتفسدوا حياتي؟ يوسف! أنت على

الأقل ستعرف ما مررت به وتشفق علي. سأجن يا ابني، سأجن، ألا تفهم؟ سأجن. لو استمر هذا الوضع لفترة أطول، لو بدأ الجميع بفتح جبهة حرب معي، إما أني سأهرب بجلدي، أو أطلق رصاصة على رأسي. من رأيك ألا نعطي معزز لشاكر، أليس كذلك؟ ممتاز! حتى أنا لا أريد ذلك... لكن ماذا نفعل؟ لو بيدك حل أخبرني به لأنفذه. فلم يعد بي طاقة لأقاوم أكثر. لم أعد أستطيع أن أماطل في الموضوع أكثر، وأتعب نفسي مع الماكرين والذئاب الظالمة وأجد عذراً أقابله بهم كل يوم، وأمثل أني لا أستوعب تهديداتهم التي أصبحت مباشرة وأبتسم في وجوههم وأرد عليهم بأجوبة لبقة. حتى أنا إنسانٌ يا يوسف، حتى أنا مخلوقٌ من لحمٍ ودم. أشفقوا علي قليلاً يا عزيزي!"

كانت شفتا البائس ترتعشان. صدر يوسف سُحق رحمةً وشفقةً لا نهائية تجاه الرجل. لو لم يمسك نفسه لقفز إلى الرجل متعلقاً برقبته وأغرق وجنتيه بالقبل. لكنه قال فقط:

"سنهتم بما يريحك يا أبي.. لكن لو أردت أن تعرف قدر غباء هذا السفيه، فاسأل كبرى وأمها عنه. أعتقد أنهما تعرفان الكثير عنهم".

"ما علاقة كبرى وأمها بحلمي بيك؟"

"لا أعرف! لكن بينهم علاقة أكبر مما نعتقد على الأغلب!"

16

نادى يوسف كبرى وأمها ليأتيا إلى الغرفة. ارتعبتا عندما دخلتا الغرفة

ورأيا صلاح الدين بيك فيها. قال يوسف: "أخبرتماني بنصف الحكاية فقط، الآن ستخبرانا بكل ما جرى من البداية. أريد أبي أن يسمع أيضاً".

طلب صلاح الدين بيك من المرأة أن تجلس ثم قال:

"لا ضير في أن تخبرانا بكل شيء بصراحة. هناك علاقة لحكايتكما بأهل حلمي بيك على كل حال، الحال الآن أن شاكر ابن حلمي بيك يريد الزواج من معزز، وأنا على وشك أن أوافق. أخبرني يوسف بأن هناك ما تعرفانه بما يخص آل حلمي بيك، وأخبرني أن اتخاذي قراراً من دون أن أعرف ما تعرفانه ليس من الصواب. أخبرني بعض ما يعرف. أريدكما الآن أن تخبراني أنتما عما له علاقة ببيت حلمي بيك. على الأغلب أن هذه الوقائع ستكون من نصيب كبرى؟"

وجمت الأم وابنتها لبرهة بلا جواب مقابل هذه الأسئلة والكلمات التي لم تتوقعاها. أحنت كبرى رأسها قليلاً، وأخذت تحدق في الأرض. وجّه صلاح الدين بيك الكلام إليها:

"كبرى، يا بنتي، معزز في مقام أختك. من المؤكد أنك تريدين ما هو خيرٌ لها، صحيح؟ فكري وأخبرينا بما تعرفين، مهما يكن أخبرينا به، حسناً؟"

قالت كبرى ببطء، ومن دون أن ترفع رأسها:

"سيكون ذلك مؤسفاً، لا تعطوا معزز لهم!"

"حسناً ولكن يا بنتي، أخبرينا بالأسباب. لماذا تركتما بيت آل حلمي بيك؟ إذا كان ذلك بسبب خلاف ما، فلماذا بقيتما تعملان في مزارع زيتونه

إلى أن انتقلتم للعمل عند يوسف؟"

أجابت أمها:

"أتريدنا ألا نعمل فنموت من الجوع يا أفندي بيك، وهل كنا نعمل عندهم بإرادتنا بعد ما فعلوه لنا؟"

بدأت المرأة في البكاء من جديد. كان هذا النوع من الناس الذين يبكون لأي سبب يثيرون غضبه. لكن دموع هذه المرأة كانت حقيقة وصادقة بحيث إن من يراها لم يكن ليستطع أن يمنع نفسه من أن يشفق عليها.

نهض صلاح الدين بيك من مكانه. أمسك بذقن كبرى رافعاً رأسها إلى الأعلى. نظر في عينيها وقال:

"ما مررت به لم يكن بسيطاً يا صغيرتي! لكنها غمة وتزول. كل شيء يُنسى. ليس هناك من سببٍ يجعلك تفقدين نفسك في وسط هذه الحال الصعبة. على الإنسان أن يتحلى بالصبر!"

أنهى كلماته الموجهة لها عندما شعر بأنها لن تفهم. لكن رد كبرى عليه أثبت له أنها لم تفهم الكلمات فقط، بل روح الكلمات أيضاً، قالت:

"هناك أيضاً أشياء لا تنتهي ولا تُنسى يا أفندي بيك! هناك أوزارٌ على ظهر الإنسان لا تسقط عنه حتى يموت..."

لم يعد القائمقام الآن مهتماً بحل موضوع معزز فقط، بل أثاره الفضول لمعرفة قصة كبرى أيضاً. فسأل بصبرٍ نافد:

”لكن يا بنتي لماذا لا تخبراني بكل مشاكلكما بصراحة ووضوح؟ إذا تعرضتما لظلمٍ من أحدٍ ما فهذه وظيفتي كقائمقام أن أجازيه!“

”هؤلاء لا يقدر عليهم أحد!“

كان صلاح الدين سيقول: أنا أقدر! لكن لم يكن بيده أن يقولها ولو على سبيل المجاز. خصوصاً أن أحداث الأيام الأخيرة أثبتت له عجزه وعدم أهميته. فلم يعد لأي كلام يقوله إمكانية إلا لأن يكون مثيراً للسخرية. قالت أم كبرى: ”نحن تركنا الانتقام لله يأخذه لنا. لن يفلحوا بإذن الله!“.

قال يوسف مخاطباً المرأة:

”ها لنرَ، احكي لنا أنت ما حصل. قالها أبي، من المهم لحل موضوع معزز أن نعرف حقيقة آل حلمي بيك“.

”كيف أحكي؟ لم يعد قلبي يتحمل أن أحكي ما حصل. كبرى يا بنتي؛ أخبريهما أنت بما حصل لك! لا تخجلي يا صغيرتي، فلم تقترفي ذنباً، على من اقترفوه الخجل!“

فكرت كبرى لبرهة من دون أن ترفع رأسها، ثم هزت رأسها كأنها قررت. برقت عيناها لمدة طويلة ذاك البريق الذي يكون في عيون من عانوا من الجوع، كانت تتلفت حواليها باغتياظ. لكن عندما وقعت نظراتها على يوسف لانت من جديد.

”لقد حكت أمي ما حصل“، قالتها مستهلةً الكلام. صوتها يخرج خفيفاً وخائفاً. ”كنا أنا وأمي نخدم بيت حلمي بيك ونعتني بشؤونهم. في كل

صباح كنت أصعد إلى الدور الثاني وأرتب الأسرّة. في يوم من الأيام دخلت إلى غرفة شاكر بيك. كانَ الوقت ضحىً. ظننته نهض من نومه وخرج. نظرت فوجدته في السرير... فتراجعت للخروج، لكنه كان شبه مستيقظ، وشعر بدخولي. صرخ من دون أن يرفع رأسه أحضري لي كأساً من الماء يا بنت! عدوت إلى الأسفل، سكبت له ماءً في كأس وقدمتها له. أفرغ الكأس كلها في جوفه جرعة واحدة. كان بادياً عليه أنه يعاني من دوار الثمالة من بعد ما شربه من خمر ليلة الأمس. وعندما مد إليّ الكأس نظر إلى وجهي، وأعاد النظر فقال: منذ متى وأنت عندنا؟ وبينه وبين نفسه قال: أمي دائماً ما تجد الأفضل والأجمل، لكنها لا ترينا شيئاً! تراجعت لأخرج فأمسكني من ذراعي، وسحبني. قلت: ماذا تفعل يا شاكر بيك؟ ثم سحبني إلى السرير وهو يقول: سترين الآن! ارتعبت، كاد عقلي يطير من رأسي. تملصت منه وخرجت. هبّ شاكر بيك من السرير وركض خلفي لكنه لم يستطع الإمساك بي. لم يكن يستطيع الخروج من الغرفة بالذي كان يرتديه. بصعوبة نزلت إلى الأسفل وألقيت نفسي بجانب أمي. وعندما رأتني وأنفاسي تتلاحق سألتني: بنتي! ماذا حل بك؟ لم أستطع أن أخبرها بحقيقة الأمر لحيائي وخجلي. قلت: نزلت وأنا أركض، هذا كل ما في الأمر. أخذت تتحدث لمدة طويلة: ألا تملين من العدو في البيت؟ أفزعتني، متى تعقلين! ولكيلا يراني شاكر بيك مجدداً كنت أختبئ منه وأتفاداه. وعندما كان يدعوني إلى غرفته كنت أترك باب الغرفة مفتوحاً خلفي دائماً. لكن شاكر بيك لم يعد يخرج من البيت كثيراً. يعترض طريقي هنا وهناك، ويضيق عليّ عندما يمر من جانبي. وبسبب خوفي منه لم أكن أصدر صوتاً، أحاول ما بوسعي أن أتحاشاه فقط. مرت خمسة أيام لم يترك فيها خناقي. ولم أكن أستطيع أن أقول لأمي شيئاً. كنت أخشى إن قلت لها الآن أن تغضب وتوبخني وتقول: لماذا لم تخبريني إلى اليوم؟ لكن لم يكن من الممكن أن أتحمل تصرفات شاكر بيك

أكثر. في كل صباح كان لا ينهض من سريره حتى تطلع الشمس، يبحث عن أي عذرٍ ليجعلهم يرسلوني إلى غرفته. قلت لأمي عدة مرات: اعتني أنت بأمور الطابق العلوي ولأدخل عنك أنا المطبخ. من يدري ماذا فهمت أمي الحنونة، قالت: لا يا بنتي، لن أجعلك تغسلين المواعين ما بقيت في جسمي قوة إن شاء الله.. لو أن شفقتك عليّ هي ما دعتك لقول ذلك فيا للخزي. أمك تفعل كل شيءٍ من أجلك!"

"المسكينة، لم تكن تعرف ما أعاني منه كل يوم... مع مرور الأيام كانت أعمال شاكر بيك تسوء أكثر. كان قلبي يرتعد خوفاً من أن يشعر أحد أهل البيت بشيءٍ، فيظنون بي وبأمي سوءاً ويطردوننا. في النهاية تركني شاكر بيك وحالي بعد أن سئم من المحاولة كما يبدو. قلت لنفسي: أخيراً، سأستطيع أن أرتاح قليلاً. لأنه أصبح عندما يراني لا يمسني من هنا أو هناك، لكنه كان ينظر إليّ بحقد ويذهب... كنا في الربيع وقتها. والبيت يغص بالحركة. في يوم من الأيام استدعتني الهانم إلى جانبها. قالت: سننقل أغراضاً إلى المزرعة في جنت أياغي، اذهبي معهم وساعديهم في إنزال الأغراض. خطيئتها في رقبتها، هل كانت تعرف شيئاً عما حصل يا ترى، لا أعلم؟ أمي كانت في المغسل منذ الصباح، تغسل الملابس. لم تعرف شيئاً عن خروجي. كنت أحب المزرعة جداً. كان وقت نضوج الكرز قد حل. ركضت فرحةً إلى العربة وجلست فوق الفرش والسجاجيد. سائق العربة كان ولداً متهوراً، يسوق الأحصنة بسرعة تكاد تقلب العربة. كنت أصرخ من الخوف والمتعة في نفس الوقت. كانت المزرعة في الطرف الآخر من جنت أياغي. تعدينا منطقة صوغوق طولومبه. وتعمقنا وسط المزارع. كانت المياه تجري من وسط الطريق. إطارات العربة تغوص إلى نصفها في الماء وتصدر أصوات طرطشة وهي تدور. سائق العربة هو الآخر كان طرباً، يغني بلا توقف. وصلنا إلى

المزرعة أخيراً. قفزت من العربة على الفور. وركضت إلى أشجار الكرز. أميل أغصانها إلى الأسفل وآكل. قلت لنفسي بحلول الوقت الذي يكونوا قد أنزلوا به الأغراض أكون قد شبعت. بعد قليل نادى عليّ السائق المتهور: كبرى، نحن ذاهبون، تعالي اجمعي الأغراض! تركت الغصن وعدوت إلى البيت (بيت المزرعة). كان كل شيء مبعثراً. أحضروا كل شيءٍ إلى هنا ليقضوا نصف الصيف في المزرعة. من سلالٍ وقدورٍ نحاسية إلى حافظات الفلفل الأحمر، كل شيءٍ كان موجوداً. كنت أحمل الأغراض إلى داخل البيت وأغني في نفس الوقت. كنت أترنم ببيتين قالوهما في موسى شاويش عندما هرب بصحبة حبيبته شادية:

تعبت من الطريق فساعدوني

إني متيمٌ بدلال شادية

وبينما كنت أفرد سجادة في الدور الثاني سمعت صوت أحدهم يصعد الدرج. بلغ قلبي حنجرتي من الخوف. أسرعت إلى طرف الغرفة ونظرت باتجاه الأريكة، فرأيت شاكر بيك قادماً ووجهه مبتسم..."

تحرك صلاح الدين ويوسف في مكانيهما مضطربين. نظرت إليهما كبرى وسكتت. احتلت وجه يوسف تعابير جامدة بلا معنى. كانت كلماتها الأخيرة جافة وجامدة كأنها تصدر عن اسطوانة تسجيل:

"قدم شاكر بيك إلى الباب وهو يبتسم. مشيت خطوتين لأصرخ وأهرب إلى الخارج. كدت أن أفقد عقلي. لكن في هذه المرة كان حلمي بيك يصعد الدرج أيضاً".

قفز صلاح الدين بيك من مكانه وصرخ:

"أبوه؟"

"نعم أبوه... هو أيضاً كان وجهه مبتسماً. آه يا أمي لو تعرفين، لم أرَ في حياتي شيئاً أكثر فظاعةً من ابتساماتها..."

ارتمت البنت في حضن أمها التي كانت وجهها جامداً كأنه قدّ من حجر. لم تكن تتحرك. إذا كانت تبكي فإن بكاءها كان غريباً جداً.

نهض يوسف من مكانه أيضاً... ومشى خارجاً من الغرفة، عندما وصل إلى الباب سمع صوت أم كبرى فالتفت إليها. كانت المرأة قد مدت رأسها باتجاه القائمقام، وقالت بصوتٍ مختنق:

"عدت بنتي نحو النافذة، وأخرجت نصف جسدها منها لكن الولد أمسك بها من تنورتها قبل أن تقع... في الخارج كان الحاج أدهم يجلس على طرف البئر الكائنة عند باب المزرعة وفي يده عصاً يلعب بها".

الجزء الثاني

1

بعد عدة أيام، كان الوقت ضحىً. المطل يهل بغزارة. كان يوسف مرتدياً معطفه يمشي بخطواتٍ سريعة وهو عائد من السوق السفلية، وفي طريقه صادف الحاج أدهم. غير الآخر اتجاه طريقه عندما رآه، لكن يوسف اتجه نحوه وقال:

"تعال إلى هنا قليلاً!"

أمسك الحاج أدهم بمسدسه وراقب بتوجسٍ يوسف المتقدم باتجاهه.

ثنى يوسف يديه خلف ظهره، كان يمشي بسرعة. وعندما وصل إلى جانب الطريق جلس تحت إحدى مظلات الدكاكين المفتوحة، وقال من دون أن ينظر إلى وجه الحاج أدهم:

"هل معك السند الذي أمضيتم أبي عليه؟"

قال أدهم الذي كان متحضراً لعراكٍ أو تصفية حسابات، والذي لم يتوقع هذا السؤال قط:

"وماذا سيفعل السند معي، إنه مع البيك". ثم تابع: "ما الأمر؟"

"خذه وأحضره معك في المساء إلى المقهى... سأسدد الدين".

هذه المرة شعر الحاج أدهم وكأنه تلقى طعنةً في بطنه. فلم يتوقع ذلك قط.

"من أين لكم أن تسددوه؟"

"وهل هذا من شأنك؟ أحضر السند وسأعطيك المبلغ!"

ثم مشى باتجاه منطقة صوغوق طولومبه من دون أن ينظر خلفه، فقد كان يذهب إلى مزرعة الزيتون ويبقى فيها حتى المساء يهتم بأمور العاملين والعاملات.

خرج الحاج أدهم من بيته ليلعب الباصرة في المقهى، لكنه عاد بعد لقائه بيوسف، ذهب إلى بيت حلمي بيك وبقي فيه لساعتين.

كلاهما، الابن وأبيه، لم يكونا ينتظران شيئاً من هذا القبيل. فمن المستحيل أن يتدبر صلاح الدين بيك أمر ثلاثمائة ليرة في غضون يومٍ أو يومين. حتى أصدقاء القائمقام كلهم موظفون وأحوالهم ضيقة نسبياً. وليس من الممكن أيضاً أن يتهور أحد المحليين بمثل هذه التضحية ويدخل في مسألة شائكةٍ لا تخصه. وجدا أن الاحتمال الأقرب إلى العقل هو أن هناك حيلةً ما تُدبر. قال حلمي بيك وهو يناول الحاج أدهم السند:

"ابق متيقظاً ولا تجعله ينتزع الورقة منك... فذاك الولد لا أرتاح له كثيراً".

في المساء، وفي المقهى الذي أحال أنفاس الجالسين فيه زجاج نوافذه رطباً، استقبل يوسف الحاج أدهم الذي دخل وخلفه رجلان واقفاً. وعندما تناول منه السند، وعكس ما توقعوا منه بأن يمزقه أو يحاول الهرب، طواه ووضعه في جيبه، ثم أخرج من جيب المعطف كيساً جلدياً كبيراً بعض الشيء وبدأ يعد العملات الذهبية على الطاولة البيضاء أمامه.

وعندما أتم عد ثلاثمائة وعشرين ليرة بالتمام، ومن جديد، ودون أن ينظر إلى من أمامه أو يقول شيئاً خرج من الباب واختفى وسط المطر.

ترك من رأوا ذلك المنظر أماكنهم وتدافعوا للمشاهدة، وعلى أطراف شفاههم ابتساماتٍ ساخرة من الحاج أدهم، وبينما كان يجمع النقود في جيبه كانوا يلعقون شفاههم بنظراتٍ بلهاء.

فُتح باب المقهى من جديد ودخل منه هذه المرة شاكر. وعندما رآه المتجمعون حول الحاج أدهم تفرقوا وتركوهما وحدهما.

توجه شاكر إلى طاولةٍ قريبة من الباب، سحب مقعداً خشبياً بعصبيةٍ وجلس. وجلس الحاج أدهم إزاءه. في البداية لم يقل أي منهما شيئاً. تفحص شاكر داخل المقهى لبرهة، الصالون الواسع كان مزدحماً جداً. وفي طرف من أطرافه روميان يعبثان بشاربيهما الأبيضين الطويلين تُسمع ثرثرتهما الرومية من هنا. وأبعد منهما، قريباً من فرن المقهى كان أربعة أو خمسة من دلّالي الخيول قد بدأوا في شجارٍ صغير. والمصباح المتدلي من منتصف السقف يضيء رؤوس الزبائن، فتتموج القلنسوات وطرابيش اللباد وقبعات الصوف، وحوالي عشرين نوعاً من أغطية الرأس كأنها حديقة أزهارٍ يتلاعب بها النسيم. ويفصل بين الزبائن وفرن المقهى حاجز يتكون من أرفف خشبية

عليها نارجيلات مصفوفة، وعلى رؤوسها أطباقٌ نحاسية لماعة وخراطيمها القطيفية الحمراء تتدلى على جوانبها.

وعلى الجدران السمراء صور حسناوات أجنبيات ممتلئات، على رؤوسهن تيجانٌ وعلى نحورهن عقودٌ من الزينة واللؤلؤ، يتفرجن على حديقة الرؤوس البشرية المتحركة بصورةٍ دائمة. وعلى الجانب المقابل لوحتان ملونتان تصوران مشهدين من مسرحية شكسبير (عطيل) مرسومتان بتقنية الليثوغرافي كاللوحات الأخرى. أحدها كان يصور ياجو وهو ينحني ليلتقط منديل ديدمونة الذي أوقعته. وفي الثانية ديدمونة وهي نائمة على سريرٍ جميل وبجانبها زنجيٌّ غيور بلحية بيضاء رافعاً يده ليطعنها بالخنجر في رقبتها.

لكن شاكر الذي أمضى نصف عمره في هذه المقهى لم يكن ينظر إلى هذه الأشياء، لكنه كان ينظر حوله منتظراً الحاج أدهم ليباشر الكلام.

في النهاية عندما رأى صمته هو الآخر أيضاً أغمض عينيه وأشار قاصداً:
"ما الأخبار؟"

وكأنه كان ينتظر ذلك، قال الحاج أدهم فوراً:

"سيئة!"

"هل سدد الدين؟"

"بالتمام والكمال".

"ماذا سنفعل؟"

"لا أدري؟"

"ألم تفكر في حل؟"

"والله المسألة عويصة. رأسي يحترق منها في عز الشتاء. أعتقد أن علينا أن نأخذ فكرة إبعادها من هنا في الاعتبار، خطفها؟"

لمعت عينا شاكر وانحنى إليه:

"وأبي؟ أتعتقد أنه سيرضى بهذا العمل؟"

حدجه الحاج أدهم بنظرة تقول: أأنت جاد؟

"لو أراد... وإلا سندخل ثلاثتنا السجن".

لم يعد شاكر ينصت إليه. فقد استغرق في التفكير في شيء. ثم سأل بهدوء:

"أنستطيع أن نفعلها الآن؟"

"ليس بالسهل... إلى أين سنأخذها؟"

قطع شاكر كلمته وقال:

"إلى مصيفنا. أنا آخذها..."

قال الحاج أدهم بضيق وهو ينظر إليه بنظرات جانبية:

"وماذا نفعل بأمها؟"

لم يفهم شاكر ما قاله أدهم:

"أمها؟ لتبق في بيتها... ما دخلي؟ لا يهمني إلا بنتها!"

قال الحاج أدهم بوجه ممتعض:

"من تقصد أنت، بحق الله؟!"

"ابنة القائمقام..."

أنزل الحاج أدهم ساقه التي كان يجلس عليها وأشار بيده كأنه يقذف بشيء ما:

"دعك من ذلك بحق الله يا شاكر بيك... أنت دائماً لا تهتم إلا بمزاجك ومتعتك. كنت أعتقد أننا نقصد الأخرى، أكان اسمها كبرى أم ماذا؟ أنت تسعى خلف الحب. لو لم ننظف فعلتنا الأخرى فستحيق بنا كل أنواع البلاء. حتى القائمقام هذا، عندما يجد نفسه حراً سيستخدم نفوذه ضدنا. أتستطيع أن تتحمل أن تُفضح في البلدة؟ أتستطيع تحمل المهانة فيها؟"

"ألم ترتب الأمر كله أنت؟!"

"أنت لا تدري عن شيء أبداً يا شاكر بيك... هل سملوا عينيك أم ماذا؟ الموضوع الذي أخبرتني بأنه مرتب تماماً كنت على وشك أن أدخل بسببه السجن قبلك. فبينما كنا على وشك إيقاع يوسف بهذه المصيبة خرجت لنا ابنة العاهرة، وفضحت كل شيء. وأخبرتهم عن الطعنة. لنرَ ماذا سيحدث. كان أملي كله معلقاً بهذا الدين، لكن بعد أن سدده فما الذي سيخيفه منا؟ هذا

الولد المطرق إلى الأرض، يوسف، سيدفع ثمن فعلته يوماً ما بالتأكيد. كل المصائب تخرج من تحت رأسه. من أين له بثلاثمائة وعشرين ليرة.. لا أعرف، أتقول بأنه قطع طريقاً؟"

نظر إليه شاكر بنظرة لا تحمل أي تعبير:

"حسناً، ماذا سيحدث بشأن معزز؟ ماذا سنفعل في موضوعها؟" قال.

قام الحاج أدهم من مكانه. وشاكر نهض أيضاً. ومشيا تجاه الباب. كان المطر قد خف هطوله بالخارج. وعند افتراقهما أمام الباب قال الحاج أدهم:

"لقد أعمى عينيك الثأر يا بيك... رأيي أن تذهب إلى إزمير وترفه عن نفسك!"

2

لم يتدبر يوسف أمر الثلاثمائة وعشرين ليرة بقطع الطريق.

ففي اليوم التي أخبرته فيه كبرى بما مرت به، خرج يوسف في العصر وذهب إلى دكان علي، ابن شريف آغا. وبمجرد دخوله هرع إليه علي:

"يا إلهي! ماذا حدث لك يا يوسف؟" سأله.

يوسف، وباهتياجٍ لم يُر عليه قبلها قط، جلس على أحد شوالات الفاصوليا، وبعد أن رمق علياً بنظرات فاحصة لمدة طويلة، سأل وكأنه يبكي:

"أي نوع من البشر أنتم؟"

كأن كل تساؤلاته واعتراضاته التي كان سببها عدم فهم ما يدور حوله تجمعت في كلمات هذا السؤال. ذهل علي وتمتم:

"ماذا حدث يا يوسف؟!"

حينها دخل زبونٌ إلى الدكان وطلب من علي أن يعطيه أرزاً من نوع توسيا. عندما عاد علي إلى جانب يوسف بعد أن خدم الزبون وجده قد استجمع السيطرة على نفسه. أضحت في شفتيه تلك الابتسامة اللامكترثة التي تمنح إحساساً بأنه يعرف كل شيء. كانت هذه الابتسامة التي لم يكن يفهمها قط، ولم يستطع أن يجعلها تتناغم مع أحاسيسه، التي يرفعها بينه وبين الناس كجدارٍ فولاذي رغم أنه لا يريدها، آخر حلٍ يلجأ إليه. كان يظن بأنه لا يستطيع أن يقي نفسه من جريان سيل هذه المدينة المخيف إلا بالجدار البارد الذي بناه حول نفسه. كان عليه أن يخفي حكاية كبرى وانعكاساتها التي سقطت على روحه كقذيفة مدفع وجعلتها ممزقة مبعثرة داخل هذا الجدار. فماذا كان بوسعه أن يفعل لو لم يخفها؟ سيكون بين لغته ولغة الناس الذين يعيش بينهم فرقٌ على كل حال، فلن يفهموا شيئاً من كلمات يوسف، وسيبقى هو مع الحكاية وحيداً. ثم إن على الإنسان أن يتحدث عن الأشياء التي يفهم كل تفاصيلها، لكن في الواقع فإن يوسف ما يزال لا يفهم سبب وكيفية حدوث الكثير من الأشياء، وربما يحس بشكلٍ مبهم بأنه لن يفهمها حتى نهاية عمره. لذلك وفي هذه اللحظة، أشد لحظات عمره عذاباً وعصفاً، عاد إلى سكونه من جديد وأخبر علياً بما سمعه فقط.

أصغى إليه علي حتى النهاية بلا سؤال. وحين قارب يوسف على إنهاء

الحكاية اصطبغ وجه علي بالحمرة القانية.

صمتنا لبرهة. ثم قال علي:

"لم أفكر أن الأمور قد تصل إلى هذا الحد، يبدوا أنهم أرذل وأحقر مما كنت أظنهم. معنى هذا أن القصد من وراء إثقال أبيك بالدين هو هذا. ولو خرجت رائحة شاكر من مكان ما فسيحاولون التكتم والتستر عليه بواسطة القائمقام على كل حال... بهذه الطريقة يريد شاكر أن يسيطر على معزز..."

"لا خير يرجى من أبي بعد الآن... فهو لا يعرف ماذا يفعل..."

لم يتحمل علي بعد أن تردد لمدة، فسأل:

"وهل تعرف معزز بما حكيته لي؟"

"لا أعلم... من أين ستعرف؟"

"أتريد الذهاب إلى شاكر؟"

"وماذا تعرف هي؟ وهل عقلها يفكر بعد؟"

برقت عينا علي:

"طبعاً يفكر! لو أنها عرفت كم هو سافل شاكر هذا فستنسى اسمه حتى، أليس كذلك؟"

لم يفهم يوسف إلى أين يسير علي بالمحادثة هذه، هز كتفيه فقط.

كان علي يريد أن يقول شيئاً، لكنه لا يستطيع. فتح فمه لأكثر من مرة، ثم سكت من جديد. ويوسف كان ينتظر شارداً. ثم قال وهو يبتسم:

"قل إنهم أرادوا أن يدخلوني في هذه المشكلة أيضاً.."

"أي مشكلة؟ أها، مسألة السكين هذه أليس كذلك؟ .. عار على تلك الفتاة، أي نوع من الفتيات هي، لم أر مثلها".

"لا تسل... المرء لا ينظر حتى... لكن بها خطب ما. فلن تبق هكذا، من المؤكد أنها ستفعل شيئاً... ففي كل مرة أراها في البيت يرتعد جسدي خوفاً..."

قال علي ليعود إلى الموضوع الذي يدور في خلده:

"على أبيك أن يسدد الدين على أية حال".

انتبه يوسف بعد عدة ثوان وقال:

"كيف يدفع؟ بماذا سيدفع؟"

عندها قال عليٌ بجرأة فاجأته حتى هو نفسه:

"أنا أعطيه..."

قال يوسف بتروّ وهو يدقق النظر في علي أمامه:

"أتريد معزز لك أنت؟"

احمر وجه علي مجدداً ونظر أمامه. نهض يوسف من مكانه وضربه على كتفه:

"لم أسأل إلا لأنني تعلمت أنه لا أحد في هذه الدنيا يقدم معروفاً دون مقابل، لماذا غضبت؟ أنا أرى أن هذا مناسب. سأفتح الموضوع مع أبي الليلة... سيرضى على كل حال... لكن كيف لك أن تقنع أباك وتأخذ منه كل هذا المبلغ؟"

قال علي: "لا تشغل بالك". وقبل أن يفترقا عند باب الدكان دنى من يوسف وهمس له:

"جدتنا قالبٌ من الذهب، وهي لا ترد لي كلمة، لن يعرف أبي بشيء بتاتاً".

في الحقيقة، فإن جدة علي كانت من شخصيات إدرميت المشهورة. مع أن زوجها توفي وهي في شبابها وترك لها طفلة صغيرة إلا أنها نجحت في إدارة الأملاك والثروة التي تركها لها أبوها وزوجها وحدها، تنتعل أحذيتهم وتدور على مزارع الزيتون، وتبيع زيت الزيتون لإسطنبول وإزمير، في النهاية زوجت ابنها لشابٍ شديد الفقر اسمه شريف أفندي، وهو أبو علي، بعد أن زوجتها إياه تركت كل شيء لتعتني براحة نفسها. أصبح بعدها زوج ابنتها وحفيدها هما من يديران أملاكها. لكن يُقال إن غنيمة هانم - وكان هذا اسمها - كانت تخبئ صندوقاً صغيراً أخضر مصنوعاً من خشب البلوط ممتلئاً بالليرات الذهبية، لا تبتعد عنه أبداً، كانت تقول عنها "هذه مصاريف كفني، تكاليف جنازتي هنا!". كانت عندما يتزوج أحد الأقارب أو يختن أحد الأولاد، تعطيهم عيناتٍ من ثروتها التي لم يرها أحد، فتبعث لهم بقرطي

ألماس أو عقدٍ من اللؤلؤ، وأحياناً خرزة زرقاء مكتوبٌ عليها "ما شاء الله"، وبذلك تظهر نفسها لهم.

كان لجدته المداومة على الجلوس على سجادة الصلاة في الدور السفلي ذي السقف المنخفض لمنزلهم، المسبّحة بيديها المخضبتين بالحناء، المحافظة على صيام الثلاثة أشهر[1]، والمصلية في اليوم عدداً لا يعرف من ركعات النوافل، التي لا تكشف شعرها حتى لزوج ابنتها، نقطةَ ضعف في مواجهة علي. ورغم أنها قالت له عندما ذهب إليها علي وحكى لها همه: "اذهب يا ولد، فمن أين لي كل هذا المبلغ؟!" فإنها ذهبت إلى غرفته بعد أن صلت العشاء بكل هدوء وقالت: "خذ، ولا تخبر أباك عن شيء!" وتركت على فراشه الأرضي كيس نقودٍ ممتلئ.

علي الذي كان وقتها في الطرف الآخر من الغرفة جالساً على ركبته أمام المقرأة يراجع دفتر الحسابات. حين رأى جدته ترك قلم الرصاص وركض ناحيتها ليحتضنها، لكن العجوز أشارت له أن اهدأ، وكما دخلت إلى الغرفة، خرجت بخطواتٍ هادئة وهي تجر أطراف تنورتها الطويلة فوق عتبة الباب.

تحرى علي طلوع الصبح بصبر نافد، وانتظر يوسفَ حتى احمرار الشفق. ومع مرور الوقت كان أمله يتحطم أكثر، وهو يذرع دكانه ذهاباً وإياباً. وبين وهلةٍ وأخرى كان يمد رأسه من باب الدكان وينظر إلى الطريق، ثم يعود إلى دفتر الديون ليشغل نفسه بعض الشيء. في تلك الأثناء كان عقله يجول في أماكن أخرى، أو يرى نفسه وهو يرقص الدبكة مع أصدقائه في يوم عرسه. ثم يتذكر بغتة عدم مجيء يوسف، فينقبض صدره، والاحتمالات المنفية

1- رجب شعبان ورمضان.

والمثبتة تلاحق بعضها فيما يشبه الأمواج داخل رأسه.

وبسبب شروده هذا، كاد في أكثر من مرة أن يملأ للزبائن قناني الخل بزيت الغاز. وحتى حلول المساء نسي في خمس أو ست مرات بأن يدون الحسابات في دفتر الدين، وفي عدة مرات أدمعت عيناه نتيجة لبعض أفكاره، دموع تارة حلوة، وتارة مرّة...

وعندما حل الظلام راح يقفل دكانه في قنوطٍ وإنهاكٍ شديدين. أنزل السياج الخشبي وأقفله ثم مشى في طريق البيت بخطواتٍ ثقيلة.

وعند مروره من أمام جامع منطقة بايرام يري سمع صوت الإمام وهو يصلي بالناس على عجل. كانت جلبة المصلين وهم يسجدون ويقومون من السجود تسمع من الخارج.

وبعد المشي لمسافة أطول ظهر له المنزل المدهون بالجص نيلي اللون. من فوق سور حديقته كانت شجرة تينٍ كثيفة تتدلى أغصانها إلى الشارع. بعد أن دخل واغتسل عند المضخة، ومن دون أن يأكل، صعد إلى غرفته في الدور الثاني، وتمدد على مرتبته المغطاة بشرشف أبيض ورأسه على المخدة، وعاد إلى التفكير.

كان يقول لنفسه: لن يعطوا ابنتهم لبقّال على كل حال. ظننا أن لنا قيمة لمجرد أن حالنا ميسورة... هذا قائمقام عالي المقام..

نهض إلى المكتب وتناول من كومة الكتب الضخمة كتاباً. كان أحد كتب الصف الرابع في المدرسة. بين حينٍ وآخر، وفي الأماسي، كان يتناول كتاب رياضيات أحياناً، وكتاب تاريخ أحياناً أخرى، ويعيد قراءة أقسامٍ قرأها

من قبل أكثر من خمسين مرة. لم يكن يعرف أن في هذه الدنيا ما يُقرأ غير كتب المدرسة. كان يجد كتاب المحمدية الذي كانت جدته تقرأه مع عجائز أخريات ويتباكين وهن يقرأنه مملاً، والروايات المترجمة المطبوعة بصفحاتٍ ذات أعمدة مزدوجة والموجودة بكثرة عند ابن رئيس الشعبة وصفي عصية على الفهم. لذلك كانت كتب المدرسة تلبي حاجته للقراءة.

لكن الأجزاء التي كان يريد مطالعتها من جديد جعلته يمل منها، فجلس على فراشه ومكث ينظر من النافذة ذات القضبان إلى الخارج.

استيقظت في داخله آمالٌ لذيذةٌ من جديد. تخيل معزز وهي تفتح باب الغرفة وتدخل بهدوء وبيدها صينية أحضرت له فيها القهوة. فغمرت ابتسامة واسعة وجهه. جلست الفتاة اليافعة مقابله ثم أخذا يتحدثان بحلاوة في أمورٍ تخص حفل زواجهما، وقناني زيت الزيتون، والدكان الذي سيفتتحه في منطقة السوق السفلية.

في الصباح، كان عندما استيقظ على طرف فراشه ورقبته تؤلمه بعض الشيء ما زال يعيش الأحاسيس اللذيذة التي نام عليها. لكنه عاد إلى الواقع متأخراً فاعتدل جالساً.

عقب إفطاره الذي كان يتكون من خبز غمسه في زيت الزيتون وربع إناء من الدبس شربه، تناول مفتاح الدكان من على الجدار وخرج إلى الشارع. أمسى الآن يحاول طرد تلك الآمال الواهمة من رأسه، ولكي يلهي نفسه فكر بزيارة عم له يسكن في قرية في نواحي كازداغ.

لكن قلبه انشرح فجأة وأصبح كأنه يضرب على جدران صدره. فبينما هو

يمشي في الطريق، رأى يوسف قادماً من ناصيته. فتوقف في منتصف الطريق وراح ينظر إليه بنظراتٍ متضرعة.

وعندما وصل يوسف إليه وضع يده على كتفه كعادته، كان وجهه مبتسماً، لكن في تلك الابتسامة قليلاً من الاستخفاف بمن أمامه:

"أبي موافق تقريباً" قال. "لكن أمي تعارض بعض الشيء."

لم يقل علي شيئاً، كانت نظراته السائلة معلقةً على يوسف وكأنه لم يسمع ما قاله. ضحك يوسف قائلاً:

"ماذا يا رجل، سنزوجك معزز كما ترى... وهل هناك حلٌ آخر؟"

لم يلحظ علي السخرية والاستحقار في هذه الجملة. فقال بصوتٍ متقطع:

"وماذا تقول معزز؟"

"لا تعلم شيئاً بعد. ستفاتحها أمها في الموضوع اليوم".

ثم أشار بحركة ليقطع هذه المحادثة الدائرة في وسط الشارع، رفع رأسه عالياً وقال من بين أسنانه بسرعة:

"هيا، أعطني النقود!"

لو كان علي وقتها يملك زمام نفسه، لو تفحص حال يوسف لتعجب بالتأكيد، بل ربما تأثر أيضاً. لم يكن يقول "هيا، أعطني النقود!" كصديق، أو حتى كغريب بشكل اعتيادي، بل كان كأنه يبصقها بصقاً. لكن علياً لم يكن

منتبها. كان يسبح في أحاسيس مختلطة، وربما حلوة. أدخل يده وهو شاردٌ في جيب بنطاله وأخرج كيس نقودٍ ثقيل ناوله ليوسف. تناوله يوسف بقبضة كفه بسرعة كما يتناول حجراً من الأرض وقال رافعاً حاجبيه:

"تم البيع، أليس كذلك؟" ثم ابتعد بخطوات عجولة كأنه يجري.

3

في مساء هذا اليوم، سلم يوسف إلى الحاج أدهم ثلاثمائة وعشرين ليرة في المقهى وأخذ منه السند. وبعد خروجه من المقهى تجول في الشوارع تحت المطر. كان حذاؤه الطويل يغوص حتى كعبه في الطين، وحين يرفع قدمه يملأ الماء الموحل الحفرة.

صادف في الطرق الضيقة نساء عائدات من بيوت جاراتهن وبعض السكارى. وشيئاً فشيئاً وصل إلى حدود البلدة بالغاً طرف منطقة بويوكشاي. هنا يوجد جسرٌ خشبي يتخطى جدول ماء، تمر من فوقه العربات الذاهبة إلى منطقة قمر وهاوران. وعلى طرفي الجسر أشجار دلبٍ عملاقة. ولاشتداد هطول المطر الذي كان خفيفاً احتمى يوسف بظل إحدى الأشجار. كان الجسر يستند في طرفيه على أرصفة خشبية يمر الماء الموحل من أمامها مرغياً ومحدثاً دوامةً وأصوات خرير. القمر المستتر بالغيوم كان ينشر قليلاً من الضياء، وقطرات المطر الكبيرة تتساقط على الجدول محدثة تموجاتٍ تتلاشى بسرعة.

أسند يوسف ظهره إلى جذع شجرة دلبٍ كبيرة، وراح يتأمل بنظره في

أعماق الليل. الأشجار التي كانت على الجهة الأخرى من الجدول، والطريق الموحل والممتلئ ببرك الماء الصغيرة اللامعة والممتد حتى المدينة، والغيوم التي كانت تارةً تنخفض وتتكثف، وتارةً ترتفع وتتباعد، كلها كانت تبدو كأنها اختلطت وضاعت وسط بعضها. كأنه لم يعد شيء في الطبيعة مستقل بحاله في تلك اللحظة. شعر يوسف بنفسه ذائباً في تلك الليلة العظيمة المكتملة، وأحس برعدة تسري في جسده من الخوف. مرر يديه المبتلتين على وجهه. كان ماء المطر ينزل من رأسه ماراً برموش عينيه إلى خديه. أعطته تصرفاته التي فعلها شعوراً بعدم الانتماء لأي مكان. حتى أنه بدأ يستشعر حجم المسافة التي تفصله وتبعده عما حوله. ومع تأمله فيما حوله، كان كأنه يشعر بالأشجار والغيوم تبتعد بسرعة عن مجرى الماء. والضوء الأصفر الخفيف الذي كان يضيء بعض نوافذ بيوت البلدة يبرق في عينيه ويتموج كصفحة ماء. ضم بكلتي يديه لحاء الشجرة خلفه. ودخلت أصابعه الباردة في شقوقها. سحب يديه فجأة ووضعهما على صدره. أحس بأن في قلبه شقوقاً كما في لحاء الشجرة، وشعر بالنار تشتعل في نحره. يا الله، كم كان وحيداً...

لكن النجوم التي في السماء كانت وحيدة في هذه الليلة بقدر بقايا أوراق الشاي في قعر الفنجان، وبقدر السحب المنفصلة والقادمة من الشرق والممتدة على طول البحر في الغرب. أينما ساق أفكاره استرسلت، فلم يكن يظهر له أحد. في تلك اللحظة كان متأكداً بأن أحداً لا يفكر فيه في هذه الدنيا الواسعة، وبفتوةٍ مرّة كان يرى بأنه لا يستحق التفكير فيه؛ لكنه كان بسبب ذلك يشعر بحزنٍ لا يفهمه تماماً. هل يا ترى كان محقاً في أنه لا يوجد أحدٌ يفكر فيه، وهل كان محقاً في عدم التفكير بأحدٍ والشعور بالوحدة؟ ساعد هذا الاحتمال في إرخاء أعصابه المتوترة قليلاً. نهض عن جذع الشجرة، وبعد أن أخذ نفساً عميقاً، بدأ بالمشي في اتجاه البلدة.

***

عند وصوله إلى المنزل فتح الباب بالمفتاح الذي كان في جيبه. وقتها كانت كبرى وأمها، اللتان تعتنيان بأمور غرفة المؤونة والصناديق وغرفة الضيوف، نائمتين عند مدخل المنزل. تناولت المرأة التي رأت يوسف داخلاً القنديل من إحدى درجات السلم الصاعد إلى الأعلى، وزادت من شدة توهج الفتيل. أشار لها يوسف بيده أن لا حاجة إلى ذلك وأنه يريد الصعود بهدوء فقط، لكنه لاحظ وهو يمر بالفرش المفروشة على الحصير عينيّ كبرى الواسعتين تنظران إليه. قال متناولاً القنديل من يد المرأة:

"ألم تناما بعد؟"

"ننتظر الهانم..."

"وأين الهانم؟"

"أخذت أسماء، وذهبتا إلى بيت مدير التلغراف. سيأخذون آلة ويحتفلون. قالت إنها ستتأخر".

كانت أسماء روملية تخدم في البيت منذ زمن طويل، تعتني بالطبخ والنظارة.

سأل يوسف مجدداً:

"ألم يعد أبي بعد؟"

"لا لم يعد... لم يأت إلى طعام الغداء حتى!"

”ومعزز؟“

”الهانم الصغيرة في الأعلى... خلدت إلى النوم قبل قليل...“

صعد يوسف درجات السلم محدثاً جلبة وبيده القنديل. عند وصوله للدور العلوي توقف قليلاً، فكر أيأخذ القنديل معه إلى الغرفة أم يتركه هنا؟ قرر في النهاية تركه لعدم قدوم شاهيندة هانم بعد.

لكنه قال فجأة ”آآآ!“ ووجم مكانه. كان باب الغرفة المقابلة مفتوحاً ومعزز واقفة تنظر إليه.

في قدميها نعلان منزليان وترتدي بيجامة بيضاء مخيطة يدوياً. شعرها منسدل إلى الوراء على شكل ضفيرتين. على ثغرها ابتسامةٌ مرة ووجهها يبدو كأنها كانت تبكي.

قال يوسف بعدم اكتراث محاولاً ألا يظهر لها إحساسه الحقيقي:

”ما هذا يا بنت؟ ألم تنامي بعد؟“

”لقد كنت أنتظرك!“

”ما الأمر؟“

”هناك ما سأقوله لك“.

”هناك دائماً غد!“

"أردت أن أقوله لك الليلة هذه" ثم أردفت بعد تردد: "سأذهب إذا كنت لا تريد السماع".

أمسك يوسف القنديل باليد الأخرى وسحب أخته من ذراعها:

"تعالي لنر، لنجلس ونتكلم".

دخلا إلى غرفة يوسف المجاورة لغرفة معزز.

جلسا على تخت خشبي جنباً إلى جنب. سألت معزز مباشرةً وبلا مقدمات:

"يا أخي الكبير، بكم بعتموني؟"

ارتبك يوسف ونظر في وجهها.

كررت معزز سؤالها:

"بكم بعتني أنت، إذا أردنا أن نكون صريحين!"

"إلى ماذا ترمين؟"

"إلى ماذا؟ أخبرتني أمي اليوم بكل شيء... عن دين والدي و..."

"حسناً وماذا جرى؟ ماذا ينقص علياً؟ ألا يعجبك؟"

"الآن فكرتم أن تسألوني عن رأيي؟ ليست المسألة مسألة إعجابٍ بأحدٍ أو لا، لكنني لن أذهب إلى علي أو غيره، فلتعرفوا ذلك!"

قال يوسف بنبرةٍ ملائمة ونصف مازحة بعد أن رأى أن المحادثة أخذت منحاً وأسلوباً قاسياً، وأن بعض الذنب يقع عليه:

"أو أن قلبك تعلق بشاكر، أليس كذلك؟"

جفلت معزز في مكانها، واقشعرت يداها من البرودة رغم أن وجهها احمر غاية الاحمرار.

"لا تقل شيئاً مثل ذلك مرة أخرى يا أخي الكبير... لا تقل شيئاً من هذا القبيل..."

كانت يداها مقبوضتين وكل طرفٍ فيها يرتجف.

سأل يوسف شاعراً برعدةٍ خفيفة بداخله:

"حسناً، من تريدين إذاً؟"

لم تستطع معزز أن تضبط نفسها أكثر فانهمرت في البكاء. كانت تبكي مطأطئةً رأسها ودموعها تتقاطر الواحدة تلو الأخرى على صدرها. أمسك يوسف بذراعها وأجلسها على السرير مجدداً، ثم سألها بهدوء وصوت عذب:

"هيا أخبريني، من تريدين؟"

صرخت معزز ناظرة بعينيها الدامعتين إلى يوسف:

"لا أحد...ألا تفهم؟ لا أحد..."

ولم ترفع عينيها عن عيني يوسف لمدة طويلة. كان يوسف ينظر إليها أيضاً وعلى وجهه الذي يضربه ضوء القنديل المرتجف تحدث ارتعادات بين فينة وأخرى. مد يده برفقٍ ومسد على شعر الفتاة. عندها اعتدلت معزز وكأنها تنتظر هذه الإشارة، وضعت يديها في راحتي يوسف وقالت:

"أفهمت من أريد؟"

قال يوسف عاضاً على شفته السفلى وهازاً رأسه ببطء:

"فهمت!"

رأت معزز ولأول مرة في حياتها بريق الدموع في عيون يوسف البنية.

***

جلسا إلى جانب بعضهما مدة نصف ساعة دون أن يقولا شيئاً. كلاهما كان يرتعد من البرد، لكن لم يكن يجرؤ أحدهما على أن يتحرك. نهض يوسف أولاً وقال ملامساً كتف معزز:

"هيا.. اخلدي إلى النوم!"

وقفا وذهبا سويةً إلى غرفة معزز. بعد أن تمددت معزز في سريرها جلس يوسف عند رأسها. لم يتحدثا. غير أن الشاب كان بين حين وآخر يمد يده

ليعبث بشعرها المبعثر على السرير. لكنه كان يشك في أنها تشعر بحركاته التي كان يفعلها في غاية الرقة والهدوء.

بعد مدة قصيرة امتلأت الغرفة بأصوات التنفس المنتظم، عندها وقف يوسف محاولاً ألا يصدر أي جلبة، وخرج ماشياً على أطراف أصابعه.

كانت عيناه نصف مغمضتين، يظن أنه في حلم. لذلك لم يلاحظ عيني كبرى الواسعتين، وهي جالسة على آخر درجات السلم تتعقبه منذ خروجه من غرفة معزز حتى دخوله إلى غرفته.

توقف لمدةٍ في وسط الغرفة وانتظر. ولأن الجو كان غائماً لم ينتشر الضياء بعد، اتجه إلى المقعد بجانب النافذة وجلس. وراح يتفرج من النافذة. كانت السحب الخفيفة، المبيضة كالفضة والمسودة منها تطارد بعضها.

حدق يوسف فيها بنظراته وانتظر حتى الصباح على تلك الحال.

4

التقى الشابان اليافعان اللذان باتا على فراشيهما في غرفتين مختلفتين يفكران في الفتاة نفسها ببعضهما في اليوم التالي عند الظهيرة. ذهب يوسف إلى دكان علي. كان في غاية السكون، لم يكن على علمٍ بصعوبة المهمة التي جاء من أجلها. فقد كان يتحضر لأن ينهي المسألة كلها سريعاً بجملةٍ من نوع: البنت لم توافق، لقد تعقد موضوعك. وألا يعطي الكثير من التفاصيل. يعرف أن أول ما سيقوله علي هو: معنى هذا أنكم نصبتم علي؟ وبسبب تفكيره في

ذلك شعر بأن جسده كله يغرق في العرق. وعندما وصل إلى منطقة بايرام يري، إلى المنعطف السابق لدكان علي، توجه إلى المقهى المقابل وجلس بجوار الزجاج. كان المقهى فارغاً من زبائنه في ذلك الوقت. على مسافةٍ بسيطة منه كان هناك عجوزان متربعان على دكةٍ واسعةٍ مغطاة بالحصير، يديهما على ذقنيهما، يفكران ويلعبان الداما. ركز يوسف نظره على دكان علي. دخل إلى الدكان زبونان. وبينما هما خارجان لمح وجه عليٍّ للحظة عند الباب. توتر يوسف كأنما قابله وجهاً لوجه. فليس من السهل أن يذهب إلى الشاب الذي لم يكن يعرف شيئاً ويقول له: لقد أخذنا مالك لكننا لن نعطك البنت، لقد حبسناها عندنا! على كل حال، من الأكيد أن الكثير من صفات علي ما زالت طفولية. فهل سيتحمل مثل هذه الضربة كرجلٍ يا ترى؟ كان أكثرُ احتمالٍ يخيف يوسف هو ألا يصرخ علي ولا يتحرك، بل يبكي. ولعدم معرفته بماذا يفعل في تلك الحالة كان يهتز في مكانه بشدة. تذكر أيام الصيف التي كان يجلس فيها أمام الدكان الذي كانت درفاته نصف مغلقة لبرودة الجو مع علي الذي سيفعل بحقه بعد قليل أكبر جرم. تخيل وجه صديقه الوردي المكتنز وهو يرفع يديه في الهواء ليشرح شيئاً.

فجأة وثب من مكانه. فقد عرف بأنه لو انتظر أكثر من ذلك فسيعود من دون أن يفعل شيئاً. بينما هو مضطرٌ إلى حل هذا الموضوع اليوم. وإلا فإن القباحة التي فعلها لصديقه ستكبر مع الأيام. أفضل شيء هو الذهاب إليه، وإخباره بأن مراده لن يتحقق، وتقبل أي ردة فعل تصدر عنه بصفته صاحب الحق بصمت.

خرج من المقهى ومشى بخطواتٍ ثابتةٍ إلى الطرف الآخر من الميدان. ومع أن كل شيءٍ كان جافاً إلا أن خطواته كانت تتثاقل، كأنه يمشي في وحل

ثخين ويلتصق بالأرض. شعر بحلقه يجف تماماً.

وصل إلى أمام الدكان ورآه علي. فوثب من مقعد الحصير الذي كان بلا ظهر وهرع باتجاه يوسف، أمسك به من يديه وسحبه إلى داخل الدكان، ثم قال متعلقاً برقبته:

"يوسفي، يوسفي... سترى أي حفل زواج سأقيم... أمي فرحت جداً، وأبي لم يعترض... يا لها من دنيا جميلة!"

سحب يوسف يديه من يدي علي وراح ينظر إليه، وشعر بغتةً بأن داخله مضطربٌ تماماً. فقد حصل ما كان يخشاه. علي يبكي. تتحدر الدموع على وجنتيه الورديتين الشبيهتين بالسفرجل المزغب، وخلف هذه الدموع كان يحاول الابتسام. اقترب من يوسف، جلسا على شوال أرز مطروح على جنبه. قال علي ماسحاً دموعه بظهر يده:

"معزز أصبحت تعرف أيضاً، أليس كذلك؟"

"نعم!"

"ماذا تقول، أخبرني يا يوسف بحق الله... من يعرف، ربما لم أعجبها... لكن أخبرني يا يوسف، هل أنا رجلٌ سيء؟ هل أنا مثل شاكر؟... معزز لا ترد لك كلمة يا يوسف! حدثها عني... أنت من دبرت هذا العمل، فأنجزه حتى النهاية. اسمع، سأخبرك بالصراحة، منذ كنا صغاراً نذهب إلى نبع شنار ونزهات الأعياد سوية وأنا أشعر بداخلي أشياء من هذا القبيل، لكن عقلي لم يكن يتقبل إمكانية تحقق ذلك. لكن بفضلك أصبح عندي أمل. أقول لك هذا حالفاً برأس أمي يا يوسف، فأنت لم تعد مجرد صديق، بل أكثر من أبي

وأخي منزلةً..."

وضع يده على كتفه مجدداً. كان يرتجف من سعادته:

"غداً أو بعد غد ستذهب أمي لتطلب يدها، وسيتباحثون أمر الخطوبة والزواج... أنا لن أتدخل في أي منها، لكن قلت لك، سأجهز عرساً تتحدث عنه إدرميت أربعين سنة".

ثم خطر على باله فجأة:

"ياهو، ألم يصلك الخبر؟ الحاج رفعت وإحسان أيضاً سيتزوجان، حفلتا زواجهما ستكون بعد أسبوعين. سيتزوجان من قرية جوروك. سيحضّران حفلاً مدهشاً!"

رن في أذن يوسف شيء من هذا القبيل. فهز رأسه متذكراً. قال علي ضاحكاً:

"ليتزوجا ونرى حفلهما، ثم نريهم حفلنا نحن..."

وقف يوسف على قدميه... فأمسك به علي من ذراعه قائلاً: "ما هذا، أأنت ذاهب؟" وأتبع "حسناً اذهب لكن لا تنس أن تتحدث مع معزز بشأني... افعل كل ما بوسعك، حنن قلبها علي!!"

قال يوسف بعد تفكير:

"حسناً" وتوجه إلى البيت.

***

كيف قُدّر أن تستحيل أحلى ليالي عمره إلى أرهبها؟ ما هذه المآزق التي لا يستطيع الفكاك منها؟ ما تلك الأحاسيس والأحزان التي تنبع من لذة النظر إلى السماء الزرقاء أو إلى وجه محبوب؟ لم يكن يوسف معتاداً على كل ذلك. كان وضعه يضايقه جداً إلى درجة أنه كان يشعر برغبةٍ في أن يتخبط كما لو كان محبوساً داخل قفصٍ طوله وعرضه ذراع واحد.

أصبح حس السعادة الذي كان موجوداً في أعماق قلبه ظاهراً له لكن الوصول إليه غير ممكن، وطمعه أصبح يتضاعف أكثر.

لم يبد له في هذه الحياة أي شيء ثميناً، ولم تراوده رغبة الركض خلفه، أو الوصول إليه، أو تملكه. فلطالما نظر إلى ما حوله دائماً بعيني الغريب، ولم يشعر برغبة الارتباط بأي مكان، وفي وسط كبرياء هذه الوحدة حاول أن يكون سعيداً. الآن ولأول مرة أصبح يريد شيئاً، بل ويريده بشدةٍ أيضاً. لكن لماذا ظهرت هذه الرغبة مع استحالتها؟ لماذا هو مضطرٌ إلى أن يقتل أكبر رغبة لديه، رغبةٍ كانت مستترةً في أعماق أعماقه؟ لماذا عليه تحطيمها في مكانها وقتلها عندما ظهرت.... لماذا؟ ومن أجل من؟

تذكر علياً فزم شفتيه بنصف شفقةٍ ونصف استخفاف. في تلك اللحظة وجد أن صديقه أبله وبسيط جداً. فحتى عهد قريب، لم يكن عقله يعرف شيئاً غير كتب الدراسة، ومنذ عدة سنواتٍ أيضاً لم يكن يفهم غير أسعار البطاطس وزيت الزيتون. رغم أنه أمضى سنواتٍ طويلةً من حياته معه، أدرك أنه لم يحبه إلى درجة أن يضحي من أجله بشيءٍ كبير. في الأصل فإن يوسف ومنذ سنوات لم يشعر في قلبه بمحبة أحد، كان يفهم أنه ولكي يشعر

بحب أحد ما فعليه أن يثير إعجابه أولاً. كيف كان له أن يحب أناساً لم يشعر في قلبه باحترام وتقديرٍ لهم، بل ينظر إليهم من علو؟ إذا كان يحب صلاح الدين بيك بعض الشيء فسبب ذلك أنه مع عجزه الذي يثير غضب يوسف كثيراً، إلا أن له قلباً طيباً فوق العادة.

فصبر هذا الرجل وتحمله لشاهيندة السخيفة الثرثارة التي لا تعرف ما تصنع كان يوقع يوسف من دهشته من اليوم الأول.

لكن مشاعره تجاه معزز كانت مختلفةً تماماً. لا يفكر فيها كمخلوق منفصل، كإنسانٍ غريب عنه أو ما شابه، بل يعتبرها قطعةً منه؛ يتصورها عينه وقلبه. موضوع البحث هنا لم يكن الإعجاب أو عدم الإعجاب، الحب أو عدمه، الإكبار أو الاستصغار؛ لأن مثل هذه الأشياء لم تكن تخطر بعقله حتى. فالحس المستيقظ في داخل يوسف، والذي كان يشعر به في أعماقه، تحول إلى مرارة وألم مقابل احتمالية انفصالها عنه.

لكن سلسلة الأحداث التي ظهرت متدحرجة خلف بعضها بسرعة لا يمكن معها إيقافها كانت تريد أن تجعله يفعل أشياء غير متوقعة أبداً. يوسف، ورغم كل حملات العصيان والتمرد التي تغلي في داخله، كان يعرف أنه سيرضخ، وأن لا خبرته ولا قوته ستساعدانه.

كان كل هذا يمر في رأسه كشريط أفكار، وهو متمدد على فراشه ويداه متشابكتان خلف رقبته يطالع سقف الغرفة، وبينما هو على هذه الحال فُتح الباب مصدراً صريراً خفيفاً. فاعتدل يوسف في جلسته على الفور. وحين رأى أن الداخل كانت معزز وثب من مكانه ومشى إليها.

بدأ قلب معزز بالخفقان بسرعة كأنه سينفجر. لكن يوسف بدلاً من أن يحضنها ويقبل وجهها وعينيها مر من جانبها إلى الباب، وهناك أدار ظهره وقال للفتاة التي كانت تنظر إليه بتعجب:

"أنا خارج، عندي عملٌ عاجل".

"يوسف!"

"غداً أو بعد غد ستأتي أم علي لرؤيتك. لنركِ، أثبتي أنك ابنة القائمقام".

"يوسف!"

"ولا تلقي بالاً لما تقوله أمي كثيراً. فعلي ليس بالولد السيء. عنده المال والأملاك. وهو ذو خلق حسن..."

أثناء تلفظه بالكلمات الأخيرة بدت على وجهه ابتسامةٌ سامة. تراجعت معزز التي لاحظت ذلك خطوةً إلى الوراء، وفتحت فاها لكي تقول شيئاً، لكنها لم تستطع. وحاولت عدة مرات أخرى، لكن أصواتاً غير مفهومة خرجت من جوفها. مع أنها كانت تظن أنها تقول شيئاً، لكن كلماتها كانت تحتبس في فمها ولا تخرج.

كان الدم يندفع إلى رأس يوسف بعنف، بأسلوبه المعتاد متحكماً في نفسه، لكن بحميمية أكبر، اقترب من معزز وقال:

"اسكتي يا بنتي، هذا ما يجب أن يكون".

5

مر أسبوعان منذ آخر وقائع حكيناها، وفي ظرف تلك المدة لم يكن يوسف يمر بالبيت كثيراً، وكان يقضي أغلب وقته في مزارع الزيتون. يعود بعد انتصاف الليل، ويخرج مع الشفق. كان بيّناً أنه يحاول تفادي لقاء معزز. فقبل مدةٍ جاءت أم علي لرؤية معزز، وكان الجواب عليها: سنفكر في الموضوع. كان معلوماً أن تلك كنايةٌ عن الموافقة. فالاتفاق يعتبر مبرماً. والطرفان يمطان ويكثران من الأسئلة حتى يبدو أنهم اتخذوا القرار بعد تفكير طويل، ولا يتزاورون إلا بين حينٍ وآخر. لكن تحضيرات الخطبة كانت قد بدأت في بيت علي، حتى الغطاء المطلي بالأحمر (منقوع في غاز الفانوس لتثبيت اللون) لصينية البقلاوة الذي يُعتبر إرساله عادةً قد حُضّر جانباً.

وصلاح الدين بيك الذي أبدى رخاوةً مقابل دفع الثلاثمائة وعشرين ليرة، كان كأنما قد قطع علاقته بكل شيء. وسبب ذلك هو الانتقام من ألم الأيام التي كان يغرقه الهم فيها حتى الصباح، كان يحاول الحفاظ على ذهنه خالياً بصورةٍ مطلقة، ويجيب عن أبسط الأسئلة التي يُواجَه بها في البيت بهز كتفيه.

أما شاهيندة هانم فقد كانت لا تزال في جولاتها تثرثر من جارة إلى جارة، تصنع "عوالمها" وتعيش كيفها. ورغم برود علاقتهم بهم، إلا أنها ما زالت تزور آل حلمي بيك، لكنها لم تكن تخبر أحداً أنهم قد أعطوا "كلمةً" لأحدهم بشأن معزز. لكن في مناسباتٍ أخرى كان تقول: لم نتخذ قراراً بعد، لكن لا أعلم... يقولون إن العريس واسع الثراء... وإن أخلاقه كأخلاق ملاك!" غير مترددة في مدحه واصفة إياه بالعريس، كأنها تحاول إفهامهم أن الموضوع لم يعد في بداياته.

لكن لأنها لم تكن قادرةً على فعلٍ أي شيء بنفسها، ولأن صلاح الدين بيك ويوسف سارحان في عوالمهما الخاصة لم يحدث أي تجهيز للخطبة.

أما معزز التي كانت أكثرهم تضايقاً من هذا الوضع، لا تعلم ماذا جرى وماذا يجري، كل صباحٍ ومساء تجد يوسف وحده وتقرر أن تكلمه، لكن أحياناً ترددها، وأحياناً أخرى عودة يوسف منهكاً ودخوله إلى فراشه فوراً يمنعانها عن ذلك. في عدة مراتٍ لم يكن فيها أبوها أو أمها موجودين في البيت، انتظرت قدوم يوسف حتى وقتٍ متأخر، وفور عودته كانت تقف أمامه ولا تكاد تبدأ بقول:

"أخي يوسف..." حتى يقطع كلامها قائلاً:

"ألم تخلدي للنوم بعد يا معزز؟ أتخرجين في هذا الشتاء بهذه الملابس الخفيفة إلى غرفة الجلوس؟ هيا إلى الفراش، أنا أيضاً متعب جداً اليوم، سأنام فوراً!"

ذهبت الفتاة الشابة إلى غرفتها من دون أن تجيبه. معزز التي كانت في البداية تشعر تجاه يوسف بغيظٍ مكتوم وحدةٍ شديدة، ثم تحول كل ذلك إلى شعور بالحزن والتأثر، بدأت في الأخير بالخوف من حال يوسف. فأخوها الكبير لن يكون ساكناً كما يبدو الآن. في مساء أحد الأيام وبينما كان يغرقها بكلماته الحادة ليقطع المحادثة مد يده ومسد على خدها، فلاحظت معزز أن يده ترتعش كأنه محموم. في بعض الأحيان كان ينصت إليها من دون أن يقطع كلامها لمدة عشر دقائق وأكثر، وتشتعل في عينيه أضواء تفهّم ومشاركة لنفس الشعور، لكنها بمجرد أن تنهي كلامها كان وكأنه لم يسمع شيئاً، كما لو أنه استيقظ من حلم، يرد عليها بكلماتٍ باردة جافة بلا معنى ويبتعد في

الحال.

كانت معزز مع رؤيتها لأحواله تلك تزداد تعاسة. ولقضائها معظم يومها في البيت وحيدة فقد اعتادت على الحديث مع نفسها. تبكي أحياناً ثم تبتسم ابتسامة خفيفة أحياناً أخرى.

كبرى وأمها كانتا في البيت كشبحين. تختفيان في الأوقات التي لا تكون فيها حاجةٌ لهما، وعندما يحتاج إليهما أحد تظهران فجأة. كانتا مثل صلاح الدين بيك تبدوان وكأنهما غارقتان في حلمٍ ليريح أعصابهما الساهرة لأكثر من اللازم.

مع أن كبرى كانت قد استعادت نشاطها وصحتها بعض الشيء، إلا أن وجهها ما زال محافظاً على شحوبة المرض. في عدة مرات، كانت تصعد في النهار إلى الدور الثاني إلى جانب معزز تريد التحدث بكلمتين مع الوحيدة النائمة على وجهها في الفراش. لكنهما لم تكونا تجدان شيئاً تتحدثان به، فكان الأمر ينتهي بتبادل النظرات في صمتٍ متوتر.

من بعدها أصبحت معزز تتحاشى كبرى بقدر استطاعتها. ومع أنها لم تكن تعرف سبب ذلك، إلا أنها كانت تحمل في صدرها ما يشبه الحنق عليها. رغم أنها كانت أحوج ما تكون إلى إنسان، إلا أن كبرى لم تخطر على بالها ولو لمرة، وحتى عندما حاولت كبرى الجلوس معها لم تنشرح لها. لا داعي للانشراح، كانت وهما تتبادلان النظرات الصامتة كأنها تحس في عيني كبرى بريق من تريد أن تعضها. لو كان باستطاعتها لهربت من البيت في النهار، أو اختبأت في ركنٍ ما.

لتُطرح البركة، فهي مثل قريناتها من البنات المحبوسات في المنزل كحيواناتٍ أليفة، بل إن لتربية الحيوانات هدف على الأقل، أضحى لعقلها وجسدها قابلية الانتظار دون انشغال أو تفكير أو عمل شيء لساعات وأيام، بل ربما لشهور وسنوات، وعندما تحرق صدرها الأفكار وتنهكها ترتمي في حضن العدم المطلق.

6

غيرت صدفة، بل مصيبة إذا سمينا الأشياء بأسمائها، كل شيء فجأة.

كان الحاج رفعت وإحسان يحتفلان بعرسيهما منذ أسبوع. وفي مساء يوم أربعاء بلغت الاحتفالات والمباهج أوجها. كانت ساحة الدار الواقعة في حي يدعى شايشي ممتلئةً بالنساء، والساحة المقابلة للباب بالرجال.

جلست كل النساء المغطاة رؤوسهن بمناديل مطرزة مصطفاتٍ على أطراف الساحة، ومع بعض أهل البيت كان يجلس بعض الضيوف المقربين والأحباب على درجات السلم الصاعد إلى الأعلى وينظرون إلى الأسفل. ورغم برودة الجو القاسية، وربما بجرأة وهبهم إياها الربيع المقترب، أقاموا الاحتفال في الهواء الطلق. في وسط الساحة، كانت عدة نساء غجريات بأيديهن دفوف جرسية يضربن عليها إيقاعات رقصٍ ذات وتيرة سريعة. ونساء الحي الشابات وبناته كنّ يرقصن رقصات مخصوصة ببلدتهم ناظرات أمامهن وضاربات الأرض بخطواتٍ قصيرة بأحذيتهن ذوات الخيوط الصفراء.

كانت العروس تحمل بين فينة وأخرى طربوشاً مثقلاً بالذهب واللؤلؤ، وخلف قماش شفاف رقيق تدلّى شريطان أصفران من جانبي رأسها إلى صدرها. ولجلال هذا اليوم أجلسوها على كرسي خشبي. تتفحص ما حولها بعيونٍ مذهولة منتفخة من البكاء، لكن تنظر أمامها أكثر، من المحتمل أنها كانت تنتظر الدقيقة التي ينتهي فيها هذا العذاب. فستانها العنابي المزركش المصنوع من القطيفة ذو الأكمام الطويلة الساترة إلى يديها، ذو الأطراف المتراكمة طبقاتٍ على الأرض، يمنح وجهها لوناً وردياً. وشعاع المصباح الذي كان مشتعلاً في أحد أركان الساحة كان يلتمع على رموشها الرطبة بين حين وآخر. أمها الجالسة بجانبها كانت تمسح عينيها بشكل متكرر، وتتردد بين فينة وأخرى على أذنها لتهمس فيها شيئاً، وتتحدث مع النساء من أهل العريس.

في أكثر من مرة أنهضوا العروس لترقص أيضاً. ارتفعت أصوات دفوف الغجريات، وازدادت وتيرة إيقاعها، وبدأت الأغاني قصيرة الأبيات، المليئة بالمدلولات، بل وبالشهوات، تنسكب من أفواههن. عندما وقفت في المنتصف وجمت مذهولة كأنها لا تدري ماذا عليها أن تفعل، ثم وعلى مهل، بدأت تتحرك وكأنها تتحرر من حالة تجمد. وأطراف فستانها بعد أن تحركت إلى الأمام وإلى الخلف قليلاً فوق حجارة الساحة السوداء الكبيرة، بدأت بما يشبه دورات التطاير والتناثر في كل أرجاء المكان.

ورغم فستانها المخيط من القطيفة الثخينة، الملتمع تحت نور المصابيح بتفاصيله المطرزة بالذهب، فإن هزال الطفولة كان واضحاً عليها. ذراعاها المغطتان بالكمّين الطويلين لم تتحركا إلا قريباً من صدرها قليلاً، وأصابعها كانت تفرقع بصوت خفيف لا يكاد يسمع.

وشعرها المنسدل بانسياب خلف القماش الرقيق المتدلي من على رأسها إلى وسطها كان يتأرجح مع حركاتها، وعيناها النصف مغمضتين كانتا دائماً مطرقتين. والحزام الذهبي العريض المحيط بخصرها يظهر حركات وركها الخفيفة والمتناسقة ويرقص باللمعان. كل الرقص كان عبارة عن تحريك العروس لكل أطراف جسدها بلا تخصيص معين، لكن بتناسق وانسجام لم يُر مثله.

هزّت النساء المتراصات على أطراف الساحة رؤوسهن بسعادة، وكان الأطفال الجالسون القرفصاء بجانبهم يتابعون بتركيز، كأنهم يخشون تفويت أي حركة تقوم بها العروس في رقصها.

حتى أم إحسان التي كانت تجلس على مدخل مخزن غلال خشبي، تركت إصدار الأوامر للخادمات، لتتفرج على رقص العروس بنظرات مستحسنة وتفكر في أنها أحسنت الاختيار.

لم يكن احتفال الذكور في الخارج ساكناً وثقيلاً بقدر ما كان احتفال النساء. على أطراف الميدان الترابي الواسع أعمدة مغروس عليها مجامرٌ للشواء، والمصابيح الموضوعة بينها كانت تملأ الميدان ضياءً. والطبلتان والمزماران والآلة التي تشبه الكلارنيت الموضوعة في طرف من أطراف الميدان كانت تعزف بلا توقف، ووجنات الزمارين متعرقةٌ تلمع متمططةً ومنتفخة كأنها معدة. وعلى جذوع الشجر المصطفة على أطراف الساحة كان جل أعيان شباب البلدة قد أخذوا أماكنهم. من الفتوات مرتدي الجوخ الزرقاء إلى السادة المتشحين بظفر الشيطان الزيتي،[1] جاء كل أصدقاء

1- نوع من القماش.

إحسان إلى الحفل. الكل كان ثملاً إلى درجة ما، وإحسان لا يفتأ يدور على أصدقائه وبيده قنينة وبالأخرى كوز شراب.

لم يكن على وجهه الأسمر تعابيرٌ غير تعابير التعب والإرهاق. وشاربه الخفيف النحيل كان كأنه يزداد نحولاً عندما يبتسم لأصدقائه بارتباك.

وطربوشه المطرز والمغطى بوشاح مطرز والمائل إلى الخلف يُظهر من أطراف رأسه شعره المجعد وضربة الموسى المحفورة وسطه. لم يكن في تفكيره إلا الاهتمام بخدمة أصدقائه والعناية بمتعتهم هذه الليلة، لذلك كان في كل مرة توشك فيها المزامير على التوقف، يجري إلى تلك الجهة قاذفاً أنواع الشتائم، لكنه لم يكن ينس أن يأمر الرجال بملء قناني الراكي للغجر البؤساء التي سرعان ما تنفذ.

وحين بدأ العازفون بعزف ألحان الهالاي[1] نهض ممن كانوا يجلسون على جذوع الأشجار خمسة ثم عشرة أشخاص، واصطفوا بجانب بعضهم في انتظام ثم راحوا يرقصون متجولين في الميدان بخطوات قوية وموزونة يرفعون أيديهم المتشابكة بجانب رؤوسهم ثم يتركونها تنزل مرتخية. ولكي تفرقع الأصابع بشكل أفضل كانت أحياناً تُمسح في التراب، ومن أفواههم كانت تخرج طبقات من الصيحات العالية تعقبها تجشؤات السكر.

كان علي قد حضر مبكراً وجلس في طرف. لم يكن شديد الثمالة. فقد شرب جرعتين من الراكي من أجل خاطر إحسان ولكي لا يكون منظره سيئاً بين الجمع. كان ينظر باستمتاع إلى صديقيه اللذين كانا يضربان الأرض بركبهما ويدوران، فقد كان يتابع كل ما يدور بدقة ليفعل أفضل منه في حفل

1- الدبكة.

زواجه.

جاء إحسان أكثر من مرة وجلس بجانب علي:

"ايه، أخبرنا كيف حالك؟ متى زواجك؟" سأل.

"لا تسل، فليس هناك شيء مؤكدٌ بعد!"

رشقه إحسان بنظرات معاتبة:

"أتخبئ علينا؟ زعلت منك يا علي" قال.

ومن دون أن يرد الآخر وثب إحسان من مكانه. وحين نظر علي إلى مكان اتجاه إحسان رأى شاكر والحاج أدهم قادمين.

كان شاكر سكراناً كما هو على الدوام ومتمسكاً بذراع الحاج أدهم. يرتدي بنطلوناً أزرته محلولة وعلى ظهره سترة لاجوردية وفوقها صديرية.

أزاح الجالسون للقادمين عن مكان بينهم. استقبلهم إحسان وأكرمهم. أمسك شاكر بكوز الراكي الممدود إليه ثم رفع حواجبه إلى الأعلى وصب الشراب في جوفه، ثم مسح فمه بيده مقطباً وجهه. أخرج الحاج أدهم من جيبه حمصاً محمصاً وبعض العنب، ومده إلى شاكر وأسرع إليهم أحد رجال إحسان بصحن زنك كبير مليء بالمخلل.

حينها وقعت عين شاكر على علي الجالس على بعد خمس أو ست خطوات منه. وعلى الفور تحرر ممن كانوا حوله دافعاً إياهم عنه بمرفقيه، وهز رأسه أعلى وأسفل ويمنة ويسرة، ثم أطلق صرخة مذهلة.

بعض من كانوا هناك عرفوا بالخطب فوراً، وقال الحاج أدهم لنفسه:

"لقد أوقعنا أنفسنا في المصيبة!"

لأنه ورغم ما يقال بأنه لم يحصل شيءٌ بعد، إلا أن الجميع في البلدة كان ينظر إلى علي على أن الأمر قد بُت وأن معزز أصبحت له. وزيادة على ذلك فقد وصل إليه الخبر من طريقة نفي شاهيندة هانم له في أول الأيام. لم يحتج هو والحاج أدهم إلى كثير من العناء حتى يحزروا من أين تدبر يوسف أمر الثلاثمائة وعشرين ليرة. كان الحاج أدهم ينوي تدبير مكيدة لهذا الولد وينتظر الفرصة لذلك. لكن شاكر بيك بمجرد رؤية منافسه الذي دمر خططه التي اعتبرها منتهية ومحكمة وترك كل شيء ليجري خلف الفتاة التي أرادها لنفسه بعد عد بعض مئات من الليرات الصفراء، اهتاج وأرغى. كأنه لا يحدد لمن يوجه كلامه، ولكن بنصف نظرات إلى علي، كان يقذف بالشتائم ويدفع بأكتاف من يحاولون تهدئته:

"اهدأ يا شاكر بيك، لا يليق هذا بك، تدارك نفسك، بحق دينك!"

وهو يصرخ:

"اتركوني! سأحرقه!"

لاحظ علي ما يحدث في الحال، ولكي لا تكبر المسألة وتقع مشكلة فكر في الذهاب، لكن ذلك سيجعله لا يستطيع النظر في وجه أي أحد في إدرميت بعد اليوم. عرف أنه لن يستطيع فعل ذلك وقرر الجلوس في مكانه محاولاً ألا ينفعل.

كان شاكر يزداد اهتياجاً تدريجياً. فعقله قد صمم على معزز، وأصبحت تطرأ على خياله بشكل متماد، وفي كل مرة يقع نظره على علي كان كأنما هناك ماءٌ يغلي داخله حقيقةً. لم يكن عقله يستطيع تفهم سبب تقديم هذا البقال المسكين الجبان عليه هو، ابن صاحب المصنع، ويرى علياً في هذه اللحظة مسؤولاً عن كل ما حصل.

"لو أن هناك من هو أشجع مني فليخرج إلى الميدان!" صرخ.

فأجابه من حوله حالاً:

"لا يوجد يا آغا، ليس هناك في إدرميت كلها هو أشجع منك!"

"من سيمد يده إلى الثمر الذي آكل منه؟ لأرى!"

مجدداً أجابوه:

"ومن يجرؤ يا شاكر بيك؟ لا تفسد مزاجك.."

أصبح علي غير مرتاح في مكانه. صرخ شاكر بعينين مغمضتين وهو يهز رأسه يمنة ويسرة:

"إن كان هناك من يجرؤ، فسأشرب دمه!"

"نشرب يا شاكر بيك، ارتح انت.."

عندها عادت الطبول والمزامير لعزف إيقاعات الهالاي من جديد، وراحت السيقان الضاربة في الأرض مثيرة الغبار تعود إلى الدوران خلف

بعضها. وبين فينة وأخرى كان بعض الراقصين يقفون ويخرجون المسدسات من أحزمتهم، يرفعونها إلى الهواء ويطلقون أربع أو خمس طلقات.

دفع شاكر من حوله ووثب إلى المنتصف وانضم إلى صف الراقصين. حزامه الحلبي محلول يتجرجر على الأرض ويلتف حول قدمه. سحبه بيده اليسرى مقحفاً إياه في خصره وراح يرقص. لا يكاد يقف، وفي مكانه كان يدور. وعندما انحنى ليضرب الأرض بركبتيه تدحرج ساقطاً على وجهه ولم ينهض إلا بصعوبة. لم يستطع أن يفتح عينيه، وكان ينظر إلى ما حوله من شق صغير بين رموشه.

لحظتها شعر أنه يقف أمام مكان جلوس علي. فاستدار نحوه وحاول الانتصاب بثبات. عضلات وجهه وزوايا شفتيه كانت تتحرك بعصبية. بعينيه النصف مغمضتين كما العادة، تمطط حاجباه باتجاه جبهته، وأخذ وضعية المتحدي. انتصب علي أيضاً، بوجهه شديد الشحوب كان ينظر إلى شاكر، وفي هذه اللحظة لم يكن يفكر في شاكر، بل فيما سيقول عنه أصدقاؤه لو أنه تصرف بجبن.

ترنح شاكر في مكانه قليلاً. اقترب الطبل والمزمار اللذان كانا وسط حلقة الراقصين إلى هذه الجهة. الطبال يضرب طبلته بكل ما فيه من قوة، بينما كان الزمّار يشترك بكل كيانه في هذا الجو الراقص، يلتف يميناً وشمالاً وهو ينفخ في مزماره الذي كان يوجهه تارة باتجاه أحد الراقصين وتارة - إذا نال منه الطرب - نحو السماء.

تقدم شاكر عدة خطوات عائداً لإكمال الرقص. في تلك الأثناء كان قسم من المشاهدين والراقصين قد أخرجوا أسلحتهم، وبدأوا في إطلاقها في الهواء

بالتتابع. ألقى شاكر أيضاً بيده على جنبه الأيمن، وأخرج من داخل جاكيته اللاجوردي مسدساً كبيراً من نوع سميث - ويسون مطلقاً ثلاث رصاصات باتجاه النجوم.

بعدها أرخى ذراعه ببطء كأن ثقل السلاح قد أتعبه عن حمله، وتوقف عندما وصل إلى محاذاة علي، انتصب مثل الرمح ولم يتحرك، وعيناه اللتان كانتا لا تكاد تنفتحان قبل قليل أصبحتا مستديرتين تماماً، بل وتبدوان جاحظتان إلى الخارج بعض الشيء. مال برأسه إلى اليمين قليلاً حتى وصلت عينه إلى سبطانة المسدس، وضغط على الزناد مرتين.

كل هذا؛ إخراجه للمسدس، وإطلاقه للنار في الهواء ثم وصوله إلى علي، كله حدث في زمن يقدّر بالوقت الذي يستغرقه أخذ نَفَسٍ فقط، والكثير منهم لم يلتفت إلى تلك الجهة إلا مع صوت إطلاق النار.

عند تلقي علي للرصاصتين ألقى برأسه إلى الخلف وسقط من الجذع -الكرسي- على التراب من فوره.

تراكض المتواجدون في الساحة من راقصين وعازفين وشاربي الراكي، والذين بدأوا في الهرب من المكان متداخلين في بعضهم. وهرع الكثيرون إلى جانب المتمدد على الأرض.

جثا إحسان بجانب علي وأمسك برأسه بيديه. ثم أومأ برأسه إلى أحد الواقفين بجانبه، فانحنى على الجريح وفتح صدره. كانت الرصاصتان قد دخلتا في الجانب الأيسر من صدره متباعدتين بمقدار أربعة أصابع. كان الدم يخرج قليلاً جدًا من هذين الجرحين اللذين كانا عبارة عن ثقبين أسودين.

رفع إحسان رأسه ونظر إلى الواقفين حوله بنظرات كأنما تقول: كما ترون، لقد رحل! قال أحدهم بنبرة متحذلقة:

"دعوه إذاً...فليرحمه الله!"

ردد الجميع في نفس الوقت:

"فليرحمه الله!"

تذكروا شاكر عندها.

وعندما التفتوا وجدوه ما زال واقفاً في مكانه الذي أطلق منه النار، ويده التي كانت ما تزال ممسكة بالسلاح متدليه تتأرجح كعضو ميت بجانبه، ويمسك بيده الأخرى الحاج أدهم محاولاً تهريبه خارج المكان.

7

ظهر من ناصية الشارع دركيٌّ شاب يمشي برفقة شاويش. لم يكن الناس يقابلون قوات الدولة هذه التي بدأت تظهر نفسها كثيراً بنفس المبالاة التي كانوا يقابلون بها الضباط في الماضي، فعندما يرونهم يمضي كلٌّ إلى حال سبيله مرجحاً ألا يفتح على نفسه باباً للمشاكل.

مع ظهورهم في هذه المرة أفرغت الساحة من كان فيها. حاول الدركيان أن يمسكا ببعض الشهود من الطريق، ولكنهم قبضوا بصعوبة على عددٍ لا يتجاوز أصابع اليد.

بُعث اثنان من هؤلاء الشهود، وبعد تقييد اسميهما لدى الدرك، إلى طبيب البلدية وإلى والد علي.

أما شاكر فقد كان يمشي ببطءٍ وأحد الدركيين يمسك به من ذراعه. كان الحاج أدهم قد اختفى وقت الفوضى عند قدوم الدرك.

وحتى وصولهم إلى قسم الشرطة الموجود في أطراف حي تاوشان بايري لم يتلفظ أحدهم بكلمة. وبعد دخولهم إلى المبنى الخشبي ذي اللون الوردي أُبقي الشهود مع شاكر في الردهة ينتظرون. ولج الشاويش إلى غرفته محضّراً ورقةً وقلماً. والمسدس المُصادر من يد شاكر موضوعٌ على مكتبه أمامه.

لم يكن شاكر الذي كان أول الداخلين في حالة تسمح له بإدلاء أي شيء. فقد كان محتاراً ولا يزال ثملاً. يحاول لف سيجارة من الطبق الذي ناوله إياه الشاويش، لكن ورق السجائر كان ينزلق من بين أصابعه المرتجفة بشدة. لم يكتب الشاويش على الأوراق تحت ضوء المصباح الذي تناوله من الجدار واضعاً إياه على مكتبه إلا هوية القاتل فقط. ثم قال للدركي الواقف محاذاة الباب:

"خذ هذا. وأدخل أحد الشهود!" وتراجع على كرسيه إلى الخلف متثائباً. مشى شاكر مُساقاً باتجاه الباب، لكن خروجه من الباب تزامن مع دخول الحاج أدهم إلى الغرفة، بيد أن الأخير، وكأنه لا يعرف شاكر، لم يلتفت إليه حتى ومشى عجلاً نحو الشاويش، قائلاً:

"كيف حالكم حضرة الشاويش جمال؟" ثم أردف محركاً رأسه بأسف: "يا للمسكين... كان شاباً في عنفوان شبابه كالأسد، هذا والله شيءٌ مؤسفٌ

جداً!"

كان الشاويش جمال شاباً وجديداً في منصبه هذا، لكنه لم يكن ساذجاً ومبتدئاً لدرجة لا تجعله يعرف أن الحاج أدهم لم يأت إلى هنا ليندب حظ علي السيء ويبكي عليه. نظر إلى الحاج أدهم بعينين ملؤهما الشك.

قال الحاج أدهم مشيراً إلى شاكر الذي كان ما زال واقفاً عند الباب ينظر إليه:

"أرسلت أم هذا الولد فراشاً ولحافاً، أحضرتها له، المسكينة تتقطع من القلق عليه".

ثم زاد ملتفتاً إلى شاكر:

"اذهب مد فراشك ونم... وفي الصبح الخير... ما حصل كان حادثاً... لقد كنت طائشاً قليلاً. على المرء أن يكون أكثر حذراً وينظر حوله عندما يكون ثملاً!"

خرج شاكر مفكراً بمعنى هذه الكلمات. وفي الداخل بقي الحاج أدهم والشاويش صامتان وحدهما لمدة. ثم أدار الشاويش عينيه إلى الحاج أدهم وأشار أي ما الأمر؟

كان الآخر مستمراً في صمته يفكر بعمق. أخيراً، وبعد أن أنهى حساباته في عقله وجمع ناتجها هز رأسه مستفسراً:

"ماذا سيكون وضع هذا الولد؟"

”الله أعلم! والرئيس الكبير يعلم أيضاً!“

كان يقصد بالرئيس الكبير رئيس محكمة الجزاء التي كانت تسمى وقتها محكمة الجنايات. ولكونه ضخم الجسم وعتيق العمر أطلق عليه الناس، أو بالأصح من لهم شؤون في المحاكم، لقب الرئيس الكبير.

تبسم الحاج أدهم ابتسامة خفيفة وألقى على الشاويش نظرات محمّلة بالمعاني قائلاً:

”وماذا سيقول الرئيس الكبير؟ ما حصل كان حادثاً. لم يكن هناك تصميم أو ترصد. ليست جريمة قتل عمد...“

قاطعه الشاويش مشيراً بيده:

”كف عني هذا الهراء! فالشهود موجودون بالخارج. سأسألهم بعد قليل...“

”يا عيني الاثنتين، يا شاويشي الماسي، استمع إلى ما سأقوله ثم ادع شهودك.. فحتى أنا أعتبر شاهداً. فقد كنت هناك، وأزيدك قولاً إنني لم أكن سكراناً..“

نهض من مكانه متجهاً إلى مكتب الشاويش. شبك يديه وانحنى برأسه في اتجاه الشاويش وبدأ يتحدث بصوت خفيض وبلا توقف راصّاً كلماته خلف بعضها، مستطيعاً بذلك إقناع الشاويش بكون مقتل علي مجرد حادث غير متعمد. ثم انتصب متحضراً للخروج. حينها وقعت عيناه على المسدس الكبير الموضوع على المكتب.

قال: "يا عيني الاثنتين، ما حصل كان حادثاً... لكن هل كون شاكر مرتكب هذه الحادثة مؤكد؟"

هز الشاويش رأسه معلماً الحاج أدهم بأنه لم يفهم ما يعنيه، وأن كلماته وكيس النقود المتروك في نهايتها على المكتب لم يكفياه ليفهم ما يرمي إليه.

عندها أخرج الحاج أدهم من جيب جاكيته الأيمن كيس نقود صغير آخر ووضعه بجانب الكيس الآخر. ثم أخرج من جيب بنطاله مسدساً صغيراً من نوع بروفينغ ومده إلى الشاويش. وبينما كان الشاويش يتناول السلاح بتعجب سائلاً عما يعنيه بذلك، أخذ الحاج أدهم المسدس الكبير من المكتب وثبته على خصره.

كان الشاويش جمال يتأمل الحاج أدهم بصمتٍ ونظراتٍ متفهمة طوال ذلك الوقت. وبينما هو خارج هتف من خلفه:

"لا تفسدوا القصة وتورطوني معكم... ليكن عملكم متقناً!"

"لا تقلق... اسمح لي بأن أناول الشهود لفافات من التبغ".

ابتسم الشاويش مجدداً ووضع أكياس النقود في جيبه الداخلي، وأقفل على المسدس الذي كان في يده داخل أحد أدراج المكتب فوق بعض الأوراق وأخذ المفتاح.

أيقظ الحاج أدهم الذي خرج من غرفة الشاويش للتو الشهود الذين كانوا قد استسلموا للنوم على المقاعد التي كانوا يجلسون عليها ناكزاً إياهم واحداً تلو الآخر. أكرم كل واحد منهم بحفنة من التبغ المهرب وتحدث معهم عن

أحوالهم وعن هوية قاتل علي.

كان ثلاثة من الشهود من جروك قرية العروس. مع شرح الحاج أدهم لهم بأنهم لو أدلوا بشهاداتهم حسبما يقول لهم بالضبط فلن يكونوا مضطرين إلى التردد إلى هذا القسم كثيراً، ولن يتورطوا في مشاكل لا دخل لهم بها، وكانوا يهزون رؤوسهم مؤمنين على كلامه. رابعهم كان الطبال وهو من الغجر. كان يرتعش من الخوف لسقوطه في يد الدرك ولتورطه في مشكلة ليس له دخل فيها. لكن لم يكن في نية الحاج أدهم أن يكون سخياً معه كما كان مع الشاويش. لذلك وضع يده على كتف الغجري قائلاً:

"اسمع يا ولد يا غجري، أنا أيضاً كنت هناك وشهدت كل شيءٍ بنفسي. كل شيءٍ حدث كما قلت أنا. لو أدليت بشهادة مختلفة سأمزق جثتك!"

نهض الغجري من مكانه ضارباً بيده على صدره وقال: "بشرفي سأشهد بما قلته أنت تماماً... لكن مخيمنا الشتوي بعيد من هنا. لذلك سيكون مجيئي وذهابي صعباً. ستتعطل أعمالي ومصالحي، ذلك ما يقلقني".

نهض الحاج أدهم ماداً له بحفنة أخرى من التبغ، ثم خرج متجهاً إلى بيت آل حلمي بيك في هذا الوقت من الليل.

أدلى الشهود إلى الشاويش بنفس الشهادة:

"لم نرَ ولم نسمع شيئاً! الجميع كان يرقص ويشرب ويستمتع بوقته. وفجأة صرخ علي ساقطاً على الأرض بلا مقدمات. أُصيب بعيار ناري"...

بصم جميعهم على شهاداتهم. ثم خرجوا من القسم، ومضوا إلى طريقهم،

ثلاثة سلكوا طريقاً وواحد سلك طريقاً آخر.

أمضى الشاويش ليلته هناك لكونه مناوباً. تمدد على الكنبة المختلة التي كانت في زاوية الغرفة وتغطى بمعطفه. شاكر أيضاً كان قد مد فراشه على سرير سفلي من أحد الأسرة ذات الطابقين وغط في النوم. كان نومه عميقاً لدرجة أنه لا جلبة دخول الدركي لتبادل المناوبة، ولا أصوات الدركيين المناوبين الذين كانوا في الشارع أمام بوابة القسم، يتجولون تاركين أحذيتهم ذات الكعوب تغرد وهي تضرب على حجارة الطريق، تستطيع إيقاظه.

8

لم تطل المحاكمة كثيراً. فحتى شاكر قد أطلق حراً في أسبوع توقيفه بواسطة المستجوب. كان يأتي إلى الحبس في الصباح فقط، يقضي وقته جالساً يدخن في غرفة المدير، أو يتجول في الحديقة القريبة من باب النظامية. وفي الليل يتركونه يذهب إلى بيته. كان الجميع بمن فيهم القائمقام والمدعي العمومي ورئيس الجزاء يعلمون بأمر هذه المعاملة الاستثنائية، ولكن لا أحد فيهم يفعل شيئاً حيالها. لأنه ليس هناك مجال لفعل شيء آخر. فقد جاء هكذا، وهكذا سيمضي، وحتى أعقل عقلاء البلدة، رغم بعض أفكار المساواة والحرية التي جاءوا بها، لم يكونوا ليتقبلوا فكرة إمكانية سجن ابن البيك حلمي حقاً. فالسجن موجود للأوباش والقرويين وأفراد الطبقات الدنيا فقط، فحتى لو ارتكب ابن حلمي بيك جناية قتل عمد فلن يعامل المعاملة نفسها التي يعاملون بها. لن يتلقوا الأحكام نفسها بالطبع، حتى أبناء الأشراف الذين حُكم عليهم بالسجن خمس عشرة سنة، كانوا كثيراً ما يقضون فترة سجنهم

في بيوتهم. ولا يدخلون زنازينهم إلا في أوقات الزيارة التفتيشية للوالي أو العدلي. أحياناً يعيّن مدير جديد للسجن أو قسم الشرطة، وفي أول أيامه، ولكي يثبت نفسه فقط، يظهر بعض الجدية والقسوة، ولكن سرعان ما يعود كل شيء لسابق عهده عندما يأتي أقرباء بعض السجناء للتحدث إليه. فهذه الصرامة التي تكون في أول الأيام ليست بأكثر من مناورة ليبيع المدير نفسه بسعر أعلى.

وهكذا فإن شاكر لم يكن يرى السجناء الذين ظن أنه سيُلقى بينهم إلا في الزنازين الخشبية الموجودة بين بوابة النظامية والفناء الداخلي لها، كان يراهم وهم ينظرون إلى الخارج من بين القضبان في صمت، حتى ذلك لم يستمر لأكثر من أسبوع.

بعدها بدأت مراحل المحاكمة. لكن بعد أن عجز المستجوب أن يثبت أي علاقة لشاكر بحادثة القتل هذه لم يبق شيء ليحاكم شاكر عليه.

لكن سعي والد علي في الموضوع أطاله بعض الشيء. فقد أقنع الشريف بيك عدداً ممن كانوا هناك بأن يشهدوا في القضية. أدلى هؤلاء شهاداتهم بشأن الحدث كما رأوه بالتفصيل، وقالوا حتى بأنهم رأوا شاكر وهو يصوب سلاحه نحو علي. لكن قسماً منهم بدأ - لسبب ما - يغير أقواله تدريجياً في الجلسات التالية، حتى استحالت شهاداتٍ غير صريحة ومخنوقة بكثير من اللعثمات.

أما الشهود الآخرون فكما فعل الشهود الأربعة الأُوَل في قسم الشرطة، قالوا بأنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً، وأن علياً قد أصيب بطلق ناري بينما كان الجميع يرقصون ويطلقون أعيرة النار في الهواء، ولا يعرف أحد هوية مطلق

الرصاص عليه على وجه التحديد.

كان محامي شاكر، حامي بيك رجلاً واسع الثراء وأحد الأقارب البعيدين لحلمي بيك. كانت له شهرة غريبة بين زملاء مهنته، فقد كان أكثر محامي البلدة عملاً في المحاكم. لصوته الحاد والجهوري منطق مخادع. يفوز تقريباً في كل القضايا التي يتولاها، بيد أنه أحياناً ما يضطر إلى أن يحيد عن الطريق القويم في سبيل ذلك. فحسب ما يعتقد هو، فكما أن كل الوسائل لكسب الحرب مشروعة، فلا بأس من سلوك أي طريقٍ يؤدي بك إلى الفوز. تغيير الشهادات، والإلقاء بالجرم على آخرين، واستخدام شهود زور، وجعل أحد البؤساء يشهد على نفسه باقتراف جريمة مقابل بضع قروش لينقذ المجرم الحقيقي، كانت هذه بعض الأساليب الدقيقة التي يطبقها حامي بيك يومياً.

لكن في قضية شاكر بيك لم يظهر ما يضطره إلى أن يستخدم ذكاءه كثيراً. فقد وضع الحاج أدهم كل شيء في نصابه ولم يترك للمحامي شيئاً ليفعله.

كان الرئيس يعرف أن شاكر هو قاتل علي. في الحقيقة لم يكن هناك من يجهل ذلك. لكن هناك ما هو أهم من هذه المعلومة المجردة: الشهود، الأدلة....

كلها كانت في مصلحة شاكر، أو تم ترتيبها لتكون كذلك. أما القائمقام صلاح الدين بيك فلم يستطع أن ينشغل بهذا الموضوع لأسباب سنحكيها بعد قليل.

في كل مرةٍ يصرخ فيها والد علي في المحكمة:

"أنا صاحب الدعوى، أريد القصاص لدم ابني!"

كان قلب الرئيس يتقطع عليه، يعرف أن لا شيء بيده ليفعله، فيكتفي بقول:

"ثق بالقضاء!"

لأن مقابل كل الأدلة على قتل شاكر لعلي، كان هناك دليل أقوى وأكثر ثقة، قادرٌ على نفي كل الاتهامات وشهادات الشهود.

ألا وهو التقرير الطبي. وفقاً لهذا التقرير، فإن الرصاصات المستخرجة من الجانب الأيسر لصدر المقتول علي انطلقت من مسدس يطلق رصاصات واسعة القطر ومصنوعة من الرصاص الخام.

لكن المسدس الموجود في المحكمة، والموثق في ورقة المحضر بأنه هو المسدس الذي كان في يد شاكر وقت القبض عليه كان مسدساً صغيراً من نوع براونينغ.

قبل ظهور مسألة تقرير التشريح الطبي هذه، لم يستطيع الشهود الذين شهدوا على شاكر بأنه أطلق النار على علي تعيين نوع المسدس على وجه الدقة. ورغم أن شريف آغا جعلهم يغيرون شهاداتهم بعد ذلك ليقولوا: "لقد رأينا في يد شاكر بيك مسدساً كبيراً دوّاراً"، إلا أن شهاداتهم لم تفد في شيء.

كان شاكر يجيب على جميع الأسئلة الموجهة إليه بـ:

"لا أدري، كنت سكراناً لا أعي بما حولي!"

"أكان لك مع علي ماضٍ لا نعرف عنه؟"

"لا طبعاً! نحن مجرد جيران في الحارة. أي ماضٍ سيكون لنا؟"

"حسناً، هناك من رآك وأنت تطلق عليه النار".

"غير صحيح، لم أوجه سلاحي إلى أحد، أطلقت النار في الهواء فقط".

كانت تعابير وجهه وهو يجيب تقول: لقد بدأت تضايقني، كف عن هذا! يرتفع أحد حاجبيه وتمتط شفتاه إلى الأسفل.

بدأ حامي بيك بالكلام ليلخص المسألة من جديد، متبسماً لتعجبه من كونه ما زال مضطراً إلى الدفاع عن هذه الحقيقة الواضحة. بدأ بالحديث عن صداقة علي وشاكر وعن لعبهما مع بعضهما في نفس الحارة منذ طفولتهما، وبأنه لم توجد أي مسألة قد تسبب الضغينة والعداوة بينهما طوال هذه السنين، وبالتالي فمن المستحيل تخيل أسباب قد تجعل شاكر يفكر بقتله.

لم يتطرق أحد إلى موضوع معزز في المحكمة ولا لمرة واحدةٍ حتى. أولاً لأن أياً من الطرفين لم يرد أن يدخل القائمقام في خضم هذه المشاكل ويثير غضبه. ثم لأن موضوع خطبة معزز انتشر بين النساء، ولأن شريف آغا يعرف أنه لن يستطيع أن يصل إلى درجة أن يجعل زوجته تشهد في المحكمة، لذلك فإن كلا الطرفين لم يستطيعا أن يتطرقا إلى هذه النقطة.

كان رئيس المحكمة العارف بتفاصيل كل ما حدث مضطراً للاستماع إلى حامي بيك وهو يهز سقف المحكمة بصوته حتى النهاية وهو يقول:

"كانت العلاقة بين موكّلي والمقتول علي علاقة رفاق صميمية وحميمية إلى درجة تجعلهما يتسابقان ليفديا بعضهما بروحيهما في مواجهة الخطر، فكيف لهما أن يكونا عدوّين؟"

ابتدأ حامي بيك بشرح ما حدث ليلة الواقعة بقوله إن الجميع كان ثملاً ومنتشياً يطلق أعيرة النار في الهواء وسط جو احتفالي، وأن ما أصاب علياً كان عيارين طائشين فقط، وبالتالي فما حصل هو حادث غير متعمد وليست جريمة قتل. وأتبع كالتالي:

"لكن المتسبب في هذا الحادث لم يكن شاكر بيك. لأن تقرير تشريح الميت وضّح بشكل قاطع نوع السلاح الذي تسبب في مقتل علي، ومواصفات هذا السلاح المحدد لا تتوافق أبداً مع مواصفات السلاح الذي يستخدمه موكّلي.

"يا سعادة القاضي، ما نشهده هنا هو محض تجلٍّ لصدفة وإرادة إلهية؛ حدث حادث وخسر الوطن أحد أبنائه. تكفينا هذه المصيبة! فهذه المصادفة التي لا تريد أن تمهد الطريق لمصيبة أخرى، تجر يد المحكمة إلى المكان الخطأ وتتسبب في نسيان القاتل الحقيقي - غير القاصد -..."

مع نهاية دفاعه كان العضوان الجالسان بجانب رئيس المحكمة قد استسلما للنوم. أما شريف أفندي، فلكيلا يشاهد قاتل ابنه يبرّأ من جرمه أمام ناظريه انسل من مكان وقوفه إلى الخارج وعاد إلى بيته وهو يتنهد في حزن.

شاكر أيضاً كان يغفو على كرسيه. وبعد أن أكمل حامي بيك كلمته أجّل الرئيس المحاكمة إلى جلسة أخرى وقال إن الحكم سيُنطق بها. كان ذلك الحكم كما يتوقعه الجميع، البراءة.

9

لم يكن البرود وعدم الاهتمام الذي ألمّ بالقائمقام صلاح الدين بيك بعد مرور الأيام المقلقة تلك بالحال المؤقت، بل كان يتنامى مع الوقت، وبدأت تظهر عليه أعراض مرض القلب.

هذا المرض الذي بدأ يُظهر نفسه منذ كان عمر القائمقام خمساً وثلاثين سنة، والذي كان قد بدأ يتعبه بعد المشي الطويل، ويمنعه من صعود السلالم، ويجعله يمضي ليلة عصيبة أحياناً إذا ما أكثر من شرب الراكي، ازدادت حدته فجأة. في البداية لم يكن يأخذه على محمل الجد. اعتقد أنها حالة طبيعية تصيب من مرّ بذلك الكم من الإرهاق والقلق. ولأن السنوات الأخيرة من حياته في إدرميث كانت تمضي بسكون تام، ولأن بيته لا يقع في أعلى منحدر يتعبه، فقد بدأ ينسى تلك الأعراض تماماً، لكن فجأة وقبل شهرين، في منتصف إحدى الليالي، هجم عليه المرض وهو في سريره باضطراب شديد وألم في القلب ولم يتركه بعدها قط.

كانت أيام مقتل علي. سكون البيت الخانق والسخيف، وتصرفات يوسف اللامبالية وتهربه من نفسه، وجمود معزز الذي كان يتزايد مع الأيام، وفي النهاية ثرثرات شاهيندة هانم التي لم تكن تنقطع، كلها أوصلته إلى حد الاختناق والضيق. لم يكن يريد أن يفكر حتى بالمرور على مقر العمل. بعد أن تناول طعام الغداء في البيت، ارتدى بردته وانطلق إلى الشارع. وقام بنزهة في الأطراف الشمالية من البلدة.

بعد أن تجاوز قرية إبراجاكوي بدأ وهو يمشي في كل الاتجاهات وقدماه تغوصان في الوحل بالبحث عن نبع الماء الذي كان يسمع بأنه قريب من

هذه المنطقة، ولكن لا يعرف مكانه بشكل قاطع. كان قد سمع الكثيرين يمتدحون مكان النزهة هذا، ويقولون عنه إن به شجرة دلب كبيرة وبركة ماء، فاستيقظ عنده فجأة الفضول لإيجاد المكان.

في السهول المرتفعة التي كانت بين مزارع الزيتون، وفي أواسطها بالذات، كانت هناك تجمعات أشجار متفرقة، بعضها ما تزال عارية من أوراقها، وبعضها بدأت تكتسي بغطاء من الأوراق ذات اللون الأخضر الفاتح. لكن لم يكن ممكناً تحديد في أي منها كان يقع النبع. فمشى باتجاه أقرب واحدةٍ منه إليه.

بين أشجار الزيتون كان هناك بعض من أشجار البرقوق والمشمش التي كانت قد تزينت بأزهار ورديةٍ حلوة. عند المرور من جانبها تلف المرء رائحة جميلة لا مثيل لها وتجعله ثملاً.

شعر صلاح الدين بيك بسائل مانح للقوة والشباب يجري من كل أطراف جسده إلى قلبه. أخذ نفساً عميقاً ملأ أبعد زوايا رئتيه بالهواء، وأحس بالحياة تعود إليه وإلى الطبيعة في الوقت نفسه. كل شيء حوله كان يولد إلى الحياة من جديد؛ من التربة التي تشبه الطين، والتي كانت تظللها أشجار الزيتون المحافظة على لون أوراقها الغامق في كل وقت، كانت الأعشاب تبدأ بالانبثاق، وأغصان الصفصاف العارية والنحيلة تلتحف بلون أخضر باهت، وبراعمها القليلة المتفرقة تنبئ بالقدوم القريب للأوراق التي ستكسو تلك الأغصان.

على أطراف التلة المقابلة كان هناك الكثير من مزارع الزيتون التي كانت مع ارتفاع الجبل ترتفع كشرفات قواعد جدرانها من الصخور. قفز القائمقام

فوق بعضها، وانجرحت يداه من أشجار التوت الأسود التي كانت تستند إلى بعض الجدران.

ومع ظهور الجرح في يده ذات الشعر الكستنائي الخفيف والعروق البنفسجية وجفاف دمائه السريع ظن أن سماً كان ينخر جسده منذ سنوات قد خرج من الجرح أيضاً. إلى تلك الدرجة كان صدره مرتاحاً ومنشرحاً.

وبعد القفز فوق عدة حواجز أخرى، هناك في الأسفل وجد كومة الأشجار التي كان قد توجه نحوها. لم يكن ثمة نبع هنا، بل شجرة جوزٍ ضخمة وشجرتا دلب كبيرتان نسبياً، أسندوا أغصانهم ببعضها وراحوا ينسجون خيالات استيقاظ من نوم عميق. جلس صلاح الدين بيك تحت جذع شجرة الجوز على الفور. فقد أتعبه المنحدر الأخير كثيراً. وقلبه كان يضرب صدره كاللكمات. لكن إحساسه بالانشراح والحياة لم ينحسر داخله بسبب ذلك. بعد أن أسند رأسه إلى الشجرة وأخذ يتنفس بشكل سريع لمدة من الوقت، وبعدما شعر بعرقه بدأ يجف تحت بردته، فنهض على قدميه من جديد وراح ينظر إلى السهول.

كل الأطراف كانت تشع وتلمع كأنها غُسلت في وقت قريب. والسحب التي تغطي السماء وتستر الشمس كانت تمتد حتى قمم الجبال المقابلة، وتتحول إلى ضباب فيها وترتفع تدريجياً فوق السهول. كان كل شيء مضيئاً وواضحاً رغم أن الجو لم يكن مشمساً لدرجة أنه كان يستطيع تمييز حتى القرى الجبلية القريبة من الضباب.

وعندما التفت إلى يمينه رأى البحر. هذا البحر الذي يستأنف وجوده بعد عشرة كيلومترات من الأراضي المشجرة والمزارع، كان تحت ضوء الشمس

المتناثر من بين فراغات السحب يلتمع تارة ويقتم تارة أخرى. وأبعد من ذلك، هناك قريباً من الأفق كانت جزيرة ميديللي مدفونة بالضباب تماماً. يبدو أنها كانت تمطر هناك.

بدأ صلاح الدين بيك يشعر برأسه يدور. كأنه جمال الطبيعة ودفئها ووسعها كان كثيراً عليه. لكنه بينما كان يجول بنظره حوله من جديد رأى في الأسفل البلدة وهي بادئةٌ في الاندثار تحت طبقة بنفسجية من الدخان فارتعد. أحس بالمرارة لكونه مجبوراً على العودة إلى تلك الحفرة والاندثار فيها من جديد. لكنه بدأ في الهبوط إلى الأسفل بخطوات حثيثة وهو خائف من التفكير في الأمر.

لم يبق في داخله أثر من الانشراح الذي كان قبل قليل. تبدل ذلك بتعب في جسده وصداع في رأسه.

ومع اقترابه من البلدة صادف في طريقة عدة رعاة بقر. يهتفون ويصرخون على أبقارهم الهزيلة ليجمعوها في مكان واحد. في الطريق الموحل تضرب أنف المرء رائحة روث رطبة وحمضية، ومن مداخن البيوت المنخفضة التي هناك ينتشر دخان حطب صمغي من أخشاب الصنوبر. ولكيلا يحل الظلام وهو لم يصل بعد راح يغذ بالسير في الطرق الموحلة. لم يكن الجو بارداً رغم أنه رطب ومغيم. كان يتعرق بشدة تحت بردته وجسده يشتعل ناراً. تخفف من ملابسه بمجرد وصوله إلى البيت، وضع خرقة على ظهره واغتسل في المضخة. ثم صعد إلى غرفته وتمدد في سريره.

بعد نصف ساعة أيقظوه لتناول الطعام. جلس مع زوجته وبنته على السفرة الأرضية في الغرفة السفلية التي كانت مقابل الشارع.

ولكي يقول شيئاً فقط، قال:

"حتى اليوم يوسف ليس معنا؟"

أجابت شاهيندة بدون أي مقصد سيء، لكن بنفس اللهجة التي اعتاد عليها لسانها:

"ومتى كان هنا أصلاً؟"

ندم القائمقام على سؤاله وسكت.

قالت معزز وهي تنظر أمامها:

"لم يعد أخي يوسف يمر على البيت في الأيام الأخيرة إلا نادراً. لا أدري ماذا به. حتى أنتما لا تتكلمان معه أبداً..."

هز القائمقام كتفيه. أراد بذلك أن يفهمها بأنه لم يعد يشعر بأي علاقة له مع أي شيء في هذه الدنيا.

تناول طاسة الخوشاف[1] من طرف السفرة ووضعها في المنتصف. وبدأوا ثلاثتهم في الشرب في نفس الوقت.

لم يكن يُسمع في الغرفة المظلمة صوت غير صوت الملاعق المعدنية وهي تدق في الكؤوس. انتهى الطعام على هذا المنوال. قال القائمقام المنسحب إلى إحدى الزوايا مخاطباً معزز:

1- عصير عبارة عن فاكهة مغلية مع السكر.

"ناوليني كتاباً من هناك".

فتحت معزز الدرج الأوسط من الدولاب الذي كان بداخله طقم أواني القهوة وكيس ملابس، وسحبت من الكتب المتراكمة فوق بعضها أكبرها وأخذته إلى أبيها.

راح صلاح الدين بيك تحت نور المصباح المعلق على الجدار الذي يستند عليه يتمشى بنظراته بين صفحات الكتاب الصفراء القديمة. كان هذا الكتاب، والذي سقطت عنه بعض صفحاته واهترت، من مجموعة الكتب العائدة إلى سنوات مجموعة ثروة الفنون البائدة.

قرأ القائمقام الصفحات التي كان يقلبها خلف بعضها كما يشرب الماء. وتذكر الأيام حين كان يحفظ الأشعار المكتوبة تحت تصاوير "الفتاة الذاهبة إلى النبع" المنحوتة على خشب البقس عن ظهر قلب.

بعد نصف ساعة أوى إلى غرفته. معزز وشاهيندة أيضاً نامتا مبكراً...

عند منتصف الليل استيقظت شاهيندة على أصوات سعال مختنقة من السرير المجاور لسريرها:

"ماذا بك يا بيك؟!"

رد عليها بأنين، وبينما هي ذاهبة لتجلب الفانوس من السفرة نادى عليها زوجها بصوت مختنق:

"أحضري زجاجة الكولونيا أيضاً!"

ارتدت المرأة شبشب المنزل بصعوبة وقفزت إلى الخارج. تناولت الفانوس من فوق درجات السلم وهبطت بسرعة وهي تكاد تسقط. أخذت زجاجة الكولونيا من الغرفة المشرفة على الشارع، وأيقظت الخادمة وأم كبرى ناكزة إياهما وصارخة:

"انهضا، شيء ما يحدث للبيك!" ثم عادت بنفس السرعة إلى الأعلى. وعند دخولها إلى الغرفة وجدت صلاح الدين بيك جالساً على السرير وقد أسند ظهره بالوسادة إلى الجدار...

رفع رأسه عندما دخلت وقال بوجه حزين:

"ما هذه الجلبة؟ ألا تعرفن إنجاز عمل بهدوء؟"

هرعت إليه زوجته عندما رأته جالساً وجثت عند قدمه منهارة بالبكاء...

تجمع سكان البيت عند باب الغرفة، وراحوا ينظرون إلى داخلها بفضول. ماعدا معزز لم تكن قد نهضت من النوم.

أشار القائمقام بيده لهم أن يذهبوا.

فتفرقوا كلهم.

توجه بالكلام إلى زوجته بعد أن صمت قليلاً:

"هيا اهدئي ونامي... ليس هناك ما يقلق... ناوليني زجاجة الكولونيا هذه... انتابني خفقان فقط... ظننت أن حالتي تسوء. فقد مشيت اليوم كثيراً، ربما ذلك هو السبب، لا أدري! في البداية كان سيئاً جداً... شعرت

كأن أحداً يجلس على صدري ويضغط على نحري. أشعر بأني أفضل الآن... هيا نامي عزيزتي، لماذا تبكين؟"

اقتربت منه زوجته. كانت عيناها حمراوين بلون الدم. وضعت رأسها على ركبة زوجها واستمرت في شهقاتها المتقطعة...

نظر القائمقام إلى رأس زوجته النائمة على حضنه. ولفت داخله خاطرة حزينة. كأنه أصبح يرى خلف ذلك الوجه المقطب والمحمر بالبكاء وجه فتاة شابة نقي، وفي تلك اللحظة عادت إليه أحاسيس الفرح والأمل التي كانت تملؤ ليلة زواجهما. لكن ذلك لم يستمر لأكثر من ثانية، وربما أقل من ثانية حتى. من بعدها غمره شعور بالعطف العميق. فرغم كل سخطها والسنوات الطويلة لاستخفافها، إلا أنه رأى في هذه اللحظة أن زوجته كانت حميمية ومرتعبة وقلقة حقاً من حدوث شيءٍ له. ولم يكن من الإنصاف لها أن يبحث عن مسببات أخرى لخوفها هذا.

مسد القائمقام، الذي كان منذ سنوات طويلة لا يشعر بعلاقة مع أحد ولو كانت بسيطة، على وجه زوجته المبلل بالدموع. ثم رفع رأسها برفق وأسنده إلى وسادتها. ثم استلقى هو أيضاً وغاص في نوم عميق كعمق بئر قعيرة ومظلمة.

لكن نوبات المرض هذه بدأت تنتابه أكثر، وأحياناً كانت تستمر لمدة أطول. كان طبيب البلدية يعمل في إدرميت منذ سنوات طويلة، ومع كبر سنه نسي حتى كيف يضع ضمادات الجروح. لم يسأله القائمقام عن شيء. بل ذهب إلى طبيب برتبة نقيب كان قد أصيب في حرب البلقان وعاد إلى جانب أبيه في إدرميت للنقاهة. بعد أن عاينه هذا الطبيب الشاب، وبعد تفكير

طويل، تحدث عن التهاب في صمامات القلب، وعن السكون الدائم وقلة الحركة، وعن النوم على بطن ممتلئة.

ورغم أن صلاح الدين بيك نفذ توصيات الطبيب إلا أن ذلك لم يمنع صحته من التدهور أكثر خلال فترة زمنية قصيرة وبشكل واضح جداً... انتفخ أسفل عينيه، وارتخى خداه، وأصبح وجهه يشي بإرهاق دائم...

وعندما يتكلم كان يسكت في وسط كلامه، ويفتح فمه ليتنفس بسرعة مظهراً جميع أسنانه.

ولتصادف محاكمة شاكر مع هذه الأيام، لم يستطع القائمقام أن يلتفت إليها. فارتباطه بهذه الحياة التي لم يكن متمسكاً بها كثيراً كان قد وهن أكثر. وإلا فلم يكن ليفوت هذه الفرصة من يده، كان سيرمي بموضوع معزز في وجوههم ويوجه ضربة معتبرة إلى آل حلمي بيك. فلم تكن لتظهر فرصة أكثر مناسبةً من هذه الفرصة لسحق هذا الأب وابنه اللذين كان يقول عنهما بأنهما "الثعابين التي سيسحق رأسها!"

لكنه لم يفعل ذلك، بل إنه فوق ذلك دعى يوسف ورجاه بألا يتدخل في المسألة بأي شيء لكي لا تظهر مشاكل أخرى على السطح وتتسبب في معاناة وإرهاق أكبر له.

لذلك فإن عائلة القائمقام، وكأنها عائلة في بلد أجنبي، لم تظهر أي اهتمام أو علاقة بالمحاكمة التي استمرت مدة أربعة أشهر.

أما أفراد العائلة الثلاثة الآخرون فقد كانوا مسرورين في دواخلهم لحدوث هذه الجريمة.

كانت شاهيندة مسرورة لأنها لن تضطر إلى تزويج ابنتها لبقّال، ويوسف أحس بحمل ثقيل ينزاح عن ظهره، رغم أنه كان حزين حزناً عميقاً على علي. أما معزز فقد كانت مسرورة لأنها اعتقدت أنه أصبح بإمكانها أن تبوح بمكنونات قلبها.

10

لكن يوسف لم يمنحها الفرصة لتفعل ذلك. ولم يبد أنه سيفعل.

كان وليوفي بالوعد الذي وعده عليّا قد آثر بمعزز له، وحاول مسح كل ذكريات الليلة التي قالت له فيها معزز "أعرفت من أريد الآن؟" وحذفها من رأسه.

أدرك سريعاً أنه لن يستطيع إخراج تفاصيل تلك الليلة التي استقرت في ذاكرته، لكنه كان مسيطراً ومتحكماً بنفسه إلى درجة عدم التفكير فيها أو إصدار أحكام بشأنها.

في الوقت الذي كان قد عوّد فيه مشاعره على ظلام خدر حدثت الجريمة. لم يستطع تصديق وقوعها في البداية. خاف من هذه المصادفة. ثم عاد رويداً رويداً إلى خدره القديم. أفكار كثيرة لا يفهمها بوضوح كانت تجول بخاطره وتثير حزنه:

كان حزيناً على موت علي، وعلى وقوعه في مأزق أمام معزز.

فالفخر الذي شعر به عند إيثاره بمعزز لعلي يجعله الآن يعتقد بأن في وضع يده على تركة الميت دناءة ووضاعة.

بالطبع ليس من السهل أن يقول لها:

"تعالي، صحيح أنني ضحيت بك مقابل تسوية مسألة، فلم تكن لك عندي أهمية كبيرة، أما الآن فقد زال المانع، وحتى ظهور مشكلة أخرى فأنا مرتبط بكِ!"

ولعدم قدرته على أن يوضّح لنفسه، فلم يجد حلاً غير الاستمرار في انغلاقه القديم. فكان يعود إلى البيت ويأوي إلى النوم مباشرة، ويمضي سائر وقته في الخارج، في مزارع الزيتون أو البراري.

في أواخر الأيام بدأ يفكر في نفسه كثيراً، وتدريجياً وصلت أفكاره إلى مأزق: ما هو؟ وماذا سيكون؟

حالياً لا يقول له أبوه شيئاً، ولم يكن يقول له شيئاً قبلها حتى. لكن صمت أبيه ذلك لم يكن ليمنعه من الشعور بكونه في وضع غريب. أكان ابن القائمقام سيستمر في التسكع بلا هدف وأكل الخبز الجاهز حتى يصل الثلاثين؟ وماذا بعد ذلك؟

أي صنعةٍ تعلم؟ وأي عمل يتقن؟ كان عندما ترك المدرسة قبل سنوات قد فكر في أن يحترف مهنة، كأن يصبح حوذياً أو خياطاً أو بائع حلوى أو ما شابه. لكن الحكايات التي سمعها عن ظلم المعلمين الحرفيين، والحوادث التي كان شاهداً عليها بنفسه جعلته يتراجع عن تلك الفكرة سريعاً. بعد ذلك كانت شؤون الزيتون والحمص (بجانب مزرعة الزيتون حقل بمساحة

دونمين يزرعه ويحصده منذ ثلاث سنوات) تلهيه. لكنه الآن شاب بالغ وعليه أن يتقن عملاً ما. ولكن أي عمل؟

كما أنه بدأ وهو في وضعه هذا ينسج خيالات بشأن معزز. ولكن بأي وجه؟ حتى يقضي على خبز أبيه الذي لا يكاد يكفي شخصين؟ نعم، فعندما يحصل على معزز سيتحمل عبء نفقتها وحده، ولن تكون لوالده أي علاقة.

يفكر لأيام، لأشهر، ولكن لا تخطر على باله فكرة جيدة. كم سنة سيستمر هذا الحال؟

فكر أكثر من مرة بأن يهجر البلدة ويذهب إلى بالكسير، أو إلى باندرما ويعمل عند أحد الأغوات سائقَ عربةٍ، أو مديرَ عمال. لكنه لو فعل ذلك فسوف يحزن أباه ومعزز، وشاهيندة حتى. وهل له حق في ذلك؟ أيقابل إحسان أبيه له بأن يتركه هكذا وبلا سبب؟

عليه أن يجد طريقة وحلاً آخر. يجب أن يكون له مكان ثابت وسط هؤلاء الناس الذين يعيش بينهم منذ عشر سنوات دون أن يعتاد عليهم. مكان يعتمد عليه، ويكون له وحده...

لكن عليه من اليوم فصاعداً أن يفكر بأشياء أخرى. ربما يجد لنفسه فتاة، وينساب مع نهر الحياة الذي يراه يجري ويمضي من حوله.

***

حل الصيف مع قيظه، وبدأت إدرميت تفرغ من ساكنيها في النهار تماماً. فالجميع يقضون أوقاتهم في الحقول، والمزارع، وجنت أياغي وعند جداول الماء، وبساتين السفرجل، وفي المغرب يعودون إلى البلدة المختنقة من الحرارة الرطبة.

كان بيت القائمقام يحافظ على سكونه القديم. صلاح الدين بيك ما زال في هزاله المشتد يوماً بعد يوم، وشاهينده هانم لم تتوقف عن زيارات جاراتها ونزهاتها المعتادة.

في الأيام الأخيرة أصبحت تصطحب معها ابنتها إلى جلسات الطرب والمتعة تلك.

حتى معزز التي كانت محبوسة في البيت تقودها أفكارها إلى الاكتئاب كانت مسرورة من ذلك.

كانت تؤمل بطريقة ماكرة أنها ستستطيع أن تسوق يوسف إلى أن ينشغل بها من جديد.

ثم إن صديقاتها كن يتواجدن في الأماكن التي كانت تذهب إليها، وحفلات العود والأغاني المتكررة كل يوم تقريباً، والمحادثات المسلية كانت تلهيها.

ذهبتا إلى بيت آل حلمي بيك عدة مرات كذلك. ولأنهما تعرفان أن يوسف لا يحب هذه العائلة، وأنه سيغضب لو عرف بزيارتهما لهم خاصةً بعد مقتل صديقه علي، لم تذكرا ذلك في البيت.

مرض صلاح الدين بيك وسقامه، وفترات ابتعاد يوسف عن البيت الطويلة تركت شاهيندة حرة تماماً.

حتى العلاقة والرابطة التي أظهرتها نحو زوجها في نوبة المرض الأولى تحولت مع الوقت إلى مجرد عادة. أصبحت تعامله وكأنه مريض منذ سنوات طويلة. في بعض الليالي، وعندما يبدأ المسكين بالأنين والسعال ومحاولة التنفس رغم الاختناق، ويده على قلبه، كانت تستيقظ نصف استيقاظ وتمد إليه بزجاجة الكولونيا، وإذا كانت النوبة أشد تناوله ملعقة من الدواء الذي وصفه له "طبيب العسكرية" أو تشممه أثيراً.

يوسف هو الذي كان مشغولاً بالقائمقام حقاً. في كثير من المرات كان يذهب إلى مقر عمل أبيه عند الغروب، ينتظره في الأسفل حتى يخرج ثم يعود معه إلى البيت. وفي أثناء عودتهما كانا يتحدثان عن العمل والبلدة ووضع محصول العام وبعض الحوادث المتعلقة به.

كان نطق يوسف ولو بالقليل من الكلمات، وهو الذي لم يكن يتكلم قط، يوقع صلاح الدين بيك من الدهشة ويجعله يشعر بتغير ما في يوسف.

من الممكن القول بأنه لم يبق في يوسف أثر من طبعه الواثق في نفسه والمتحدي للعالم. حتى حين يتحدث لم يعد ينظر في عين من يتحدث إليه بنظرات قاسية تقول: أهذا السخف هو ما كنت تريد قوله؟ بل حتى في أحيان كثيرة كان ينتظر من أمامه أن يكمل له جملته التي تركها ناقصة، يعني أنه أصبح يحتاج إلى من يساعده في جمع أفكاره التي أصبح عاجزاً عن شرحها كاملة.

لم يكن يسأل أحداً أي شيء في الماضي، ينصت فقط من دون قول شيء، الآن أصبح يسأل ويستفسر عن كثير من الأشياء. الأشياء التي كانت تثير فضوله كانت متعلقة أكثر بالحياة اليومية وبالناس في بيئته. بدأ يوسف يفقد غربته رويداً رويداً ويظهر ميلاً إلى الاندماج مع محيطه.

صلاح الدين بيك، مع رؤيته لهذا التغير كان يُسرّ ويحزن في الوقت نفسه. فقد اعتاد على يوسف القديم جداً. فهو يميل إلى يوسف القديم المتحكم، العنيد، مرفوع الرأس. لكنه لا يستطيع أخذ يوسف المطأطئ الخجول المتردد على محمل الجد.

لكن نفسيته لم تكن في حال تسمح له بالبحث عن سبب هذه التغيرات. فهذه المشاعر التي تحدثنا عنها كانت تمر من عقله وتُنسى على الفور؛ لدرجة أنه عندما تراوده نفس الفكرة من جديد كان يظن بأنه يلاحظها لأول مرة، ويحزن أو يُسر وأحياناً يتعجب.

ينجز أعماله الرسمية باعتياد منحته إياه السنوات الطويلة، وعندما يسأم يترك بعضاً منها لكاتب التحريرات ويذهب إلى البيت، يتمدد على المرتبة في الغرفة المظلمة المشرفة على الشارع، ويفكر في سنوات حياته الفارغة المشكّلة لحياته.

عندما يغمض عينيه يرى جبالاً كثيرة، ومنحدرات عشبية، ومدينة ذات بيوت من قرميد أو خشب أو حجارة والكثير من الناس، لكنه لم يكن يشعر بأي رابطة تجاه أحد منهم. ذكريات حياته كلها كانت سخيفة وبلا معنى. لو أن حوادث حياته لم تحصل لما اختلف شيء، ولو أن أياً من الناس الذين دخلوا حياته لم يدخلوها لما اختلف شيء. لم يكن يجد شيئاً في ماضيه يجعله

يقول: آه.. لماذا فعلت ذلك؟ أو: آه.. لماذا لم أفعل ذلك! وليس ذلك لأن عمره بلا شقاء، بل لأنه كان طوال سنوات حياته، كما هو الآن، غير مبال.

ماذا كان سيريد من الحياة؟ وُلد، كبر، درس، انخرط في الخدمة الحكومية وجال في البلاد، شاخ، تزوج وقضى حياةً كلها ثرثرة وعراك، ثم وصل إلى هذه الحال في النهاية...

كأن الآخرين كانوا يعيشون بطريقة مختلفة؟ كيف لأحد أن يعيش حياة مختلفة؟ إذا تحدثنا عن المتعة، فإن حياته لم تخل منها قط. فعوالم الشراب التي كان يرتبها مع بعض أصدقائه المقربين في مدن عمله المختلفة ما زالت من الأشياء المرغوبة. في شبابه لم يكن يضيع فرصة للمتعة والتنفيس، ارتكب موبقات لذيذة أحياناً مع خادمة أرمنية، وأحياناً مع أرملة ضابط، وحتى حين يمر طريقه بإسطنبول كان لا ينسى التسكع على أرصفة شارعي تيموني والبندقية Timoni and venedik. لا يمكن للحياة أن تعاش بطريقة أخرى.

لو أغمض عينيه الآن فلن يتحسر على شيء. يفكر ولا يستطيع تصور شيءٍ يحزن على فراقه. حتى ابنته لم تكن تربطه بهذه الدنيا. ففوق لا مبالاته كان لديه تسليم صامت للقدر. فما دام أنه ليس بيده تغيير أي شيء، وبما أنه سيمشي في الطريق المرسوم له سلفاً، فعلى المرء العاقل في هذه الحال أن يشاهد ما يجري مبتسماً وينتظر دوره.

لكن كانت هناك مسألة تشغل فكر صلاح الدين بيك بعض الشيء: ما الذي سيؤول إليه حال معزز بعد وفاته؟ لا يظن بأنها ستبقى في البيت بمعية يوسف وأمها ولا تتزوج، كما لم يكن يريد أن يخصص جزءاً يتحدث فيه عن موضوعها في الوصية. آه لو يرى ابنته تتزوج رجلاً شريفاً قبل مماته ويرتاح

من هذا القلق، عندها سيرغب بأن يفارق هذه الحياة... فقد كان يقول: ما الذي بقي لي لأفعله هنا؟ لنفرغ أماكننا في هذه الدنيا ونتيح مجالاً للقادمين الجدد..

لكنه لم يكن ليثق في شاهيندة بأي حال، ويشعر بالقلق إزاء موته وترك ابنته بين يديها. ما المشكلة لو سوّى هذه المسألة قبل أن يرحل من هذه الدنيا التي لا يحس بأي رابط تجاهها؟

لكن كيف؟ مَن مِن الممكن أن يطلب يدها، مَن مِن الممكن أن يأخذها؟ أحوال من وضعوا أعينهم عليها وحاولوا أخذها واضحة. أما شاكر بيك، فقد كان يتسكع بكل راحة ملوحاً بيده هنا وهناك. ليس من السهولة إيجاد بطل يريد أن يتلقى رصاصة.

ثم إن إعطاءه ابنته لرجل تتناول اسمه الألسنُ كثيراً، رجل افتعل حادثة من أجل ابنته لم يكن لينظر إليه بعين الرضى والاستحسان أبداً. فهذه البلدة صغيرة.

لو لم يقطع صلاح الدين بيك علاقته بهذه الدنيا مبكراً هكذا ويبدأ بالعيش غريباً في هذه الحياة لربما طلب أن ينقل إلى مدينة أخرى، فيبحث عن نصيب مناسب لابنته هناك. لكن الرجل السقيم كان ينتظر شيئاً ما أن يحصل بنفسه، ولا يفكر في أن يفعل شيئاً.

مقارنة بصلاح الدين بيك، كان لشاهيندة هانم بعض الدهاء، كانت تعرف بأن كل سبل تزويج معزز قد أقفلت باستثناء حل واحد. ولم يكن هذا الحل إلا إعطاءها لمن كان يريدها منذ زمن: شاكر بيك...

ولم يكن من الممكن تحديد ما إذا كانت ستغير رأيها في هذا الشأن لو علمت بما فعله بالفتاة كبرى من قبل. لكن لم يعد يوسف ولا صلاح الدين بيك يريان ضرورةً في التطرق لهذه الحادثة من جديد، كانا يعتقدان أن موضوع شاكر أُقفل نهائياً. لم يخطر ببال أحد منهم احتمال وجود خطط أخرى تدبرها شاهيندة أبداً.

كانت شاهيندة في الواقع، سواء اعترفت بذلك لنفسها أو لا، تعرف أن صلاح الدين بيك لن يبقى فوق رؤوسهم طويلاً، وتبحث عن حل يدبر معيشتهم بعد رحيله.

لم تكن مزرعة الزيتون والحقلان المجاوران لها ليسدوا جوع ثلاثة أشخاص ولا حتى لشهر واحد في السنة. أما النظر إلى ما في يد يوسف فقد كان أمرّ الحلول. فمن الأشياء التي لا تطيقها هي أن تأكل من خبز هذا الولد المغرور العنيد وأن تبقى تحت إمرته. لنرَ أصلاً إن كان يوسف سيستطيع أن يؤمن لقمة خبزه هو نفسه. من الحكمة على كل حال أن تعثر على صهرٍ أسدٍ يحمي ماء وجهها من الانسكاب أمام هذا "الولد المتبنّى"، وتؤمن مكاناً لها في صدر المجلس.

أصبحت عربدة شاكر وسكره منسية تقريباً. لكن الحادثة التي جعلت

الناس تنسى ذلك، حادثة قتله رجلاً، لم تكن تبدو فظيعةً في عيني شاهيندة أبداً.

ربما كان اعتبار الناس في هذه المدينة القتل بطولة وشرفاً، أو أن حقيقة قتله رجلاً من أجل ابنتها يجعل شاكر يبدو أقرب وأحب إليها.

ثم إن صداقتها الوثيقة بأم شاكر وانزياح العوائق التي كانت بينهن بصعوبة - جعلتها مرتبطة بتلك العائلة.

كما أن أبّهة وفخامة منزل آل حلمي بيك، وجاذبية الهدايا التي عادت تمطر عليها من الأم وابنها كانت عوامل مهمة لتقوية هذا الرأي عندها.

لكن معزز لم تعد مترددة وتابعة لأمها كما كانت قبل شهرين أو ثلاثة. كان في داخلها اهتمام متنامٍ يديرها ويهدي تصرفاتها.

انفعالها الذي سببه تعامل يوسف البارد معها كان ينحل ويزول، ويحل مكانه فضول لمعرفة سبب ما فعله يوسف. يوسف الذي كان أقرب شخص لها في حياتها منذ طفولتها، المعين والداعم لها في كل زمان ومكان، والذي نظر إليها في تلك الليلة بحنان وإخلاص، والذي يفهمها جيداً، لم يكن لينساها الآن بلا سبب. حتى في تهربه المبالغ به منها بهذه الطريقة هناك شيء غير طبيعي.

رغم أفكارها تلك إلا أن الفتاة كانت مستمرة في التجول والتنزه مع أمها. حتى أنهما ذهبتا إلى بيت آل حلمي بيك عدة مرات. لم تشعر معزز هناك أنهم يعاملونها كضيفة غريبة. في الوقت الذي طلب فيه شاكر يدها ولم يعتقد بأن طلبه سيرفض كانت تُستقبل هناك بحرارة، تقبلها الأم وتجلسها بجانبها،

ولا تدعها تغادر البيت في كل مرةٍ إلا بهدية.

بدأت طقوس استمالة القلوب المتكررة هذه تثير ضجرها هذه المرة.

لم تكن تخرج مع أمها إلا لتنجو من الجلوس وحدها والاضطرار إلى التفكير، لكنها لم تكن ترغب في الذهاب إلى آل حلمي بيك.

لم يكن إلا حينما دُعيتا إلى البستان في منطقة جنت آياغي، ورأت شاكر بيك وهو يتجول ويحدق فيها من بعيد، حتى شعرت بالنفور من هذه العائلة، وسرت في جسدها رعدة وشعرت بالخوف.

لن تستطيع تحمل هذه الحياة أكثر. لا تعجبها الأشياء التي تحبها أمها وتستمتع بفعلها، وحتى إذا جالست من كنّ في عمرها من الفتيات لم تكن تجد شيئاً تحدثهن به.

حياة مرت في وحدةٍ، ممتلئةٌ بخيالات وأفكار، جعلت بنت الخامسة عشرة هذه مختلفة عن قريناتها. أصبحت الآن تفكر كامرأة، وتبحث بنفسها عن حلول لمشاكلها.

عليها أن تفعل شيئاً، أن تضع حداً لكل شيء. مرة، وبينما كانت تخطط لكيفية عمل ذلك صادفت يوسف في البيت. ربما مرت أسابيع منذ آخر مرةٍ رأته فيها عن قرب. أفزعها شحوب وجهه. قالت ناسيةً كل ما خططت لقوله من قبل:

"أخي يوسف، ماذا حصل لك؟"

"ما الأمر يا بنتي؟"

"وجهك في غاية الشحوب... هل أنت مريض؟"

"لست كذلك... أنا حزين على أبي. كما أن الوحدة. والبطالة... واضطراب البال.."

"كيف هو أبي؟ تحسن هذه الأيام، أليس كذلك؟"

ضحك يوسف لسؤالها عن أبيها بهذه الطريقة العادية:

"لا يرتاح على السرير..." ثم أردف كأنه يهمهم بينه وبين نفسه: "ربما لن يرتاح".

"ماذا تقصد؟"

ضحك يوسف مجدداً. ثم قال مغيراً الموضوع:

"أين أمك؟ في جولاتها أيضاً؟"

"نعم".

"لماذا لم تذهبي معها؟"

"لم أشعر بالرغبة في الذهاب..."

كررت بعد صمت لمدة وجيزة، وبعد أن حدقت فيه بإمعان وهي تشدد على مخارج الحروف:

"لم أشعر بالرغبة في الذهاب".

أثناء هذه المحادثة كان يوسف مشتغلاً بارتداء حذائه واقفاً بجانب الباب.

قالت الفتاة الشابة فجأة وهي تراه متعجلاً في الذهاب بصوت حزين نابع من أعماقها:

"لكني قد أشعر بالرغبة في ذلك يوماً ما!"

"في ماذا؟"

هزت معزز كتفيها.

فتح يوسف فمه ليصرّ مستفسراً من جديد، ثم تراجع عن ذلك وأدار ظهره، ثم فتح الباب وخرج إلى الشارع.

12

كانت الشمس فوق التلة تماماً. نسي يوسف أين يريد أن يذهب ولماذا خرج من البيت أصلاً. لم يكن في باله إلا فكرة واحدة: الهرب، الابتعاد عن البيت، ألّا يعود ويسأل معزز: ما الذي ستشعرين بالرغبة فيه؟ ماذا؟

كان يحث الخطى وهو يحس بأنه لو أبطأ في المشي فسيستعيد التحكم في نفسه ويعود ركضاً. وجد نفسه بعد مدة في الغيطان الواقعة جنوب البلدة. نظر حواليه ليلهي نفسه. كان يعرف كل الحقول، والمزارع، بل وحتى أشجار الزيتون كان يعرفها واحدة واحدة. حل أحد أزرار قميصه. شمسٌ قائظة كانت تحْمس المكان، وصرخات حشرات الجدجد تتعالى باستمرار. مشى يوسف بعين نصف مغمضة وهو يتعرق. وبينما هو يمشي وصلت رائحةٌ تشبه رائحة أشجار الزيتون الوقورة إلى أنفه. فتح عينيه. وجد أنها كانت شجرة تين. كانت رائحة شجرة الجوز والتين تخلب لبّه مذ كان صغيراً.

للجوز رائحة عجيبة، تشابه بعض الشيء رائحة العطريات التي يبيعها العطارون. رائحة حلوة ولطيفة. بينما رائحة التين ليست بالجميلة أبداً. رائحة لزجة ودبقة وثقيلة. يعتقد أن حليب التين وعصارته تتبخر بفعل حرارة الشمس وبأن ذلك هو سبب هذه الرائحة ومع تنفسه يمتلئ منخراه لزوجة ودبقاً.

تابع مشيه من جديد مغمضاً عينيه. كان غارقاً في عرقه. كانت الأرض مشتعلةً لدرجة أن الحرارة كانت تخترق جلد نعله وتحرق قدميه. حتى أوراق الزيتون الداكنة كان الضياء يجعلها تبدو شفافة: ضياء يعمي الأبصار، يغلي الأشياء ويخلطها مع بعضها... كأن الشمس تصب شعاعها على الأرض بواسطة دلو.

بعد أن مشى أكثر وصل إلى مجرى جدول قد جف، ووجد عنده ألف نوع ونوع من النباتات؛ أغصان شتائل الدلب الصغيرة والصفصاف متشابكة ببعضها، ورائحة أشجار كف مريم الحمضية تنتشر في الأرجاء، وشتلات دلفى تلمع بزهور في لون الأرجوان وتهتز، وقشات مصفرة، وأشواك،

وقصبات، ونعناع بري، وشتلات سفرجل بري متداخلة في بعضها. ويحيط بكل ذلك حصىً وطين. حتى هذه الحصوات كانت تبدو مقلية بفعل الشمس ومنكمشة.

انضم يوسف لجمع النباتات هذا. ولت سحلية هاربة بسرعة وسكتت بعض صرارات الليل. ثم عاودت الصرير. حل يوسف ياقة قميصه وخلع سترته. فتح فمه محاولاً التنفس وهو متعب ومنهك. استلقى على الأرض. ولكي يريح رأسه أزاح الحصوات التي كانت أسفل الشتلات، وحفر قليلاً حتى يجد تربةً رطبةً وباردة. لكن كل شيء كان جافاً وحاراً كالنار. ربما اضطر إلى حفر مقدار ذراعين حتى يصل إلى بعض الرطوبة.

غطى عينيه بذراعه واستلقى على ظهره. حتى من خلف أوراق الأشجار كانت الشمس تضايق بصره. أحس يوسف بضجيج في رأسه. الآن أصبحت الجملة التي لم يستطع تذكرها تدور حول رأسه كلمةً كلمةً حتى تدخل. ماذا قالت معزز؟ أقالت: قد أشعر بالرغبة في ذلك يوماً ما؟ ... أقالتها جازمةً بهذه الطريقة؟ أم قالت: ربما إذا رغبت بذلك! الأولى تشبه التهديد أكثر وليس لها معنى صريح. يفكّر: لو قالتها هكذا فلا بأس، ولكنه يعرف تمام المعرفة أنها لم تقلها بهذه الصيغة. وعندما لاحظ أن الكلمات التي لم يرد إدخالها إلى رأسه كانت تقوم حوله بمقارنات ومقايسات بين بعضها البعض امتعض. وتمنى أن يتوقف دماغه عن العمل ولو للحظة. تمنى ذلك بشدة ومن قلبه لدرجة أن عينيه أدمعتا. وحتى لا يتكلم بسرعة مع نفسه ويصرخ أغلق فمه بيده. بعد قليل أصبح كأنه لا يفكر في شيء وشعر في داخله ببعض الراحة. لكنه اكتشف نفسه بعد مدة وجيزة يتمتم داخل فمه بعصبية: ماذا سيحصل؟ ماذا سيحصل؟

نهض من مكانه. ونفض عن جسده ما علق به من تراب وطين. أدرك أنه لن يستطيع تسكين نفسه بمكوثه هنا. لا يكف عن أن يكرر لنفسه أن المسألة ليست بتلك الأهمية ولا تستحق التفكير، ويهمهم: لأذهب إلى البيت وأتحدث معها... ماذا كانت تقصد يا ترى؟ لكن خطواته كانت تتسارع تدريجياً، فدخل البلدة وكأنه يجري. لاحظته امرأتان كانتا خارجتان من منزل وداخلتان إلى آخر، فتوقفتا لتنظرا إليه. عندما لاحظ يوسف ذلك أبطأ من سرعته وأكمل ماشياً وهو يتلفت حواليه. الشوارع كانت خالية. ثلة من الأطفال كانوا جالسين على عتبات منازلهم يأكلون الذرة. وعلى بعد خطوات إلى الأمام رأى حمير حطابين مفرغة من حمولتها تنتظر دون حركة في الميدان، وأطفالاً يطاردون الزنابير بأغصان الحور الممتلئة بالأوراق. يركضون خلف الزنبور الطائر بطنينه الوقور وهم يتصايحون، وعندما يقتربون منه يلوحون بالغصن بجانبه، فيفقد توازنه ويسقط على الأرض. بعد ذلك يتجمعون كلهم في مكان واحد، ويخرج أشجعهم فيمسك بالزنبور بطرف سترته ويحاول أن ينزع شوكته المدببة التي تحاول اللسع في كل الاتجاهات ثم تنسحب إلى الداخل. أحياناً كان الزنبور يموت، وأحياناً يربطون في قدمه خيطاً بعد أن ينزعون عنه شوكته ويطيّرونه. هذه اللعبة التي تجمع كل متع الصيد ومخاطره وترسل عدة أطفال إلى بيوتهم بأعين منتفخة إلى درجة تحجب الرؤية كل اليوم، كانت من أهم متع موسم الصيف، وعندما يتعرض أحد الكبار المارين بالمكان إلى هجوم زنبور غاضب، كان يصفع عدداً من الأطفال فتنتهي اللعبة بذهابهم إلى بيوتهم وهم يبكون.

تعدى يوسف الميدان وهو يمشي ببطء وتؤدة. كان يحمل في داخله رحمة وشفقة كبيرتين على الزنابير التي تتعرض لهجوم أطفال الحي الرُعَن، والذين ينزعون منها أهم أسلحتها بواسطة أصابعهم الوسطى. سيطر عليه حزن

عميق. أصبح كأنه نسي السبب الذي جاء به إلى البيت. حتى بعد تجاوزه لعدة شوارع وأزقة ما زالت أصوات الأطفال تصل إلى مسمعه.

كان يعرف كل البيوت بدقة، يعرفها من أحجار أرصفتها إلى الأجزاء التي تساقط طلاؤها من جدرانها. لكن في هذه المرة لاحظ أن مصاريع النوافذ كانت أكثر انحناءً من قبل، وأن جدران بعض المنازل قد طليت بطلاء جديد. وفي ناصية الشوارع دائماً هناك موزعات الماء الرطبة الموحلة.

مع اقترابه من البيت بدأ قلبه بالخفقان بشدة. لم يعد يتذكر لأي علة جاء، وبماذا سيتحدث مع معزز. تتأرجح في ذهنه عدة أفكار مشتتة، ترتطم في بعضها وتدور، لكنه لا يستطيع الإمساك بأي منها.

طرق الباب برفق، لحظتها أراد الذهاب والهرب، لكن الباب فُتح.

استجمع يوسف زمام نفسه قليلاً عندما رأى وجه كبرى الشاحب. دخل سائلاً بنبرة لا مبالية:

"أمعزز في الأعلى؟"

"السيدة الصغيرة خرجت".

لم يستوعب يوسف:

"ماذا فعلت السيدة الصغيرة؟"

"خرجت".

"إلى أين؟"

تدخلت أم كبرى في الحديث:

"ادخل إلى الداخل يا يوسف آغا. لقد جاءت أم السيدة الصغيرة وأخذتها معها".

نزع يوسف نعليه ودخل إلى المدخل. نظر باتجاه اليمين، إلى الغرفة المشرفة على الشارع. ثوب معزز المنقش ملقى على الفراش. مشى إلى الطرف الآخر من المدخل، نحو باب الحديقة. سحب الماء بالمضخة وأخذ يشرب بلهفة العطشان. يستحيل أن يكون ماء الجرار بارداً لدرجة أن يخدعه في هذه الساعة.

جفف فمه بيده جالساً على الصندوق الخشبي الأخضر المركون. هذا الصندوق الذي يحوي شوالات من البلغر والبثيعة والشعيرية كان ينشر رائحة عطن إلى الخارج. في الحقيقة فإن الرائحة المسيطرة على هذا الفناء البارد صيفاً وشتاءً كانت رائحة العطن هذه. كما تعبق رائحة عطن قوية من جرار زيت الزيتون المغطاة بأغطية خشبية في زاوية أخرى، ومن درجات السلم الخشبي المتآكل الذي يقود إلى الأعلى، ومن الجدران النيلية، ومن الطرّاحات المرصوصة فوق بعضها والمضخة الموجودة بجانب باب الحديقة.

بعد أن أخذ يوسف نفساً عميقاً، سأل كأنه يكلم نفسه:

"إلى أين ذهبتا؟"

قالت أم كبرى بعد تردد لم يدم طويلاً:

"والله لا أعرف... على الأغلب أنهما ذهبتا إلى... ما اسمهم؟ آل حلمي بيك..."

مد يوسف برأسه ناحيتها:

"إلى آل حلمي بيك؟" سأل. خرجت هذه الكلمات من فمه كالصرخة.

نهضت المرأة من مكانها مقتربة من يوسف. وقالت:

"يوسف آغا، لا أعلم لكن.. يبدو أن هذه المرأة لن تفهم أبداً. وستجعل السيدة الصغيرة مثلها. بعد كل ما حصل ما زالت تستمر بالتردد على دار حلمي بيك، وكأن ذلك لم يكفها فأصبحت تأخذ ابنتها معها".

"أتذهبان دائماً؟ منذ متى وهما تترددان عليهم؟"

"ليس دائماً... لكن الهانم لم تقطع علاقتها بهم قط، الهانم الصغيرة لم تكن تذهب. بيد أنها بدأت تطاوع أمها في الأيام الأخيرة. هذه هي المرة الثالثة، أو الثانية، لا أذكر..."

"ألا تعترض معزز عندما تدعوها أمها إلى الذهاب؟"

"لم تقل شيئاً هذه المرة. رأيتها في مرة فائتة، كانت الهانم مصرةً على أن تأخذها معها، لكن البنت كانت تقول: لا أريد يا أمي، دعيني وشأني. بعدها لم تعد تتحمل ثرثرة أمها وأصبحت ترافقها وهي تتذمر. في هذه المرة جاءت أمها إلى المنزل بعد ما خرجت أنت بقليل. كانت معزز في الأعلى تغني بعصبية. تكدّرت منك على كل حال، لا أدري. عندما رأت أمها سألتها من

أين جاءت. ردت الهانم بأنها قادمة من دار حلمي بيك، وبأنهم ذاهبون إلى البستان، وبأنها جاءت لتأخذها معها. قفزت الفتاة من مكانها وقالت: حسناً، لنذهب حالاً، لا داعي للتأخير، بسرعة يا أمي. نزعت ملابسها بسرعة. ارتدت فستان ساتانها الوردي، وملاءتها، ووضعت غطاء رأسها بصعوبة وخرجت. حتى أمها كانت مشدوهة من حماسها... وهكذا ذهبتا... ماذا نفعل يا يوسف آغا؟ تعلمون ونعلم حقيقة آل حلمي بيك لكننا لا نستطيع إخبارهما بذلك. فعرض أصحاب المال مصون، وشرفهم كذلك!"

قام يوسف من مكانه. نفض يديه وظهره عندما لاحظ بأنه غارق في عرقه. وجم واقفاً لمدة طويلة. لا يفكر في شيء، بل يحاول استجماع قواه وأفكاره. مشى بهدوء باتجاه الباب. عيناه كانتا حادتين ومخيفتين. وبثقة من اتخذ قراراً لن يحيد عنه ارتدى حذاءه بلا استعجال. عدل بيده قلباقه المائل إلى الخلف. وفتح الباب.

حينها هرعت كبرى من مكانها راكضة إليه:

"يوسف، توقف!" هتفت له.

قبل قليل لم تكن تفتح فمها أو تنبس ببنت شفة. حاول يوسف أثناء حديثه مع أمها أن يتصرف كأن هذه الفتاة التي كانت تترك عليه تأثيراً كما تفعل في كل مرة غير موجودة، وأن يصرف نظره عنه كلما وقعت عينه عليها. رغم ذلك فإنها عندما صرخت "توقف!" مر بذهنه شيءٌ كالشرارة، وتذكر أنها ليست فقط الآن، منذ جاءت إلى البيت، بل منذ أن رآها أول مرة، كانت تنظر إليه بعينين واسعتين وحازمتين.

أحس بشعور انسحاق على ظهره، ورأسه كأنه قد حُمّل أرطالاً. هناك بالتأكيد أشياء تخفيها عنه، وفي هذه اللحظة بالذات هناك أشياءٌ تعرفها ولا يعرفها هو. كأن حادثة قد وقعت بينه وبين هذه الفتاة، دون أن يُتَحدث عنها أو يُفكَّر فيها أو ينظر إليها مباشرة. لم يستطع أن يفكر في ماهيتها، إلا أنه شعر باقتراب الإنسانة التي كانت غريبة عنه قبل خمس دقائق بسرعة مثيرة للتعجب منه. سأل وهو يمسك الباب النصف مفتوح بيد ويسند ظهره على يده الحديدية:

"ما الخطب؟"

اقتربت كبرى من الباب. وقالت ببطء وبصوتٍ مختنق:

"إلى أين تذهب يا يوسف آغا؟ ماذا ستفعل لو ذهبت؟"

نظر يوسف إليها وهز رأسه. رددت الفتاة مجدداً:

"ستخطئ بحق نفسك... فطريقك ليس هناك..."

رد يوسف وكأنه فهم هذه الكلمات الناقصة والسخيفة تماماً:

"صحيح. سيكون من الأفضل ألا أذهب... لكن ذهابي ضروري!"

هزت كبرى رأسها بحدةٍ غير متوقعةٍ من جسدها الصغير. وتراجعت خطوة. في هذه اللحظة رأى يوسف في عينيها النظرات الواخزة التي رآها لأول مرة في مزرعة الزيتون، وشعر بأنه مذنب من جديد. ثم هزّ كتفيه محاولاً أن يفهمها بأن الوضع خرج عن يديه.

قالت كبرى:

"اذهب! أنا سأذهب أيضاً. نحن سنذهب. لن أتحمل بعد اليوم!" ثم أدارت ظهرها وقالت مخاطبة أمها: "هيا تجهزي يا أمي، لنذهب!"

كانت المرأة واجمة مكانها كصخرة. لم تسمع ما جرى عند الباب، لكنها فهمت أن شيئاً غير طبيعي حدث.

عادت كبرى لتوجه الكلام إلى يوسف:

"لن ترانا هنا بعد اليوم..."

رد يوسف بثقة العارف، وبسوق بعض الأحاسيس الظلامية له:

"لا نعرف ذلك... نراكما على خير.."

فتح الباب بهدوء وانزلق إلى الخارج. وبعد أن توقف على درجتي الرخام لمدة، باشر في المشي.

13

لم يدر يوسف ما عساه أن يفعل. يشعر بأن كل شيء سيأخذ وجهاً مختلفاً، وبأن على شيء ما أن يحدث، لكنه لا يستطيع التفكير في شيء بشكل واضح وقاطع. ماذا سيفعل؟ تحسس مسدسه بيده. ثم ضحك وهو يرى بأن حركته كانت طفولية. قرر بأن يفعل ما خطر على باله دون أن يجبر نفسه. مشى باتجاه

حي السوق السفلية. وأخذ يفكر بعشوائية في الطريق: عليه أن يذهب إلى بستان حلمي بيك، لكن ماذا لو كان شاكر هناك... ماذا لو ارتكبت مصيبة؟ عندها لن تكون أي مشكلة قد حُلت. مر من السوق كالبرق. هذه ثالث مرة يمر فيها من هنا وهو يمشي بسرعة. نظر إليه بعض من في المقهى بتعجب. وفي أسفل المنطقة، عند الميدان التي تشرف عليه دكاكين الحوذيين كانت هناك عدة عربات خيل متوقفة. تسمر مكانه عندما رآها. جذبته فكرة انغرزت في رأسه فجأة كالمسمار إلى هناك. لكنه استجمع تفكيره خلال دقيقتين، ثم اتجه بابتسامة مرتاحة إلى إحدى العربات وطلب أن يستأجرها لعدة ساعات. قال للحوذي: "سأذهب إلى قدم الجنة وأعود، ربما أتأخر لبعض الوقت". ولمعرفة الحوذي الشخصية ليوسف لم يشك به، تناول أكياس العلف من على ظهر الخيل ووضعها مكان الجلوس. ربط الأحزمة ثم ناول السرج إلى يوسف الذي كان قد قفز إلى العربة.

قاد يوسف العربة ببطء حتى وصل منطقة صوغوك طولومبا. بعدها أمسك بالسوط وجعل الخيل تركض بأقصى سرعتها. كأنه سيفقد وعيه من قلة الصبر. يمد رأسه إلى الأمام كأنه بذلك سيصل قبل الخيل والعربة. العربة الفارغة والضخمة تتأرجح تأرجحاً خطيراً على الطرق المهترئة المرصوفة بالحجارة. كان الطريق الضيق المنخفض المار من بين بساتين منطقة جنت أياغي قاحلاً تماماً. وفي المكان الذي كان في الربيع ممتلأً بالماء كالجدول أصبح ممتلئاً بنباتات القراص، والتي تصطدم بها عجلات العربة الآن وتقطعها ذاريةً إياها في الهواء.

كان يوسف يتنفس بسرعة شديدة. كأنه جاء من البيت إلى هنا ركضاً. في هذه الأثناء رأى المتجولين في البستان الواقع على الطرف الآخر من الطريق.

لو ساق عربته إلى هناك فسيسبب اضطراباً لا لزوم له. أرخى السروج موقفاً الخيول. ثم هبط من العربة وهرول صاعداً رصيف المشاة المرتفع. الخيل، وبعد ركض كل هذا المشوار الطويل، كانت تتحرك مكانها وتتحكّك. عندما اقترب من بستان حلمي بيك التصق بالسور واستمر بالتقدم متوارياً خلفه. يده على مسدسه. لم يكن أحد بالجوار. والشمس بدأت بفقدان حرارتها القديمة. الوقت كان قريباً من العصر. لكن الناس لم يستطيعوا الخروج من مخابئهم بعد بسبب الخمول الذي سببته حرارة الشمس قبل قليل. لكن المنزل الصيفي الواقع في بستان حلمي بيك كانت تصدر منه أصوات أغانٍ وصخب، وتظهر من بعيد امرأتان في البستان تتجولان وتأكلان العنب. خمن يوسف أن إحداهما كانت معزز والأخرى مليحة ابنة رئيس الشعبة. فليس من الطبيعي أن يخرج الكبار في مثل هذا الحر لقطف عنبٍ نصف ناضج وأكله. دار يوسف حول السور الذي يحيط بالبستان. وتفحص كل ظلال الأشجار والأماكن المنعزلة من بعيد. لم يبدُ أن هنالك أحداً غير هاتين البنتين ومن هم بداخل البيت الصيفي. بعد أن اقتنع بعدم وجود أحد آخر رجع إلى باب البستان الخشبي المصنوع على شكل قضبان. دفع الباب بيده ودخل. سمعت البنتان الصوت الذي صدر من احتكاك الباب بالأرضية وهو يُفتح، ونظرتا باتجاه الباب. قال يوسف بصوت خفيض:

"معزز!"

لم تفاجأ الفتاة. تنظر إلى مليحة الواقفة بجانبها دون أن تفهم شيئاً، ثم تتلفت حواليها كأنها تبحث عن أحد. لكن هذا التردد لم يدم طويلاً. عاد إليها انتباهها وقالت لصديقتها:

"استمري أنت في الأكل، سأذهب لأرى... أخي يوسف جاء، ربما

حصل مكروه لأبي".

سرت بجسمها رعدة في الحال وكأنها صدقت الكذبة التي قالتها وخافت بالفعل من كون يوسف يحمل خبراً سيئاً عن أبيها. قلقها يتنامى مع كل خطوة تخطوها ويتنافض جسدها أكثر وهي تركض باتجاه يوسف، وأقدامها ترتطم بالعيدان المغروسة في الأرض المحروثة. انفلتت من فمها لأكثر من مرة كلمة "أبي! أبي!" وعندما وصلت إلى أخيها ارتعبت من وقفته وتعابير وجهه. لكنها أخذت نفساً عميقاً عندما ابتدرها أخوها بسؤاله: "ما الذي جاء بك إلى هنا يا معزز؟" معنى ذلك أن أباها بخير. وأن ما جاء بيوسف إلى هنا هو سبب آخر. كانت ستخشى من غضبه في ظرف آخر. لكن عينيها الآن تدمعان من فرحتين: الأولى ارتياح لمعرفتها أن قلقها لم يكن له مبرر، والثاني سعادةٌ لا توصف لإدراكها أن يوسف جاء هنا من أجلها هي فقط. قالت بوجه بريء:

"ما الأمر يا أخي يوسف؟ وما المشكلة في قدومي إلى هنا؟ لست وحدي، أمي هنا أيضاً".

قال يوسف وهو يحدق فيها:

"أسأل عن سبب مجيئك أنتِ إلى هنا يا معزز، ولا يهمني ما تفعله أمك!"

أرادت معزز أن تحزنه قليلاً، وتتظاهر بعدم الفهم. لا تستطيع أن تمنع نفسها من أن ترد له جزءاً مما فعله لها طوال الأشهر الماضية، كما أن في رغبتها هذه تأثير سعادة وبهجةٍ تتضخم داخلها باضطراد. فهي لا تكاد تضبط نفسها عن أن تقفز متعلقة برقبته. لكنها بدلاً عن ذلك قالت رافعة حاجبيها:

"ماذا أفعل يا أخي يوسف؟ أبقى في المنزل وحدي طوال اليوم؟ أليس لي حق في أن أستمتع ولو بالقليل من وقتي؟"

أطرق يوسف برأسه. أحس بندمٍ شديد على قدومه إلى هنا. خفت حدته وحل محلها تأثّر يشعره بالعجز. أراد أن يرحل من هنا بأسرع وقت. قال دون أن يرفع رأسه:

"حسناً، افعلي ما يحلو لك!" وتحرك مظهراً نيته في العودة من حيث أتى.

عندها اقتربت منه معزز قائلة:

"يوسف!"

"ماذا؟"

"يوسف... ما الذي جاء بك إلى هنا؟"

لم يجبها. صحيح، ما الذي جاء به إلى هنا؟

"أأتيت إلى هنا من أجلي؟"

هز رأسه غاضباً وكأنه يعترف بشيء مخجل:

"نعم!"

عندما نظر إلى وجهها وثب قلب معزز من مكانه. فقد كان وجه يوسف يحمل نفس تعابيره في تلك الليلة وهو يقول لها: "أفهم".

قالت معزز فجأة:

"هيا يوسف، لنذهب!"

هز يوسف رأسه مجدداً، ووجهه محمرّ، موافقاً.

"سأدخل وأحضر ملاءتي وأعود فوراً.."

أمسك بها يوسف من خصرها:

"اتركيها، لا لزوم، امشي معي!"

قالت الفتاة:

"وهل يليق هذا؟ ماذا تقول أمي؟ ماذا يقول العالم والناس؟"

قال يوسف وهو يخرج من البستان ممسكاً بها من ذراعها:

"لن يقول أحد شيئاً... ولو قالوا فلن يحدث شيء..."

قالت معزز عندما رأت العربة من على بعد:

"سنعود بهذه؟"

"نعم!"

"حسناً، دعني فقط آخذ غطاء رأسي. سأعود على الفور..."

ثم همست له غارسة عينها السوداء الطفولية فيه:

"أم أنك خائف من ألا أعود؟"

هز رأسه نافياً:

"ستعودين...أعرف ذلك".

"ما دمت واثقاً لماذا لا تتركني؟"

قال وهو يحكم قبضته على ساعدها بعصبية:

"لا ضرورة لذلك!" ثم أردف بشفتين مرتجفتين: "ليكن ما يكون، فلن أتركك بعد اليوم أبداً!"

وصلا إلى جانب العربة. ساعد يوسف الفتاة اليافعة على الركوب، أرخى الستائر المشمعة للأبواب الجانبية وقال بعد أن ركب في الأمام:

"اجلسي إلى الخلف قليلاً كي لا يراك أحد".

ثم تناول السوط وقاد العربة. خرجا إلى الطريق مارين من خلف البستان. أما ابنة رئيس الشعبة مليحة فقد كانت ما تزال تأكل العنب، وبين حين وآخر تتلفت لتبحث عن معزز.

جعل يوسف الخيول تركض بأقصى سرعتها. معزز في الداخل منكمشة في إحدى الزوايا مشبكة يديها حول ساقيها تفكر. وحين تقفز العربة بفعل الاصطدام بحجر أو تنعطف بسرعة كانت تصدر صوتاً خفيفاً: "آآآ! آآآ"

ثم تعود لتصمت. هجمت على صدرها فجأة هواجس عديدة. كأنها بدأت تخشى من نهاية هذه الرحلة. إلى أين كانا ذاهبين؟ إلى البيت بالطبع... هل كان متجهاً إلى البيت بالفعل؟ لم تكن تستطيع رؤية وجهه من مكانها في الخلف بوضوح، لكنها تعرف ما بنيّته تماماً.

لم يكن ذلك بوجه إنسان يأخذ أخته إلى البيت. أبداً. فهذا الوجه وجهٌ لم تره معزز من قبل. كأن عضلات وجهه تجمدت وشدت جلد وجهه معها. كانت معزز تعرف أن وجهه على تلك الحال دون أن تراه بوضوح.

حتى ظهره كان غريباً، أحياناً يتضخم مغطياً مقدمة العربة كاملاً ومعتماً داخلها، عتمة تامة. وقتها لا ترى معزز شيئاً وتشعر برغبة في الصراخ... لم يكن ظهره فقط، بل حتى شعره القصير الخارج من تحت قلباقه وأذناه المشتعلتان حُمرةً تضخمت. يخيل إلى معزز أنها ترى شعره يتثاخن ويطول، وترى لهباً يتطاير من أذنيه.

أصبح يوسف الآن وكأنه يقفز من مكانه. خافت معزز التي لم تكن ترى ما بالخارج. ويوسف يضرب بالسوط بشدة ويجعل الخيول تعدو بجنون. فتحت معزز الستارة جزئياً ونظرت إلى الخارج. رأت بالخلف فارساً يشبه شاكر يبتعد ويختفي. عندها امتلأ داخلها بحس استخفاف كبير تجاه أمها. معنى ذلك أن أحداً ما أخبر شاكر بوجودها في البستان، فركب فرسه وجاء على الفور. شعرت بالرغبة في أن تقترب من يوسف ببطء وتحتضن جسده كله وتهمس له في أذنه المشتعلة:

"أنا راضية يا يوسف، افعل بي ما تشاء، لكن لا تتركني ولو دقيقة واحدة". في تلك اللحظة تسلقت العربة مرتفعاً مستقياً. عندما رفعت

معزز الستارة مجدداً رأت أنهما في منطقة المضخة الباردة (صوغوك طولومبا) فصرخت سائلة:

"يوسف، إلى أين نحن ذاهبان؟!"

لأن الخيل لم تنعطف إلى الطريق المؤدي إلى البلدة، وسلكت طريق هاوران.

لم يقل يوسف شيئاً، ولم يلتفت إليها حتى، وأكمل قيادة الخيل. لكن معزز لم تعد خائفة. فالجسد الذي يغلق مقدمة العربة كان يمدها بإحساس أمان لا متناهٍ.

14

كان الطريق المحاط بجدران من أشجار الزيتون يمتد لعدة مئات من الأمتار، وينعطف خفيفاً في بعض أماكنه. والشمس المنخفضة كانت بعد أن تضيء قمم الأشجار بلون أحمر تضرب زاوية الطريق، ثم تنسحب تدريجياً من هنالك أيضاً إلى جذوع الأشجار متجهة إلى الأعلى ببطء.

وأشجار الزيتون المحدودبة المعوجة، المائلة بجذوعها إلى الخلف أو منحنية إلى الجنب، لولا أغصانها وأوراقها لكانت تذكّر المرء بالمقابر. لكن نسيم المساء البادئ للتو كان يجعل أوراق الأشجار الصغيرة المتينة تصدر صوت حفيف محتكة ببعضها، ويجعل جذوعها العجوزة كأنها تستعيد حياتها، وتستخدم الفجوات في أجسادها كأعين تنظر بها حولها.

كانت العربة المتقدمة تاركة خلفها سحابة غبار خفيفة تحافظ على سرعة ثابتة، ويشكل عدوها المجنون تبايناً مع حركات محيطها الخفيفة وأصواته التي تشبه الهمس.

كان يوسف مستمراً في تقدمه غير ملاحظ للأشجار التي كانت تشكل حلقات حول الطريق وتبتعد، ولا للقرويين وهم يبعدون حميرهم عن الطريق بسرعة وهو يمر بقراهم. بعد مدة سحب الأعنّة مخفضاً من سرعة العربة. وصلا إلى مكان محاط بالحقول من الطرفين. نظر حوله ثم قاد الخيل إلى طريق ينعطف يميناً في الأمام.

كان هذا الطريق يؤدي إلى أيواليك ماراً ببرهانية. ثم أعاد العربة إلى سرعتها الأولى من جديد. بعد نصف ساعة بدأت أشجار الصفصاف والحور تحف طرفي الطريق. والظلام هبط بعتمته. لم يكن في الطريق أحد. عند دخولهم إلى برهانية أضيئت أنوار الجامع وبعض المقاهي. قطع يوسف البلدة من دون توقف مكملاً طريقه. ظهر أمامه جدولٌ جاف وواسع. الخيل تغوص حتى مرافقها في الوحل وتبذل جهداً قاسياً لتخلص أجسادها الغارقة في العرق منه. قفز يوسف هابطاً من العربة وأمسك برؤوس الخيول وساقها ببطء خارج المنطقة الموحلة. بعدها أراد أن ينتظر مدة يريح فيها الدواب. أخرج أكياس العلف من تحت مقعده ونظر داخلها. كانت ممتلئة بالشعير. وبعد أن أرخى أربطتها وتركها تقضي حاجتها وضع أكياس العلف على رؤوسها. عندها فقط فكر بالاقتراب من العربة والنظر داخلها.

عندما أبعد الستارة الجانبية ونظر إلى الداخل لم يستطيع تمييز شيء في البداية. رأى عتمة حالكة. بعد أن بدأت عيناه تعتادان على الظلام لاحظ وجود جسم في الخلف بين اللبادات. أدخل يده من باب العربة متحسساً في

الظلام هامساً:

"معزز!"

"يوسف!"

صدر صوت حركة واقترب فستان معزز الساتاني الوردي من هذا الاتجاه. ورغم أن الجو كان حاراً إلا أن الفتاة ما تزال ترتجف. سأل يوسف:

"أتشعرين بالبرد؟"

"لا، ولِمَ أبرد؟!"

"ألست خائفة؟"

قالت بعد سكوت وجيز، ونبرة قاطعة:

"لا".

لم تسأله إلى أين هما ذاهبان، ولم يعد يهمها ذلك. حتى يوسف لم يكن في حال تجعله يتكلم. رأسه خالٍ تماماً. فأحداث اليوم المتتابعة منذ الظهيرة جعلته مشوشاً. عدا رائحة عرق الخيل، لم يكن في عقله أي شيء آخر في هذه اللحظة... والأصوات التي أصدرتها العربة وحوافر الخيل بسبب الطرق المهملة ما زالت تطن في أذنيه. حاول أن يرفع حاجبيه المبيضين بفعل الغبار ويبتسم. أسند رأسه إلى ذراع معزز التي اقتربت من باب العربة، ومكث على هذا الحال مدة يتنفس بعمق. كان على وشك أن ينام. عندها لم تستطع معزز أن تمنع نفسها عن السؤال:

"هل سنكمل أكثر يا يوسف؟"

"سنتقدم قليلاً، لنر، ربما نصل إلى قرية... فأنا لا أعرف هذه المناطق.."

كانت ستسأله: لماذا لم نبق في برهانية؟ لكنها تراجعت. خمنت أن يوسف نفسه لا يعرف لماذا لم يبقيا في برهانية، ولا لماذا سيتقدمان أكثر، لذلك لم ترد أن تكدر خاطره بالسؤال.

أصبح القمر يرتفع رويداً رويداً ويتخطى العربة منيراً آذان الخيول المنهمكة في أكل الشعير بلا صوت. الجسر الموجود في الأمام على مسافة منهم، والأشجار خلفه، والبحر الممتد خلف كل ذلك، كلها عادت إلى الحياة فجأة، ضوء أبيض باهت ألقى بكل شيء إلى حياة جديدة. كانت حياة مختلفة تمام الاختلاف عن حياة النهار، ولا تُبلَغ إلا بعد تجاوز العتمة التي كانت قبل قليل. الطبيعة التي كانت تتمدد مختنقة تحت الشمس الغاضبة، ولا تُظهر حياتها إلا بواسطة الضوء، اتخذت روحاً أخرى أثناء هذه العتمة المستمرة لنصف ساعة فقط. هذه المرة تظهر حياتها وحيويتها باهتزازات خفيفة وتغلف كل الموجودات بنفس مليء بالحياة وناعم كالزغب. صرارات الليل المتواجدة في طرف الجدول تصدح بصريرها. ومع حركات أقدام الخيل المفاجئة يتطاير الجراد هنا وهناك. والنسيم، رغم أنه لم يشتد إلا أنه الآن غدا يُشعر بشكل أفضل. تمييز الأصوات عن بعضها أصبح في غاية السهولة؛ أوضح، أعذب وتفهم بشكل أفضل.

كان يوسف عند باب العربة، ذراعاه داخلها ورأسه مسند على معزز بإرهاق شديد، ينتظر بصمت. بين فينة وأخرى كانت معزز ترفع ذقنها ملامسة به رأس يوسف، وتستنشق شعره المتضوع برائحة العرق والتراب،

أو تحول عينيها إلى جهة مقدمة العربة وتنظر إلى الخارج، تتفرج على الأشجار المهتزة بهدوء تحت أشعة القمر، والبحر اللامع بالزينة الفضية وترمش عيناها من دهشة المنظر.

بدأت الخيل التي أنهت علفها بتحريك رأسها كأنها ملّت الوقوف وراحت تقلّب الأكياس. قال يوسف:

"هيا نمضِ!"

ربط الخيول مجدداً. وضع الأكياس داخل العربة. جلس مكانه وفرقع السوط.

عادت معزز لتجلس في الزاوية الخلفية. تحاول إيجاد وضعية مريحة للجلوس. لم يكن تحت غطاء العربة إلا بعض الحشيش المتناثر، وفي الركن لبادتان مطويتان. سحبتهما معزز وجلست عليهما. هذه اللبادات التي تنشر رائحة قويةً وحادةً كانت توضع فوق الخيول عندما تعرق. لاحظت معزز أن يديها وملابسها أصبحت دبقة.

كل ذلك كان يبدو طبيعياً بالنسبة لها. عادت لتنظر إلى الخارج من جديد، في هذه المرة أمسى القمر يضرب بضيائه من الجهة اليمنى للطريق ويضيء يديّ يوسف الممسكتين باللجام. وحبات النحاس على طاقم الأحصنة كانت تلتمع بأنوار صافية كمجوهرات قّيمة. يوسف الذي كان يسد نصف مقدمة العربة بجسده يميل برأسه إلى اليمين قليلاً. بهذه الوضعية أصبحت معزز ترى وجهه بشكل واضح؛ أذنه وشعره بقي في الظلام، أما خده الأيمن، وجزء كبير من جبهته، وأنفه تزمل بالضوء كالرخام. وحاجباه اللذان لم تكن

ترى إلا طرفهما كانا يتحرك باهتزازات خفيفة. لم تره معزز بهذا الجمال من قبل. سرحت بنظرها فيه لمدة طويلة وبعدها راحت تبكي بصمت. تغطي وجهها بيديها وتترك الدموع تنسكب على راحتيها. لا يجب أن يراها يوسف على هذه الحال. فليس من الصواب إبداء ذلك القدر من السعادة لمن وهبها لها. كانت تشعر بذلك دون أن تستطيع إيضاح السبب لنفسها.

لم يكن يملأ الطريق إلا صوت جرس العربة. حتى أصوات أقدام الخيل كانت تضيع تماماً وسط إيقاع هذه النغمات المنتظمة. هذه المرة كانت البردعة فوق ظهور الخيل التي تمشي ببطء تحدث انعكاسات جميلة للضوء. قمم أشجار الزيتون مضيئة ومتموجة كبحر أخضر، بينما أسفلها مظلم، لكن في بعض الأماكن كانت هناك حزم من الضوء تتخلل الأوراق وتضرب في التربة والجذور.

تسلقا تلةً مرتفعة بعض الشيء، بعدها جاء المنحدر. كان يظهر البحر في طرفه البعيد. بدأت أشجار الصنوبر في الظهور حواليهما. خمن يوسف بأنهما اقتربا من نواحي قوزاق أو بليتكوي. لكن لم تكن تظهر في المدى أمامهما أي قرية. غير عارف بما عليه أن يفعل، ولا أين سيذهب، أدار ظهره وقال موجهاً صوته إلى داخل العربة:

"معزز، أنتقدم أكثر؟"

"لا أعرف، إلى أين سنذهب؟"

"لنبق هنا لو أردتِ... ونفكر غداً!"

"لنبقَ!"

شد يوسف اللجام. فتوقفت الخيول على الفور. ترتفع على يسارهما تلة مكسوة بأشجار الصنوبر، وعلى يمينهما منحدر مكسو بالصنوبر أيضاً، يتمدد هابطاً لمسافة تقارب الكيلومتر حتى يصل إلى البحر. ساق يوسف العربة إلى هذا الاتجاه، إلى أرض مستوية تحت أشجار الصنوبر، وفصل الخيول وربط كلاً منها إلى شجرة على حدة. ثم وضع صخوراً ثقيلة تحت عجلات العربة. بعدها مد رأسه إلى داخلها قائلاً:

"تعالي يا معزز. الجو ليس بارداً. لن تبردي".

رغم أنه لم يبق من حرارة النهار الخانقة شيء، إلا أن الليل لم يجلب معه هواءً بارداً. والبحر الذي يرى من بين أشجار الصنوبر في البعيد كان ساكناً كأنه متجمد.

قفزت معزز هابطة من العربة. كانت تفرك عينيها بسبب النوم، أو ربما لأنها كانت جالسة في الظلام.

تقدما إلى الأمام أكثر وأقدامهما تتزحلق على أوراق الصنوبر، ثم جلسا جنبا إلى جنب على جذع شجرة ساقط وراحا ينظران إلى البحر. من هذا المكان، ولعدم وجود ما يحجب البحر أمامهما، كانت نظراتهما تمتد إلى الأفق دون أن تتعثر بشيء. وبدل رائحة الغبار والتبن والخيل والروث والعرق التي كانت تديخ رأسيهما، غمرهما عبق أشجار الصنوبر العذب المسكر. ولكي يتنشقا هذا العبق بأنفيهما النصف مسدودة كانا يأخذان أنفاساً عميقة وينظران إلى بعضهما بين وهلة وأخرى.

حسٌّ ظلامي كان يكرر لهما أن هذه الساعات لن تعود مجدداً، وفي نفس

الوقت يهمس لهما بأنهما ولكي لا تتعكر سعادتهما الحالية فعليهما ألا يشغلا نفسيهما بالتفكير في شيء آخر. كلاهما لم يكن يفكر لا بالساعة الماضية ولا بالساعة الآتية. فقد أحكم الشعور الطبيعي الذي كان أقوى من كل أفكارهما وأحاسيسهما، والذي لا يسيطر على الإنسان في حياته إلا عدة مرات فقط، قبضته عليهما. في هذه اللحظة، كانت الأشجار حولهما، والممتدة حتى البحر تابعة لهذه القوة. لا يحزنهما شيء، ولا يرغبان في شيء. حتى الضيق الذي يشعر به من ينالون كل ما يرغبون فيه كان بعيداً عنهما. كأن اكتمال السعادة بهذا القدر أذهلهما. لدرجة أنهما لم يستطيعا إيجاد كلمات حلوةٍ يقولونها لبعضهما، كل ما يفعلانه هو التنفس بعمق مبتسمان. أمضيا وقتهما هكذا لمدة طويلة. وبينما هما كذلك سقط رأس معزز على يوسف. غلبها النوم. حملها يوسف بين ذراعيه إلى العربة.

كانت الخيل تحك رؤوسها في الأشجار التي كانت مربوطة إليها، وأوراق الصنوبر تصدر فرقعة خفيفة عندما تتكسر تحت أقدامها وتتدحرج إلى الأسفل.

تحدث اهتزازات وحركات في أعالي الأشجار، سنجاب يقفز من غصن لآخر.

عمود الضوء الممتد حتى عربة الخيل يتأرجح بخفة ويختلط برائحة العلف الجاف والبرسيم وأنفاس الاثنين داخلها.

الجزء الثالث

1

أيقظوا الخادم النائم فوق كومة التبن في الحظيرة المحاذية للمنزل الصيفي وجعلوه يجهز العربة. وزوجة رئيس الشعبة قررت العودة. فهذه الحادثة عكرت عليهم جمعهم. في العربة المكشوفة ذات الحصان الواحد وُضعت مفرشة وفوقها طراحة، وغُطيتا بسجادة. صعدت شاهيندة هانم مع زوجة رئيس الشعبة وابنتها بمساعدة الخدم إلى مؤخرة العربة، وفتحن مظلاتهن واستقام الحصان الأشهب بخطوات مهرولة على الطريق.

مع اقترابهن إلى البلدة كان قلق شاهيندة هانم يزداد. لم تكن تفكر أو تخمن شيئاً بعينه، لكنها تشعر بالخوف، وفي كل مرة تتبادر إلى ذهنها صورة المنزل كانت تسري في جسدها رعشة هلع مما يحتمل أن يقابلها فيه.

نزل أهل رئيس الشعبة في منطقة السوق السفلية. كانت شاهيندة تمسك بمظلتها الزرقاء أمام وجهها. مرت العربة التي كانت تتقدم على الطرق المرصوفة بالحجارة محدثة جلبة عالية ومهتزة بشدة بمنطقة "شايشي" و"بايرام يري"، ثم وصلت إلى البيت. أمسكت بأطراف ردائها محاولة أن تهبط عن العربة بنفسها، لكنها فشلت في ذلك فانتظرت الخادم ليأتي ويمسك

بيدها لتنزل، ثم صعدت الدرجتين الصخريتين أمام الباب وطرقت الباب بعصبية وتوتر.

لم يصدر من الداخل أي صوت. طرقت الباب مرة تلو الأخرى، لم يجب أو يفتح أحد. عقلها الذي لم يعتد على أن يفكر في شيء ما من أوله إلى آخره، حلّ عليه قلق وهيجان وخوف لا يمكن وصفه. كانت تقف عند الباب ناظرة إلى الشارع أو إلى الدور العلوي وتنتظر دون أن تقرر فعل شيء.

كانت خادمتها الروملية قد انتقلت للعيش مع ابنها وزوجته منذ أسبوع، لكن يفترض أن تكون كبرى وأمها في البيت. ثم إن معزز ويوسف كانا قد عادا من البستان بالعربة. إذا لم يعودا إلى البيت فأين يكونان قد ذهبا؟

دقت الباب بشدة أكبر لعدة مرات أخرى. ارتفعت قضبان إحدى نوافذ البيوت المجاورة وظهرت منها زوجة راقم بيك المريضة بوجه شديد الشحوب وجبهة معصوبة، قالت:

"لا أحد في البيت يا شاهيندة هانم، لا تتعبي نفسك!"

لم تسأل شاهيندة هانم "ما أدراك؟"، ولم تفكر في ذلك حتى. فمن المؤكد أن معلومات هذه المرأة التي ليس لها عملٌ إلا مراقبة أحوال الحارة من خلف قضبان النافذة صحيحة. سألت فقط:

"إلى أين ذهبوا؟"

"كبرى وأمها خرجتا ومعهما بقجة، لكن لا أعلم أين ذهبتا!"

”معهما بقجة؟“

”كما أخبرك.. لم يكن في نيتهما أن تعودا مرة أخرى على كل حال“.

نست شاهيندة نفسها وبدأت تضطرب في فزع:

”يا مصيبتي، يا مسلمين! أنهبتا بيتي وهربتا أم ماذا؟ يا هانم، هل كان في أيديهما صندوق مزين بالصدف؟“

”لم أرَ يا جارة، ربما حملتاه وسط البقجة“.

”ألم يعد معزز ويوسف؟“

”لم يعودا يا جارة، هل كانا مع بعضهما؟ ألم تذهبي بصحبة ابنتك؟“

رفعت الجارات اللاتي شعرن بحصول أشياء مهمة في الخارج قضبان نوافذهن، وبدأن بالمشاركة في الكلام. زوجة الساعاتي كانت تسأل أسئلة من فضولها. أجابت شاهيندة:

”ذهبنا سوية...إلى ما اسمه... إلى بستان إحدى الصديقات... ثم جاء يوسف وأخذ البنت وعاد. لكنهما ليسا في البيت... قلقت إن كان قد حصل شيء لوالدهما، لكن لا يبدُ أن شيئاً من هذا القبيل حصل... والآن أنا قلقة على الأولاد!“

سألت إحدى الجارات من فرط الفضول:

”ألم تخبرك البنت وهي ذاهبة؟“

"لا لم تخبرني... لا أدري ما الذي دهاهما!"

غاصت الجارات اللاتي اعتدن على تفسير كل شيء بسهولة وبساطة في التفكير، ومن دون أن يجدن أي تخمين استمرين في إمطارها بالأسئلة جاعلات المرأة المغمومة تفجع أكثر.

أخيراً، قالت زوجة الساعاتي التي لم يتبق لديها سؤال لتلقيه بعد أن رأت أن لا لزوم لبقاء شاهيندة في الخارج لوقت أطول:

"يا شاهيندة هانم! ماذا تنتظرين عند الباب؟ لقد تركت أم كبرى المفتاح عند النافذة قبل أن تذهب".

حدقت شاهيندة ببلاهة في وجه جارتها المخضر الشاحب. لم يكن في وجهها غير سكون شخص أدّى ما عليه من الواجب. أشاحت شاهيندة بوجهها عندما لم تجد شيئاً تقوله، تناولت المفتاح وفتحت الباب، وعندما دخلت انهارت في إحدى زوايا المدخل.

لم تكن في حالة تسمح لها بالحركة. غطى جسدها الممتلئ عرق خفيف. كشفت رأسها دافعة الشرشف بيدها. لم يكن في الفناء شيء مختلف. فراش كبرى وأمها في مكانه كالعادة تغطيه سجادة كما هو الحال دائماً. الشيء الوحيد الناقص هو البقجة التي كانت دائماً مركونة بجانب فراشهما. لم تفكر المرأة في سبب رحيلهما كثيراً، تماماً كما لم تفكر في سبب مجيئهما في البداية. كانت مرهقة قبل كل شيء. تردد بين حين وآخر: أين ذهب هذا الولد بمعزز يا ترى؟ لكنها تعود لتقول منزعجة بعدها: هل أخذت هاتان المرأتان شيئاً معهما من البيت يا ترى؟ لكن هذا الانزعاج كان يتبدد قبل أن تنهض لتتفقد أغراضها

ويترك مكانه فراغاً رحباً.

ازداد قلقها وخوفها مع مرور الوقت. حتى صلاح الدين بيك لم يعد بعد... لو تأخر هذه الليلة أيضاً سيجن جنونها. كانت تقول: سأذهب لأنام عند إحدى جاراتي! لكن من الواجب أن يكون هناك أحد في البيت ليفتح الباب عندما يرجع ويشرح له ما حصل. مهما كان، فهذا الرجل هو رجل البيت، وليس لشاهيندة الجرأة أن تتركه في الشارع. ثم إنها كانت مقتنعة بأن صلاح الدين بيك هو الوحيد الذي يستطيع رفع قلقها وشرح كل شيء لها. عينها الآن معلقة على الباب، وقلبها يخفق منتظراً دقيقة بدقيقة. حل المساء، وبدأ الظلام في الهبوط. ولكي تشعل المصباح نهضت من مكانها ذاهبة إلى الغرفة المشرفة على الشارع. ثم نست لم جاءت إلى الغرفة، فاقتربت من النافذة وراحت تراقب الطريق. كانت جموع الناس الظاهرة في نهاية يوم قائظ تمشي في كل الاتجاهات؛ منهم من يحمل بين يديه بعض الفطائر، ومنهم من يحمل قصعة دبس طحين عائداً بها إلى البيت. شاهيندة التي تسند جبهتها على قضبان النافذة كانت تنتظر أن يظهر زوجها من ناصية الشارع في أي لحظة. ليس لديها أي أمنية أخرى في هذه اللحظة. في داخلها خوف فظيع وانتظار لا ينفد. رأسها الذي لم يعتد على التفكير في أي مسألة بعمق كان يحتاج إلى إنسان كي يرفع عنه هذا الوِزر، كانت شاهيندة هانم ومن دون أن تعي ذلك، تنتظر قدوم صلاح الدين لينجيها من عبء التفكير فقط.

أظلم كل شيء. العجائز يعودون من الجامع إلى بيوتهم وفي أيديهم المسابح. وشاهيندة تجلس على الطرّاحة منكمشة، لم يتبادر إلى ذهنها أن تنادي أحد أطفال الحي لترسله إلى مقر عمل زوجها الحكومي.

ذراعها مسند على زاوية النافذة، ورأسها نائم فوقه بإرهاق وتعب. عينها

تنمّل ورأسها يكاد ينفجر.

بينما هي على تلك الحال اقتربت من الباب خطوات ثقيلة ومتعبة. وثبت شاهيندة من مكانها إلى الخارج. وصل صلاح الدين بيك. أمسكت به من كتفيه قبل حتى أن ينزع نعليه:

"يا بيك، هل رأيت معزز ويوسف؟"

"ما الموضوع؟ لم يمر علي يوسف اليوم... أليست معزز في البيت؟"

"آه يا بيك، لا تسل عما أصابنا!"

"ماذا حدث؟ لا تفزعيني!"

"الأولاد غير موجودين... والمرأة وبنتها رحلتها مع بقجتهما!"

"تعنين كبرى؟"

"نعم، كلاهما... رحلتا دون أن تقولا شيئاً. من يدري، أنهبتا البيت وذهبتا أم ماذا. لم أستطع من الوجل والقلق أن أتفقد البيت... جلست أنتظرك!"

"وأين يوسف؟... معزز، أين هي؟"

"كما أخبرك يا عزيزي... كانت معزز قد صحبتني..."

توقفت شاهيندة عن الكلام فجأة. تذكرت أنها لن تستطيع أن تخبر صلاح الدين بيك عن مكان ذهابها اليوم مع معزز. تلعثمت عندما لم تجد

أي كذبة أخرى تتابع بها. حظها جيد أن القائمقام لم ينتبه لذلك، كان يصغي إليها وهو يتنفس بسرعة. لاحظ سكوت زوجته متأخراً قليلاً فقال:

"أكملي عزيزتي!" يقف في المدخل ويصغي بعينين نصف مفتوحة. قالت شاهيندة بصوت منخفض:

"ما أدراني أنا يا بيك؟ ذهبت برفقة معزز إلى بستان إحدى الرفيقات في جنت أياغي. ركب يوسف عربة وجاء، ثم أخذ البنت معه وذهب. في البداية ظننت أنك مريض، وعندما عدت إلى البيت لم أجد أحداً. تركت المرأتان المفتاح على النافذة واختفتا..."

سأل القائمقام الذي لم يستوعب وجود مسألة جدية إلا الآن:

"متى جاء يوسف إلى بستان حلمي بيك لأخذ معزز؟"

أجابت زوجته على الفور:

"فترة العصر..."

بعدها، تمتمت زوجته مستسلمة للخوف بنبرة أقرب إلى الرجاء:

"من أين عرفت أننا ذهبنا إلى حلمي بيك؟"

هز القائمقام كتفيه. حتى هو لم يعرف. مع اجتماع هذه الأسماء: جنت أياغي، يوسف، معزز، كبرى مع بعضها توصل عقله إلى أن المكان الذي ذهبتا إليه هو بستان حلمي بيك. تصرف بطبيعية لدرجة أنه لم يفكر بالغضب من زوجته حتى، كان يردد بقلق مضطرد فقط:

"إلى أين ذهبا؟... كيف لا تعرفين؟ أي نوع من المخلوقات أنت؟"

لكن لم يكن من الممكن تحصيل إجابة مفيدة من زوجته. تتحدث بكلام ليس له علاقة ببعضه وتشتت تفكير صلاح الدين بيك أكثر. صمت القائمقام مدة ليفكر فيما عليه أن يفعله. في تلك الأثناء ضربه سكون البيت كالريح. فتح عينيه ونظر حوله، لم ير حوله غير منظر زوجته التعسة وهي ترتعد. من جهة باب الحديقة ضوءٌ أبيض يضرب ناحية الفناء المظلم. معنى ذلك أن القمر ارتفع والولدان لم يعودا بعد.

كان احتمال عدم عودتهما مجدداً يطعنه كخنجر يشقه من صدره حتى رقبته. وفكرة المكوث في هذا البيت من دونهما، والجلوس مع هذه المخلوقة البدينة أمامه وحدهما جعلته يفزّ من مكانه مذعوراً:

"أين مكثا هذان؟... وإلى أين ذهبا؟!" صرخ محتداً.

أجابت زوجته بشهقة مرتعدة.

"لا أعرف!"

عندها ارتدى القائمقام نعليه بسرعة وهبّ خارجاً. مشى وقدماه تضربان على الطرق الخربة المرصوفة بالحجارة. وعندما وصل إلى المبنى الحكومي بعث بالدركيّ إلى قسم الشرطة لينادي رئيسه.

2

كانت أول مهمة يقوم بها الدركيون الستة المتفرقون في النواحي المختلفة لتعقب يوسف هي أن يتناول كل منهم عشاءً لذيذاً في قرية من القرى القريبة من البلدة. قرر اثنان منهم قضاء الليلة في القرية نفسها، فأمرا بأن يوضع لهما فراشان في الغرفة، أما الأربعة الباقون فقد ركبوا خيولهم واستمروا في التقدم ولم يناموا إلا عندما وصلوا إلى قرية عند منتصف الليل.

بعد أن قضى الدركي الذي انطلق ناحية برهانية الليلة في قرية فرنك كوي التي تبعد مسافة نصف ساعة عن إدرميت، انتظر في الصباح ارتفاع الشمس في السماء حتى يكمل مسيره، وصل إلى برهانية نحو الظهيرة وعلم من صاحب المقهى الذي كان بجانب الجامع بمرور عربة من هنا باتجاه أيوالك في المساء.

ولكونه لم يرغب في أن يتعب نفسه أو حصانه جلس في المقهى ليستريح نصف ساعة. أمر بينما هو هنالك أحد الخدم في النزل المحاذي للمقهى بأن يذهب به ليقضي حاجته. نزع حذائيه ووضع قدميه على الطاولة الحديدية أمامه محركاً أصابعه داخل جوارب الصوف، وحين شعر بأن النوم على وشك أن يهجم عليه نهض متمغطاً ثم صرخ على الخادم:

"يا ولد، أحضر الحيوان!"

ارتدى حذاءيه من جديد. وبعد أن مسد على رقبة الحصان شد أحزمته. أمسك باللجام وقفز على بردعة الحصان "الشركسية". كانت الفرس البيضاء تبدو مهذبة على عكس حالها في سائر الأوقات. مدت رأسها أمامها وبدأت

تمشي على الطريق المرصوفة مصدرة أصوات فرقعة بحوافرها.

ذلك الدركي الذي لم يصل أيوالك إلا قرب المساء، كان قد نام على فرسه في منتصف الطريق، وفي الساعات المتبقية كان يضع سلاحه على قفاه وضعاً يديه على طرفيه ومغنياً أغاني بلاده.

سأل مختاري القرى التي مرّ بها عن رؤيتهم لشاب وفتاة وأخذ الجواب بالنفي. وبراحة ضمير أملاها عليه شعوره بتأدية ما توجب عليه أن يفعله تمدد في قسم شرطة أيوالك مستريحاً، بعدها قرر أن يتمشى في المدينة التي كان كل سكانها من الروم اليونان - ويسرح في جمال فتياتهم.

لم تثر العربة التي مرت من جانبه بينما كان يقود فرسه ببطء على الطريق الساحلي فيه أي شبهة. كان متوقعاً أن يتصرف بشكل طبيعي، لأنه لم يكن داخل العربة أحد، كما أن سائقها كان شاباً قروياً يرتدي قميصاً أصفر.

قاد هذا القروي العربة بسرعة حتى وصل إلى إدرميت. وبينما كان يمر بمنطقة السوق السفلية خرج رجل من دكان البيطري يجري وأمسك بلجام الخيول، ثم راح يصرخ بأقصى طاقته:

"انزل عن العربة يا ابن الخبيث، إلى أين تذهب بها؟!"

هبط القروي عن العربة في الحال. أجاب بخجل لكن بلهجة الواثق من نفسه:

"العربة لك؟ خذها إذاً، فقد أتيت لأعيدها لك. خذ هذا أيضاً. بعثه معي يوسف آغا إليك، يقول لك لو نقص عما تستحق فحلّلني".

أخرج من جيب سلاحه كيس نقود ومد منه ليرةً إلى الرجل.

تناولها الرجل قائلاً: "حلّلته" وذهب. وبينما القروي هناك ظهر دركيّان فجأة وألقيا القبض عليه ثم ذهبا به إلى المبنى الحكومي.

كان الشاب القروي ذو القميص الأصفر محافظاً على ابتسامته أثناء اصطحابهما له، رغم أن مثل هذه الرحلة هي أكثر ما يخشاه قروي. حتى عندما جعلاه يمثل أمام القائمقام لم يخف، قال فقط:

"لا حاجة للدرك يا سيدي، فأنا كنت قادماً إليكم".

نهض القائمقام من مكانه مقترباً منه:

"من أين جئت؟" قال.

نظر الشاب بعينيه البنيتين إلى الواقف أمامه:

"ماذا يهمك مكاني يا بيك؟" قال. "أرسلني إليك يوسف آغا وابنتك".

"كيف حالهما؟"

"لقد عقد الإمام في قريتنا نكاحهما. يبعثان تحياتهما. أرسلاني إلى هنا حتى أخبرك بذلك".

توقف القائمقام لمدة، ثم سأل بابتسامة:

"أتقول إن يوسف عقد نكاحه على ابنتي؟"

"ليبارك لهما الله يا بك؛ كان من نصيب ابنتكم شابٌ جسور".

"ألم يقولا شيئاً آخر؟"

"لا، لم يقولا. أرسلاني حتى أطمئنكم فقط. كما أعدت العربة إلى صاحبها".

"ألن يعودا؟"

"لا يبدو لي ذلك، لكن الله أعلم".

ورغم إلحاح القائمقام على الشاب الذي قال بأن اسمه إسماعيل، إلا أنه لم ينجح في استنطاقه اسم القرية. كان القروي يخبره بأنه لن يعود إلى قريته الآن، وبأنه سيذهب ليمكث عند صهره في هاوران لمدة ثلاثة أسابيع، وحلف أيماناً أن معزز ويوسف ليسا في قريته.

كف القائمقام عن إلحاحه في النهاية كأنه قد قرر شيئاً. جلس مقابل إسماعيل وتحدث معه مطولاً.

أخبره بأنه إن لم يعد يوسف وابنته فإن حالهما سيكون صعباً، فليس لأي أحد منهما عمل يشتغل به، وأن يوسف لا يعتبر غريباً وبأنه هو شخصياً غير رافض لزواجهما، وأتبع ذلك مقسماً بحق دينه وبأيمان مغلظة. وأوضح له بأن أفضل حل هو أن يذهب بنفسه إليهما، بذلك لن يعانداه ويرفضا له طلباً. ومع أن إسماعيل لم يفهم شيئاً مما قاله الرجل أمامه إلا أنه أحس بأن لا نية سيئة لديه. فليس من شيء يقال حين يطلب القائمقام الكبير الذهاب إلى القرية وحده.

"لنذهب يا قائمقام بيك، كما تأمرون" قال. جعل صلاح الدين بيك أحدهم يجهز عربة، وبعث من يخبر زوجته بأنه ذاهب ليبحث عن ولديه. "لتستدعِ إحدى جارتها تنم معها في البيت" قال.

وخرجوا إلى الطريق مع صوت الأذان.

كان المكان الذي وصلا إليه قرية محاطة بالصنوبر في نواحي قوزاك، اسمها تاهتاجي. اقترب الوقت من منتصف الليل. أوقف إسماعيل العربة عند بناء من طابقين. قفز نازلاً ثم ضرب الباب بقبضته. فُتِح مصراعا الباب بعد مدة بسيطة. أخذ شابٌ يحاول فركَ النوم عن عينيه الخيول إلى فناء الدار، ثم راح ينظر بذهول إلى القائمقام الذي أخذ يمغّط ساقيه بعد نزوله من العربة.

سأل إسماعيل:

"هل نام الضيوف؟"

"ناموا على كل حال".

"اطرق عليهما الباب ليأتِ يوسف قليلاً.."

ثم نادى على الشاب الذي هب يجري إلى الدور العلوي:

"تعال أشعل لنا ضوءاً على الأقل!"

هبط الشاب قافزاً فوق الدرجات، وأحضر سراجاً من الطرف الآخر للفناء الذي كان مضاءً بنور القمر. فتح باب الغرفة التي كانت بجانب الباب ذي المصراعين، ثم خرج مسرعاً بعد أن وضع السراج على الموقد.

دخل القائمقام وإسماعيل إلى الداخل. في ركن هذه الغرفة الترابية بعض الحصائر والسجاجيد. تناول إسماعيل طراحة كانت مسندة بجانب الفرن ووضعها على إحدى السجادات ثم أشار للقائمقام أن يجلس، وجثا هو على حصيرة.

عندها جاء يوسف. لم يكن قد نام على كل حال. كان وجهه يبدو شاحباً وهزيلاً تحت ضوء السراج. اتجه نحوَ أبيه وقبل يده. أجلسه القائمقام بجانبه ثم قال بعد مدة:

"ما هذا الذي فعلت يا يوسف؟"

لم يكن في صوته عتابٌ أو شكوى. مجرد سؤال للاستعلام.

"لم يبق حل آخر يا أبي.."

كان صوت يوسف حاداً وثابتاً.

صمت كلاهما. أحسا أنهما فهما بعضهما وبأنه لم تعد هناك حاجة إلى الكلام.

نهض الجاثي على ركبته فوق الحصيرة وقال موجهاً كلامه إلى صلاح الدين بيك:

"لقد أُرهِقتهم يا بيك! أأحضر لك بعض الماء المر؟"

أجاب القائمقام ضاحكاً:

”حسناً!“

علمته سنوات مأموريته الطويلة أن سكان هذه القرى العلوية أكثر رحابةً مذهبياً، وأكثر حميمية وسماحة.

اعتاد عندما كان يخرج لتفقد القرى في هذه الناحية أن يبيت هنا. عندما قال إسماعيل: أأحضر لك الماء المر؟ فوجئ من نفسه كيف لم يلاحظ أنه في قرية ذو الرؤوس الحمراء - قيزيلباش من قبل. كان عليه أن يعرف ذلك من صراحة الشاب وجرأته وثقته بنفسه. سكب من الراكي الذي أُحضر في جرة صغيرة قليلاً في كأس فخارية وشرب. وألقى بعدة حبات من الصنوبر الذي كان من محصول القرية في فمه. أحس فجأة بثقل هذا الماء ”المر“ في معدته وبالحيوية اللذيذة التي منحه إياها. عاد إلى يوسف وعيناه تبرقان:

”غداً سآخذكم إلى إدرميت“ قال.

”وماذا نفعل في إدرميت؟“

”وما الذي ستفعلونه هنا!“

”تبقى لدي اثنتا عشرة ليرة ذهبية من أعمال الزيتون ومحصول القمح. كانت أربع عشرة ليرة، أرسلت ليرة منها إلى الحوذي، وصرفت واحدة منها هنا. أذهب إلى أيوالك وأشتري بها حصاناً وعربة، وأكدّ عليها. وإذا ربحت اشتريت حصاناً آخر، ومن يدري، ربما ركبت لها زنبركاً“.

”كف عن الهراء... فمعزز ليست معتادة على مثل هذه العيشة... أين وعند من ستترك فتاة صغيرة بطول الإصبع مثلها وتذهب لتعمل؟ هل

سيعطونك خبزاً في أيوالك؟ هل سبق وأن سمعت بأن تلك المدينة تأوي المسلمين؟"

"إذاً أذهب إلى ديكيلي، أو إزمير... أو إلى بالكسير كحل أخير!"

دلق صلاح الدين بيك القدح الثاني في جوفه، ثم جلس مسنداً ظهره يعلو وجهه ارتياح، ثم وجه سؤالاً إلى يوسف:

"وهل جفت مياه إدرميت؟ عد إلى هناك، وسأشتري لك عربة مرنة، وحصاناً، بل ربما أجد لك عملاً".

أراد يوسف أن يقول شيئاً، لكن صلاح الدين بيك أسكته بإشارة من يده قائلاً:

"دعك من العناد!" ثم دنى إليه برأسه وأتبع: "هل تظنني جئت إلى هنا لأتمشى؟ كيف لكما أن تتركاني وحدي؟ أهذا ما أناله من ابني وابنتي؟ كيف تتركاني في يد شاهيندة وتذهبا؟ من لي غيركما في أيامي الأخيرة؟ لو أصررتما على البقاء فسأبقى معكما، وتنفق علي وعلى زوجتك بالمال الذي تكسبه".

بهت يوسف، لكنه أدرك أن ما قاله صلاح الدين بيك لم يكن مزحة، وأنها كانت كلمات حضرها قبل أن يسكر.

حتى لو كان حراً فيما يريد أن يفعل، فليس من حقه أن يبعد الأب عن ابنته. لكنه لم يستطع أن يمسك نفسه عن قول آخر فكرة كانت تنخره:

"وكيف سينظرون إلينا هناك؟" قال.

”كيف سينظرون؟ ألم تعقدا نكاحكما؟ أهذا عيب أو حرام؟ ليس لأحد أن يقول أي شيء بعد رضاي!“

قال يوسف: ”كما تريدون!“

نهض صلاح الدين بيك كأنه كان ينتظر هذا الجواب. كرع قدحاً آخر، ثم قال بلسان ثقيل:

”هيا اذهب ونم. حتى أنا مرهق. انهضا باكراً وأيقظوني معكما“.

قام يوسف. قبل يد أبيه مجدداً ثم خرج. كانت معزز في غرفة علوية نائمة غير دارية بما جرى. جلس يوسف على الطراحة التي كانت على طرف السرير مع ملابسهما. كان القمر المتسلل من بين قضبان النافذة الخشبية يصل إلى السرير، ويمتد إلى وجه الفتاة اليافعة. استسلم يوسف للنوم في مكانه بينما كان يراقب هذا الضياء والظلال الزاحفة ببطء.

فرد إسماعيل فراشاً للقائمقام في الأسفل ثم تركه لينام. استلقى صلاح الدين بيك عليه دون أن ينزع ملابسه، وغرز نظراته على جرة الراكي التي كانت تلتمع باحمرار باهت تحت ضوء السراج الذي شارف على الانطفاء. يريد التفكير في أشياء، لكنه غير قادر على الإمساك بأي من الأفكار الدائرة حول رأسه. أغمض عينيه ببطء واستسلم للنوم وهو يشخر.

3

استعادت الحياة رتابتها القديمة بأسرع من المأمول. بعد عودتهم إلى إدرميت بأسبوع، جمع القائمقام أصدقاءه المقربين وأشربهم الراكي، بينما احتفلت النساء في الدور العلوي. وبذلك يكون حفل زفاف يوسف ومعزز قد أقيم. خصصت الغرفة العلوية المشرفة على الشارع للعروسين. زُينت الغرفة بسرير ذي لحاف أطلس وردي ومخدات وفراش ومخدات مزركشة. والستائر رُبطت بمناديل مزخرفة، وعند الجدار المقابل للباب وضعت تسريحة فوقها مرآة وساعة مكتبية ومصبحا إضاءة دائريان.

اعتمر يوسف بدل القلباق طربوشاً أحمر، وانتعل حذاءً جوانبه من المطاط بدل مداسه القديم. وارتدى بدل سرواله الكاكي المجعد، بنطالاً لاجوردياً مكوياً. أصبح مظهره الآن لا يختلف عن مظهر أي أفندي.

شاهيندة التي كانت تعتبر ما حدث مصيبة ووبالاً لم تجرؤ أن تفتح فمها خوفاً، ولم تكن تتحدث لا مع معزز ولا مع يوسف إلا فيما ندر. أصبحت لا تجلس في البيت إلا نادراً، ويوسف لم يكن يزعجه ذلك. على العكس تماماً، كان يرى أنه سيكون من الأفضل لو لم تعد تلك المرأة إلى البيت أبداً، وهي التي باتت مع كبر سنها تفسد اتساق كل شيء، وتدهن شعرها بشتى أنواع الأعشاب وتصبغ حاجبيها، ولا تكاد تتحدث مع صديقاتها إلا في الغيبة والنميمة.

عندما يسمع يوسف رنين أساور شاهيندة وهي تدخل إلى البيت في بعض المساءات كان يشعر بغثيان، ويستدعي معزز إلى جانبه ولا يتركها تنزل أبداً.

لولا أبوه لما مكث في هذا المنزل دقيقة واحدة. بل كان سيجد عملاً ويؤمن لقمة العيش لنفسه وزوجته بنفسه. لكن الوعد غير الصريح الذي وعد به أبوه في القرية ذلك المساء أصبح يربطه بهذا المكان.

وضعه ما زال كما هو، بلا عمل أو شاغل. ولأن المحصول قد جُمع لم يعد يذهب للحقل حتى. بعض الأيام يقضيها بطولها في البيت لا يخرج، تارةً يراقب معزز المشغولة بالتطريز، وتارةً يقلب في كتب أبيه.

أحياناً، وبينما هو جالس في البيت لا يفعل شيئاً، كان يتذكر كبرى. منذ رحلتا عن البيت اختفتا تماماً كما ظهرتا في حياته فجأة من قبل. يحزن عندما تخطر الفتاة ذات الوجه الشاحب والنظرات الحزينة على باله ولا يعرف كنه ما يحس به تجاهها، وفي كل مرة يتذكرها يحزن من جديد ويحس بإرهاق ذهني ناتج عن عجزه حل هذه العقدة العنيدة.

كان ما يحيره ويجعله يفكر قناعة تقبع في رأسه تخبره بأنه سيلتقي بكبرى مرة أخرى حتماً. كأنه ترك عملاً ما في منتصفه، وفي يوم ما ستظهر كبرى أمامه في مكان ليتم ما بدأه من قبل.

ورغم معرفته بسخافة هذه الأفكار فإنه لم ينجح في تخليص نفسه منها، أحياناً يسرح فيها جالساً لساعات.

معزز التي ما زال بداخلها بقايا خوف من يوسف، كانت عندما تعتريه هذه الحالات تقترب منه بهدوء، تجلس بجانبه وتحدق في وجهه بفضول وقليل من قلق. هذه الرأس التي لم تفهم ما يدور بداخلها بعد، كانت تحبه حد الجنون. في وسط رأسه بالتمام، كان الخط الواصل بين دوامة شعره وبين

قفاه بانتظام رائع يوقظ في داخلها رغبة لا تقاوم في احتضانه وتقبيله بلا توقف. جبهة زوجها الضيقة، قليلة التجاعيد، المتصلة بأنفه دون أي ميلان، وشفتاه الملتصقتان ببعضها بشدة دائماً توقظ في نفس معزز أحاسيس شبيهة بالخوف. لذلك كانت الشابة اليافعة في مرات كثيرة تنهار بالبكاء بلا سبب محتضنة زوجها ومقبلة وجهه بعشوائية وجنون.

كان يوسف يمسد على زوجته بابتسامته الخاصة الشبه مخفية، ويحرك شفتيه المقفلتين كأنه يقول أشياء من قلبه.

في إحدى نوبات البكاء تلك رددت معزز بين شهقاتها:

"يوسف.. يوسف... أنا أخاف منك!"

أمسك الشاب الذي أجفلته هذه الكلمات فجأةً بها مبعداً إياها عنه. حدق في وجهها بإمعان.

جفنا عينيها اللذان كانا يرمشان كفراشات جريحة، والشفة المرتعدة المتدلية إلى الأسفل قليلاً، ووجهها الشاب كوردة كان يغمره بحزن غريب. صدره يضيق. سحبها نحوه واحتضنها بقوة كأنه يحميها من مصيبة يعرف أنها ستحل. رأسها الشاهق بلا توقف على صدره، وجسدها الراجف بين ذراعيه كانا يلظيانه ناراً. عض على شفتيه وغرز عينيه على أحد جدران الغرفة المظلمة، وبقي على تلك الحال لساعات.

هذه الليلة التي اختنق فيها شاعراً بالخوف من شيءٍ مجهول لم تعد تغيب عن ذاكرته، ومع مرور الأيام أصبح أكثر ظلاماً وأقل كلاماً. رغم ذلك كانت معزز بعد أن تستيقظ من نومة طفل بريئة تقابله بابتسامات ملؤها

الطمأنينة، وتنهض متجولة في نواحي البيت كعصفور.

كانت رؤيته لها تشغل نفسها بأعمال شتى في المنزل أو الحديقة دون توقف تلهيه بعض الشيء. معزز التي باتت ترى نفسها سيدة المنزل لا تكاد تترك عملاً للخادمة الروملية الهرمة، تساعدها حتى في طبخ الطعام وغسيل الملابس.

تنهض مبكراً، وتسرع بمنامتها عارية الذراعين والرقبة إلى الأسفل لتحضر ليوسف إفطاراً مكوناً من دبس وجبنة طولوم وخبز محضر في المنزل. شعرها المتأرجح خلفها في شكل ضفيرتين، كان يطير عندما تجري، وكعبا قدميها الورديان والمستديران كانا يبدوان صغيرين داخل أحذية المنزل الكبيرة عليها. يظهر كاحلا قدميها من تحت منامتها الطويلة، وعندما تجلس يظهر أسفل ساقيها المتسقتين ذاتي الزغب الخفيف الأشقر.

تفرد معزز فوطة طعام على الأرائك الواقعة بالطرف الموازي للشارع من الغرفة، وتضع فوقها صينية نحاسية عليها وجبة الإفطار ثم تنادي يوسف. بعدها يجلسان على الأريكة بشكل جانبي مؤرجحان أقدامهما إلى الأسفل، ويباشران في تناول الطعام.

أثناء تناول الطعام كان يوسف دائماً ما يراقب معزز. تمسك معزز بيدها البيضاء النحيلة الخبز ثم تكسره من منتصفه وتمده إلى زوجها. أحياناً كانت - دون وعي منها - تنزع شبشب المنزل ثم تعبث به بأصابع قدمها. يسرح يوسف وهو ينظر إلى قدميها الرقيقتين، ببياضها القريب إلى الصفرة وأصابعها الطويلة، ويتحير من احتفاظهما بتناسقهما ورقة جلدهما وجمالهما كأنهما لم يُلمسا بريشة حتى، رغم تعاقب أحذية الجلد المدبوغ عليهما لسنين.

كم كانت طفلة جميلة يا رب! وكم كان يوسف يحبها كثيراً.

هذا الشاب الذي لا يمتلك أي فكرة بخصوص النساء كان يرفع زوجته إلى مرتبة فوق مرتبة بقية البشر، يفسر الحب الذي يحمله لها والذي يقوى يوماً عن يوم كحسٍ ديني، ويشعر بأنها يجب أن تكون المحور الذي تدور حوله كل أفكاره وتصرفاته. ولا يعتقد بوجود أي حكمة وهدف لأي دقيقة أمضاها بعيداً عنها منذ بدأت حياته. يحتار منذهلاً عندما يتذكر الأيام التي كاد أن يخسرها فيها، أو حين كان يبعدها عنه بنفسه، ويسأل نفسه:

"كيف سمحت لي نفسي أن أفعل ذلك؟"

معزز بدورها كانت تحب يوسف وتبادله نفس المشاعر تقريباً. العامل الأساسي في حبها هو كون يوسف "ضرورياً" بالنسبة لها، وأن الحياة لا يمكن أن تُتصوّر من دونه.

ربما لولا أنهما عاشا خوف احتمال افتراقهما وخسارة بعضهما في زمن مضى، لما عرفا قيمتهما بالنسبة لبعضهما الآن. كانت حياتهما قد امتزجت ببعضها حتى اتّحدت. ربما لم يكونا سيفكران في الزواج حتى، فهما لم يقدما على الزواج إلا لأنه آخر حل يضمن لهما عدم خسارة بعضهما.

لذلك، ولكون حياتهما مع بعضهما أبسط وأكثر أمر طبيعي وبديهي وأسهل فهماً في هذه الدنيا، فلم يكن لديهما عبارات طويلة يقولونها لبعضهما. ويحدث أن تمر عليهما أيامٌ دون أن يتحدثا إلا بجملٍ معدودة.

في أيام الجُمع، عندما يذهبان إلى بستان أحد الأصدقاء فيجلس الرجال في مجلس منفصل عن النساء، ويعيش كل قسمٍ عالمه الخاص لم يكن يوسف

ولا معزز يشعران بكونهما جزءاً من تلك الجلسات وما يحدث بها. ترد معزز على الكلمات المُقالة بابتسامة، ويبقى يوسف صامتاً غير راغب في الكلام مع أحد.

في مثل تلك الأوقات تجذبهما أشواق عارمةٌ لا توصف تجاه بعضهما. عند شعورهما بالغربة عمن حولهما يبحثان عن بعضهما، ويشعران في غضون تلك الفترات القصيرة أن كلاماً كثيراً يتجمع في داخلهما ليقولاه لبعضهما. لكنهما عندما يجدان بعضهما في أقرب فرصة يعودان إلى الصمت القديم، يجلسان جنباً إلى جنب أو يتمشّيان تحت الأشجار شاعرين بسعادة غير قابلة للتعريف لكونهما سوياً.

ما ضرورة الكلام؟ فوجودهما الصامت سوية كان يُشبع هذين المخلوقين - السئمين من كل العبارات الجميلة والناس الطيبين - لدرجة التعب.

كما قد كانا بالنسبة لبعضهما طبيعيين وضروريين، كانا أيضاً يشعران بسخافتهما وغربتهما عن محيطهما بشكل كئيب. من جهة شدّة أحاسيسهما وانفصال دنياهما يعرفان بكونهما شديدي العزلة دون أن يصرّحا بذلك لبعضهما، ويفكران بخوف فيما إذا كان ممكناً لوضعهما هذا أن يستمر لمدة طويلة. كان شيء غير مكتسب بالتعلم، شيء موجود في كل الكائنات المرتبطة بالطبيعة مبقية إياها متيقظة يهمس لهم أن الافتراق عن التجمعات والمسيرات المشتركة مرعب. لذلك كانا لا يرتاحان إلا عندما يقطعان علاقتهما بكل ما حولهما ويعودان إلى دنياهما الخاصة، وبمجرد عودتهما للتماس مع محيطهما يبدآن بالشعور بالضيق والانسحاق تحت "حسّ ما قبل الحادثة" ويحاولان الفرار.

كلمات كبار السن من الرجال ونكاتهم ومتعهم كانت بالنسبة إلى يوسف سخيفة ومثيرة للسخرية، وفراغ الشباب اللانهائي يشعره بالاغتراب. رغم كل محاولاته، إلا أنه لم يجد متعة في شرب الراكي والصراخ ملوّحاً بخنجره على أصدقائه، حتى لعبة الطاولة و"تحت الستين" لم يستطع تعلمها.

أما بالنسبة لمعزز فلم تعد الأشياء التي كانت تلهيها من قبل تبدو في عينها سوى فضولٍ وهواياتٍ طفولية. عندما تتحدث صديقاتها بجانبها:

"لماذا أُجِّل زفاف رسيمة إلى الربيع؟"

"لم تختفِ البثور التي التقطها حبيبها من العاهرات، هذا هو السبب!"

تتنهد من الضجر، حتى أغاني الرقص التي تُنشد برفقة دفٍّ ذي أجراس والتي تتكرر في اليوم من خمس إلى عشر مرات لم تعد تسليها.

لم يكن لمعزز ويوسف في الحياة سوى مطلب واحد: أن يكونا سوية...

وحتى الآن ما زالا سوية.

4

لكن إلى متى سيستمر هذا الحال هكذا؟ لابدّ من وجود شيء يوجب حدوث تغيير في حياتهما. إلى متى سيستمران في أكل خبز والدهما السقيم؟ وهل ستكف شاهيندة هانم عن تسليط سياط عينيها اللامعتين كعيني ثعبان على يوسف؟ كانت ما تزال تأمل أن تترك ابنتها التي تبعث في دمائها المسنّة

شيئاً من الشباب في عيش أنسب قبل أن ترحل.

لا يستطيع تخيل يوسف يعمل حوذياً، لكن لم يكن قادراً على تصوره يفلح في ممارسة أي عمل آخر. بعد تفكير طويل اتخذا قراراً لحظياً؛ سيجعل زوج ابنته يعمل معه في الدائرة الحكومية كاتب تحريرات.

كان يفكر بتحويل هذه الوظيفة التي ستكون مؤقتة في البداية إلى ثابتة بعد مدة. لم يخبر يوسف عن إيجاده لعمل له إلا بعد أن تمت المعاملة وجاءه الرد بالموافقة من والي مدينة بالكسير.

فوجئ يوسف. لم يكن لشيء من هذا القبيل أن يخطر بعقله ولو فكّر لسنوات. ولولا معرفته بأن أباه لن يمزح معه في هذا الشأن لما صدقه.

وبدلاً من أن يشكره، كانت أول كلمة يقولها:

"لكني لا أعرف القراءة أو الكتابة. فما صنيعك هذا؟"

أجابه أبوه ضاحكاً:

"ما تعرفه يكفيك، والباقي تتعلمه هناك".

"كما ترى يا أبي... سأبذل جهدي لكن..."

"ستكون مهمتك الكتابة، في البداية سأمليك أنا وأنت تكتب، بعدها تتعود رويداً رويداً. موظفو هيئة التحريرات لدينا أناسٌ طيبون، لن يبخلوا عليك بالعون".

لم يصدر يوسف صوتاً. أصبح لا يرى وجوداً للمستحيل، فكل شيء قابل للتحقق. حتى أصعب وأعقد أمور الدنيا أسهل وأكثر سطوعاً من هذا الانتظار.

عندما سمعت معزز بخبر تعيين زوجها موظفاً حكومياً كادت أن تجن من الفرحة. قفزت عليه متعلقة برقبته وأمطرته بالأسئلة لساعات.

"متى ستباشر بالعمل؟"

"مع من ستعمل؟"

"كم سيكون مرتبك؟"

"آه لو أستطيع المجيء لرؤيتك وأنت تعمل!"

"ستعود من العمل في العصر كباقي الموظفين، صحيح؟"

"هلّا أحضرت النصوص التي تكتبها هناك لتقرأها لي هنا؟"

كانت قبل حتى أن يجيبها يوسف على سؤال تباغته بسؤال آخر، تمسك بذقنه وتهزّه "أخبرني هيا!"، وبعد لحظة تقول قافزة مكانها:

"من بعد اليوم سترافق الأفندية، أليس كذلك؟ حذار أن تتشاجر معهم".

في اليوم التالي أخذ صلاح الدين بيك يوسف معه إلى المبنى الحكومي. أدخله إلى غرفة مجاورة لغرفته، وأشار إلى طاولة بجانب النافذة ثم عرّفه على شخصين كانا بالغرفة.

كلاهما كان رجلاً مسناً. نهضا عند رؤية القائمقام وضما مقدمة معطفيهما اللذين يصلان إلى ركبهما. نزع أحدهما نظارته ذات الإطار النحاسي وأشار إلى يوسف:

"تفضل واجلس، يا ولدي الأفندي" قال.

قال صلاح الدين بيك ضاحكاً:

"لنر همتك يا حاسب أفندي! اجعل صهرنا يتعلم بسرعة تجعل قلمه يدمي".

"بفضلكم إن شاء الله يا سيد أفندي".

"الشاب مستعد، صحيح أنه غير معتاد على الإمساك بالقلم، لكن سترون".

قال الذي كان يعدل طربوشه الزيتي عديم الشكل باستمرار للعجوز الآخر:

"نوري أفندي، لنرَ همّتك حتى تجعله محترفاً في مدة قصيرة".

حرك نوري أفندي فمه كأنه يمضغ شيئاً، لكن لم يفهم أحد ما قاله. اتجه يوسف إلى الطاولة التي تشبه طاولات المطاعم والتي كانت تهتز كلما لُمست، قال له صلاح الدين بيك:

"لو عندك ما تقوله فتعال إليّ يا يوسف" قالها ثم خرج.

حول يوسف رأسه وأغلق عينيه ثم أمسك بذراع الكرسي وجلس.

أين كان؟ لماذا هو هنا؟ لفعل ماذا؟ من هؤلاء المسنون؟ كان يبدو أن أجوبة هذه الأسئلة طارت من عقله وذهبت. بدأت رؤيته تتشوش وراح ينظر إلى الطاولة أمامه من بين أهدابه.

لكن كان على الطاولة آلاف الدوائر التي تشبه بقع الزيت اللامعة على تجمعات مياه في جو مشمس، اتسعت عيناه بذهول فاختفت الدوائر من فورها.

على الطاولة الملطخة ببقع الحبر التي لم تُمسح أو تُكشط من سنين محبرة ومرملة تشبه الملّاحة وقلما بوص مكسور رأسيها. مد يوسف يده متناولاً أحدها ثم راح يعبث به. ودون أن ينتبه انكسر القلم الرقيق بين أصابعه، فراح يتلفت حوله بخوف وقلق شادّا بقبضته عليه. كل شيء في هذه الغرفة يثير في نفسه رهبة غامضة كتلك التي تعتري المرء حين يدخل معبداً لدين لا يعرفه. قام حاسب أفندي من مكانه متجهاً إلى يوسف، ثم تناول القلم من أمامه وفتحه وضغطه على ظفره مجرباً إياه ثم مناولاً إياه ليوسف قائلاً:

"هاك يا بني، مرّن يدك قليلاً... وعندما يعطيك والد زوجتك شيئاً تكتبه".

لكن حماه لم يعطهم شيئاً ذلك اليوم، وعند المساء أطل برأسه من الباب ونادى يوسف. ثم عادا إلى المنزل سوياً. في الطريق كان صلاح الدين بيك يتكلم كأنه يخاطب نفسه:

"هذا العمل لا يناسبك، لكن ما العمل؟ أعلم أنك ستضجر منه، لكن

المرء يتعوّد تدريجياً. كما رأيت، لا أحد يعمل شيئاً. كل ما في الأمر هو الجلوس في تلك الغرفة الفارغة لعدة ساعات في اليوم... قد يبدو لك بلا لزوم لكن من دونه لا تدور الدنيا. كما أقول لك، يبدو أن هناك حكمة ما حتى في الجلوس دون عمل شيء هكذا. يبدو لك أن كل المعاملات الحكومية يستطيع إنجازها شخصان فقط. لكن لولا كل أولئك الموظفين لسرت الفوضى وتعطل كل شيء. أهمية الموظفين لا تكمن في العمل الذي ينجزونه، بل في وجودهم في أماكنهم فقط. ستجلس أنت أيضاً في تلك الغرفة الفارغة وتردد بينك وبين نفسك: ما لزومي هنا؟! مخطئ... فأنت تصبح مهماً منذ أول يوم تنضم فيه إلى القطاع الحكومي. ولو غبت يوماً لحصل خللٌ في مكانٍ ما... لا تظن بأني أتكلم من رأسي، ففي الماضي حتى أنا كنت أفكر بطريقة مختلفة، وأحاول حلّ كل شيء بعقلي. لكنني لم أعد أؤمن سوى بشيء واحد: ألا وهو الخبرة. ما أقوله لك من أشياء علمتني إياها الحياة فيما يقرب من ثلاثين عاماً. أنت أيضاً رويداً رويداً ستبدأ بالتفكير مثلي. بقي لي من عمري هنا أيامٌ معدودة؛ أقول لك ما قلته حتى تستحضره دائماً. لا تنتظر من هذه الحياة شيئاً كثيراً. أفضل ما تفعله في الدنيا حتى تخرج من جميع المصائب بأقل الخسائر هو أن تتناغم مع الحياة، وتشبه محيطك، وألّا تشذ أبداً. قبل عدة أيام أعطاني رئيس محكمة الجزاء كتاباً. قلّبت فيه. شيءٌ عميق. اسمه أعماق الخيال، شيء يناسبك، يغوص في الخيال. مكتوب فيه: جمع الله الأنبياء في يوم وسألهم عن السعادة، ما هي؟ أجاب كل واحد منهم إجابة مختلفة. قال موسى: الذهاب إلى الأرض الموعودة. وقال عيسى: أن أمد خدّي الثاني عندما يضربني أحد على الأول. وقال بوذا: ألّا تكون لي أي رغبة في الحياة، وعدّد أشياء أخرى. وعندما جاء الدور على محمّدنا قال: تقبل الحياة كما هي... ما أصحها من عبارة! على المرء أن يتقبل الحياة كما هي وألا يضيف إليها أو ينقص منها شيئاً... بعض الأشياء تسبب لنا الضيق؛ نقول: لماذا هذا هكذا؟ على هذه

الأشياء أن تزول من الدنيا! وبعض الأشياء غير موجودة. لكننا نتمنى لو أنها موجودة من أعماقنا، بل ونعمل من أجل ذلك. كلاهما سخف وبلا طائل. ليس بيد الإنسان أن يغير شيئاً. لذلك، إن أردت أن تعيش مرتاح البال فعليك أن ترى حتى في وجود الشرور حكمة وألا تتعب نفسك بمحاولة جلب الخير إلى الدنيا... وأخيراً فأهم شيء هو ألا تعوّد نفسك على الشكوى والتذمر. فمهما تهيجت وفعلت فإن قسوة الحياة لا تنتهي؛ ستكون قد جنيت على نفسك. ولا تعتد على الشراب منذ الآن أيضاً. صحيح أن المرء لا يجد بديلاً عنه أحياناً للتخفيف على نفسه ولكن عليك أن تكون متحكماً بنفسك. ستبدأ بالشرب على كل حال عندما يكبر سنك قليلاً. بل سيكون الشراب عندها ضرورياً. لا ضرر من قدحين بين ليلة وأخرى. ينسي الإنسان دنياه. إييه، والدنيا هذه جديرة بالنسيان أصلاً.."

وصلا إلى البيت. توقف صلاح الدين بيك عن الكلام مضطراً. وبينما كان يطرق الباب، قال بنبرة العارف الحكيم هازّاً رأسه كأنه يريد أن يذيل ما قاله بخاتمة:

"اييه، هذه هي الحياة.."

ولجا إلى الداخل. وبينما كان والده يغسل وجهه ويديه عند مضخة المياه، صعد يوسف إلى الغرفة وجلس أمام النافذة. لم تكن معزز فيها، على الأغلب أنها تحضر السفرة. فكر يوسف في كلام القائمقام، لكنه لم يستطع تذكر أي كلمة منه. مع أنه وحتى لا يفوّت أي كلمة منه كان يصغي بكل انتباه وتركيز في الطريق. إنه يرى الآن أن جميع تلك الحِكم طارت بعد أن اصطدمت بالجدار الفولاذي المحيط برأسه. كيف يُعقل أن الأفكار التي كان يتفق معها حدّ ترديدها وهو يسمعها لا تجد حتى حيزاً صغيراً يحتويها في رأسه. ومع

محاولاته لاستحضار ما سمعه كانت تحضر إلى ذهنه كلماتٌ متفرقةٌ وبعض الجمل، لكنها فاقدة المعنى بلا روح.

عندما هبط إلى الأسفل من أجل تناول الطعام، وبمجرد رؤيته لوجه صلاح الدين بيك المنهدّ وعينيه الباهتتين اللامكترثتين، عادت كل تفاصيل محادثة الطريق إلى عقله. كان هذا الرجل الذي يأكل طعامه أمامه ببطء هو بذاته خلاصة كل تلك الكلمات. لكن يوسف وجد نفسه غريباً عنها تماماً مع أنها كانت تبدو له صائبة. في الحقيقة، كانت تبدو له صائبة لأن أباه آمن بها فقط. فلا يُعقل أن تكون الحياة سخيفة إلى تلك الدرجة، وأن المرء يأتي إليها ليعيش دون فائدة. يجب ألا تكون أي من كلماته صحيحة. وبينما كان يضع لقيمات الجريش في فمه من الصحن النحاسي كان يستحضر حياته في ذلك اليوم، ويحس بأن جلوسه أمام الطاولة المبقعة بالحبر في تلك الغرفة المغبرة بصورة مطلقة دون أي هدف لا يمكن أن يُدافع عنه أبداً. كيف لصاحب النظارة ذاك، حاسب أفندي والعبوس نوري أفندي أن يكونا صورة مثلى لما يجب أن يكون عليه؟ كلاهما كان يقضي الوقت في الدوام بالنوم على الطاولة وأداء صلاتي الظهر والعصر فقط. مثلت صورتاهما وهما ذاهبان إلى الوضوء بسواعد مشمرة وفوط على أكتافهم وقباقيب في أقدامهم العارية، ثم عودتهما وقيامهما وقعودهما على السجادة المتسخة بأقدامهم الوردية في مخيلته من جديد. كان تصور حياة كحياتهما شيئاً مرعباً بالنسبة له. حتى حياة الرجل الذي كان يمضغ لقيمات الجريش ويلتقم طرشي الفلفل الأحمر أمامه لم تكن مختلفة عن حياتهما، هي الأخرى جوفاء مرعبة بالنسبة له.

تذمر من البطالة، وأراد أن يكون له عمل، وأن يتوقف عن كونه عبئاً على أهله، فقضى شهوراً وهو يفكر في حلول. ها هو الآن صاحب عمل. ولكن

من المؤسف أن ملله وشعوره بعدم أهميته لم يقلّا عما كانا عليه عندما كان يتسكع بلا طائل.

لكن الأحداث اتخذت منحىً سريعاً فجأةً لدرجة أن يوسف، وفي مرات كثيرة، لم يعد يجد وقتاً ليفكر بيومه عدا أن يفكر بحياته.

5

كان الأسبوع الذي عُين فيه موظفاً. استدعاه أبوه إلى غرفته قبيل المساء. نظر إليه لمدة طويلة بوجه شديد الشحوب، ثم أشار بعينه إلى تلغراف في يده قائلاً:

"أخبار فظيعة يا يوسف!"

"ماذا جرى؟"

"اليوم أُعلن النفير.. قامت الحرب".

ورغم أن يوسف لم يستطع استيعاب أهمية الخبر بمعناه التام، فإنه كان يحس بحدوث شيء غير اعتيادي في الأجواء. فقد كانت أحداث ملتهبة تطرق مسامعه منذ عدة أسابيع. كما أن أباه تحدث عدة مرات عن أن هناك شيئاً ما يدور، وأن الأجواء لا تطمئن.

كان القائمقام في الأيام الأخيرة مشغولاً جداً، يبقى في مقر عمله مع رئيس الشعبة ويعمل حتى وقت متأخر. ولكن لعادته في عدم التحدث مع

عائلته كثيراً لم يعطهم أية تفاصيل. يوسف بدوره لم يكن يرتاد المقهى، وكل ما يسمعه كان عبارة عن أطراف كلام. لا تصل إلى إدرميت في الأسبوع أو عشرة أيام إلا أربع أو خمس صحف من إسطنبول، تُرسل إلى بعض المتابعين المهتمين. أما أكثر أخبار العالم فتصل عبر البائعين وسائقي العربات القادمة من إزمير وبالكسير، كما تنتشر بعضها عبر بعض الروم المحليين.

تأثيرات إعلان الحرية وحروب إيطاليا والبلقان لم تصل إلى هنا إلا بعد مرور مدة معينة، ذهب العسكر بصمت، ومن لم يمت منهم عاد بصمت أيضاً. ولولا وجود التجمع الرومي الكثيف في هذه البلدة، واهتمامهم بمتابعة ما يدور في الدنيا عن قرب، لربما استمرت هذه البلدة في حياتها بعيدة عن كل حوادث الدنيا وغير مكترثة بأي منها. لكن خبر إعلان التعبئة والنفير أفهم الناس بأن هذه المرة لن يكون الحال كما هو مع أي خبر سابق. كأن حدساً مشتركاً أمكنهم من تصور قادم مرعب.

بينما كان يوسف يعود مع أبيه إلى البيت، كانت الطبول تُقرع والمزامير تُنفخ في الشوارع، والتجمعات أمام المقاهي تتحدث وتتجادل بحرارة، ويمشي الناس مع بعضهم في صفوف. حتى أطفالهم كانوا يتصرفون بجدية. كل منهم يرفع حاجبيه ويستعير وجه المتفكّر، وبمجرد عثورهم على شخص أقل علماً منهم بما يدور يخبرونه بما استطاعوا أن يلتقطوه من محادثات الكبار مع توقعات وتبهيرات وإضافات تجود بها مخيّلاتهم.

في الطريق أطلع القائمقامُ يوسفَ على بعض مما يعرف:

"يا بني، الوضع هذه المرة سيء! لنر كيف تكون نهايته، صحيح أن حلفاءنا أقوياء، لكن كما يقول المسنون، أنت تضع نفسك في مواجهة سبع

دول. لا أظن المسألة تطول كثيراً. لكن التعبئة هذه المرة تشمل الكثيرين... وهناك تلغراف قادم بشأن عدم السماح لأحد بالتهرب من التجنيد...»

وفيما تبقى من الطريق أخبره بمن يشن الحرب، وضد من يشنها، وعدد له أسبابها كما قرأها في صحيفة وصلت إلى القائمقامية.

طبول، أبواق، (أيها الغازي)[1]، تجمعات في الشوارع... جنود شبان يمشون بحماس راقصين وهاتفين في نفس الوقت... المساكين رغم هتافهم: "يا غازي! يا شهيد!" إلا أنهم لا يعرفون ما ستؤول إليه عاقبتهم، ولا يخطر الموت على عقولهم... أبطال تقبلوا هذا التغيير المفاجئ والمخيف على حيواتهم الرتيبة ضاحكين وراكضين إلى الموت، دون أن يخطر على بالهم أن يسألوا لأجل من ولمَ وأين وكيف سيموتون حتى...

لم يكن يعي حجم الفاجعة أحد كالنساء.. فقصور مخيلاتهن كان يقف عائقاً أمام تزيين وتجميل هذا الشيء المرعب ويجعلهن يفكرن في أوجاع الأيام المقبلة منذ الآن.

خلف كل الرجال المودعين لزوجاتهم وأمهاتهم بوجوه تكسوها ابتسامة مذهولة، كان جميع من في البيوت يكونون مضطربين، ويشعرون بشفقة تشبه الشفقة على الأطفال تجاه الرجال الذين كانوا يحاولون طمأنتهم، يفكرون بأنهم معمون مخدوعون.

بالإمكان القول إن كل بيت في الحي ذهب منه شخص. وقد كان أصدقاء طفولة يوسف من بين المُساقين في أول دفعة. أما عنه هو فسيبقى حالياً. عندما

1- Gaziler Ey: نشيد عسكري عثماني مطلعه (أيها الغازون لقد بدا الطريق).

أخبره أبوه عن إعلان التعبئة قال له أيضاً:

"يبدو أن إصبعك سيفيدك هذه المرة، فرئيس الشعبة يقول إن من لديهم إعاقات مثل حالتك ليسوا من بين المستدعين لحمل السلاح بعد".

رفع يوسف يده اليمنى ونظر إلى مكان إبهامه. كان بجانب إصبع السبابة نتوء عظمة مكسو بجلد لم يزل محافظاً على احمراره وفي منتصفه أثر جرح ملتئم نحو الداخل.

وبينما كان ينظر إلى يده مبتورة الإصبع طار بذاكرته إلى ذكرى قديمة مؤلمة.

سببت له رؤية الحوادث والمناظر التي كان لا يرغب في تذكرها منذ سنين طويلة حية وواضحة أمام عينيه نوعاً من الحزن لم يكن قد سمع به قبلها قط. سأله أبوه الذي كان يمشي بجانبه عندما رأى تعابير الألم على وجهه:

"ما هذا يا يوسف؟ أنزلت عليك البطولة؟ هل أنت حزين لعدم قدرتك على الذهاب إلى الجيش؟"

لم يرد يوسف إلا بـ:

"لا!"

ثم عاد ليستغرق في أفكاره بعينين نصف مغمضتين.

كأنه لم يفارق قويوجاق، والتي لم تكن بالمكان الجميل أبداً، والمحاطة من خلفها بجبال عارية بلا أشجار إلا البارحة. أزقتها الضيقة والموحلة، وأفنية

المنازل ذات الحدائق الصغيرة، أبوه العائد من الحقل منهكاً متعباً مقطباً وجهه للجميع حتى يرتاح، وأمه التي أمضت يومها في المطبخ ترابي الأرضية الواقع بالدور السفلي، تدير رحى البرغل وتعجن العجين وتشعل النار، كأن كل ذلك مثل أمام ناظريه. يرى عيني أمه تشتعلان وهي منحنية على الفرن تنفخ على الحطب الذي لم يلتقط النار بعد.

ثم تذكر ليلة الحادثة ومرت كل تفاصيلها الدامية بذهنه في لحظة خاطفة. توتّرت جميع عضلات وجهه واكتسى صدغاه بالعرق.

القائمقام يرى حال يوسف هذا لكن لا يسأله عن شيء لعدم رده على سؤاله الأخير أصلاً. فهم بأنه منشغل بالتفكير في مسألة هي أهم من الالتحاق بالجيش أو عدمه. وحتى يسحب اهتمامه إلى موضوع آخر، قال:

"إيه؟ كيف هي الأعمال؟ كيف أنت مع زملائك؟ نعم، لقد مر أسبوع منذ مباشرتك بالعمل".

رفع يوسف رأسه ناظراً إلى أبيه بعينين سارحتين قائلاً:

"أي أعمال؟"

"الأعمال في الدائرة الحكومية بالطبع!"

"وهل بها عملٌ أصلاً؟"

"ماذا بك يا يوسف؟ كم أنت مخلوقٌ عجيب! لقد ألقيت عليك في المرة الماضية كلاماً بقدر كتاب. ما الذي تفهمه عندما أقول لك عمل؟ جلوسك

هناك بحد ذاته يعتبر عملاً. ما أقصده هو كيف تقضي وقتك بينما أنت هناك؟ أخشى أن يجعلك المسنون عندنا تباشر بأداء الصلاة..."

لم يُجب يوسف مجدداً. وبعد مدة وجيزة وصلا إلى البيت. لم يكن به غير معزز. وبعد حلول الظلام عادت شاهيندة. تناول الأربعة طعامهم في هدوء. وبعد فترة قصيرة طرق الباب ابن جارهم الساعاتي راقم ذو السبع سنوات. قال لمعزز التي فتحت الباب:

"تقول أمي لتأتِ إلينا الخالة شاهيندة إن لم تكن مشغولة".

خرجت إليه شاهيندة وسألته:

"ما الخطب يا بني؟!"

"عاد ألم الخاصرة إلى أمي، عاينيها بسرعة!"

وضعت شاهيندة على رأسها شرشفاً وخرجت وهي تقول "سأعود حالاً!"

كانت زوجة راقم أفندي العليلة ترسل في استدعاء جاراتها لمساعدتها كل حين وآخر، وبمجرد زوال نوبة الألم بعد عدة دقائق يباشرن في الثرثرة والغيبة.

ولعلم صلاح الدين بيك ومن في البيت بذلك وبأن شاهيندة لن تتعجل في العودة إطلاقاً فإنهم لم يسمعوها وهي تقول "سأعود حالاً" حتى.

قبيل العشاء، مدّت معزز فرشهم. وجلس أبوهما على فراشه بثوب النوم،

ثم راح يقرأ في صحيفة أحضرها من العمل. قدماه فوق اللحاف، وسرواله القطني السيلانيكي سكري اللون يظهر من أسفل ثوبه ممتداً حتى كاحليه.

جلس يوسف على الطراحة، إحدى قدميه تحته، والأخرى أسند عليها ذراعيه. وعيناه مركزّتان على المصباح المضيء بارتعاش إلى جانب أبيه. يتجوّل خلال أفكاره عائداً سنوات وكيلومترات إلى الماضي ثم إلى الحاضر بلا توقف في مكان محدد.

أما معزز فقد كانت تغفو على الأريكة الطويلة بامتداد الغرفة وفي يدها الإبرتان والخيط. تنفرج عيناها انفراجة خفيفة بين حين وآخر، تلتفت إلى يوسف وأبيها، ثم تعود إلى غفوتها حين لا تجد عليهما علامات النوم.

في كل ليلة يقول لهم صلاح الدين بيك:

"هيا! ألن تناما؟"

فيصعدان إلى غرفتهما بعدها. يعدّان انسحابهما إلى غرفتهما بمجرد انتهائهما من الطعام، أو قبل أن يطلب منهما والدهما ذلك عيباً.

لكن صلاح الدين بيك لم ينته من قراءة الصحيفة بعد، ومعزز مائلة إلى الأمام وكأنها على وشك السقوط، تفتح عينيها فجأة مصححة وضعية جلوسها ومتلفتةً حولها بنظرات خائفة.

وبينما رأسها يترنح من النعاس، ارتخى ببطء على الجهة اليسرى ملامساً حافة النافذة فغطت في النوم على الفور.

استيقظت بعد مدة على أصواتٍ غريبة. نظرت إلى أنحاء الغرفة من مكانها. لم تعِ شيئاً من المنظر الذي رأته. فجأة انفرجت عيناها على اتساعهما. صرخت بفزع:

"أبي!!"

كان صلاح الدين بيك واقفاً على قدميه فوق الفراش، متمسكاً بالجدار خلفه بيده اليسرى وضاغطاً على قلبه باليمنى، عيناه بارزتان إلى الخارج، يتهوّع باستمرار. هرع يوسف إلى أبيه، أسنده بيد وبيده الأخرى طاسة.

وحيث إن المصباح معلق على الجدار خلف صلاح الدين بيك فقد كانت رؤية وجهه صعبة. لكن أسنانه كانت تلتمع في ذلك الظلام وهو يفتح فمه على اتساعه محاولاً التنفّس بعناء.

بعد أن صرخت معزز: "بابا!!" فزعت من مكانها ناحية أبيها وراحت تسأل بخوف وتضرع:

"ما الذي يحدث يا يوسف؟.. أبي العزيز.. ماذا بك؟"

أدار القائمقام وجهه والتفت إليها. اكتست وجهه بغتةً تعابير اضطراب فظيعة. لا يستطيع الكلام، وعيناه بهما تلعثم طفل لا يستطيع شرح ما يقلقه، يريد الركض إلى ابنته. نزلت من عينيه اللتين كانتا تومضان بين وقت وآخر وتحتضنان كل ما في الغرفة من جماد أو حي كأنهما لا تريدان تركه، عدة قطرات من دموع.

تعلقت معزز برقبة أبيها...

حلّ يوسف يديها. دفع القائمقام الذي كانت صعوبة تنفسه ونوبات تهوّعه تزداد بابنته من صدرها مبعداً إياها عنه.

التفتت معزز باكية إلى أخيها:

"يوسف! لنناد أمي. هي التي تعرف ما يجب فعله عندما تطرأ نوبات أبي!"

رفع صلاح الدين بيك حاجبيه بإشارة تريد قول "لا". ثم قال بصوت متقطع باذلاً غاية جهده:

"لا حاجة.. هذه المرة الوضع أسوأ...أحضروا الطبيب..."

وثب يوسف على الفور. لكنه توقّف عند الباب، وسأل:

"معزز...لن تخافي أليس كذلك؟... لو أراد أبي شيئاً أحضريه له على الفور!"

وبينما كان يوسف يرتدي معطفه في الخارج أطلقت معزز صرخة:

"أبي!... أسرع يا يوسف!"

هرع يوسف إلى الداخل فوراً. انهار صلاح الدين بيك على السرير جاثياً على ركبتيه. ما زال متكئاً بيد على الجدار. أشار ليوسف بيده الأخرى أن اذهب.

عاد يوسف من جديد. وبينما هو ذاهب سمع صوت أبيه. كان القائمقام

يقول:

"بسرعة.." وهو يشير بيده.

ارتدى يوسف حذاءه بسرعة ثم خرج يجري نحو طبيب البلدية.

كانت معزز المتأبطة ذراع أبيها تنتحب. وعندما سمعت صفعة إغلاق الباب التفتت بقلق كأنها تذكرت شيئاً:

"يوسف!" صرخت. "يوسف! مر على أمي! دعها تأتي!"

لكنها عندما لم تسمع إلا صوت خطواته المبتعدة قالت:

"يا ويلي...لم يسمعني!"

عاد صلاح الدين بيك إلى التهوع مجدداً. يحتقن وجهه بدم خفيف سرعان ما يتبدد بزوال النوبة. مدت معزز إلى أبيها الطاسة التي أحضرها يوسف، لكن أباها دفعها قائلاً:

"أسرعي...أحضري روح لقمان من الأعلى!"

قفزت معزز. عند وصولها إلى الباب سمعت أباها يقول بصوت مختنق:

"أبنائي!" حين التفتت وجدته ممدداً على الفراش. كانت ستعود لولا أن القائمقام رفع رأسه قليلاً مشيراً لها بعينيه أن "لا ترجعي!"

احتارت معزز فيما عليها أن تفعل، فتوقفت عند عتبة الباب للحظة. عينا

أبيها اللتان كانتا تشيران لها أن "اذهبي!" و"لا ترجعي!" كانتا أيضاً تجذبانها إليه بشدة لا تقاوم في نفس الوقت، وتمنعانها من الابتعاد.

لفظ صلاح الدين بما تبقى في فمه من قوة، بصوت ضعيف:

"احضريه بسرعة!"

عندها هرعت معزز كالمجنونة إلى الأعلى. فتحت الدولاب الجداري لغرفة نوم أبيها وأمها. تعرفت على زجاجة صغيرة بيضاء ذات شعار أخضر في الرف العلوي. قبضت عليها بأصابع متوترة وركضت إلى الأسفل. كانت السلالم الخشبية تهتز وتطقطق بشدة تحت وقع أقدام الفتاة اليافعة السريعة.

عندما وصلت إلى باب الغرفة المشرفة على الشارع انفلتت منها صرخة. كان أبوها هنالك، أمامها تماماً، ممدداً على وجهه بجانب العتبة. ذراعاه ممتدتان نحو الباب كأنهما تودّان احتضان أحد سيدخل منه. رأسه مائل نحو اليمين قليلاً وشعره الأبيض منسدل على الأرضية الخشبية.

وثبت معزز على الجسد الهامد وراحت تهزّه صارخة:

"أبي العزيز... أبي.. انظر إلي!.. انظر لقد أحذرت لك الزجاجة".

رفعت رأس أبيها بيدها قليلاً وأدنت الزجاجة التي فتحت سدادتها بأسنانها من أنفه.

شعرت بدمعة سقطت على يدها. توقفت ونظرت إلى وجه أبيها بتعجب.

كانت الدموع تنهمر من عيني صلاح الدين بيك النصف مغلقتين باتجاه

خديه وتتقاطر على يد ابنته قبل أن تفقد سخونتها.

حين جاء يوسف مع الطبيب بعد قليل، نقلوه إلى الفراش، وجس الطبيب نبضه، رفع رموشه ونظر إلى عينيه، ثم أغمضهما مجدداً بإصبع السبابة. قال بنبرة حزينة وهو يهز رأسه ملتفتاً نحوهم:

"البقية في حياتكم".

6

في صباح اليوم التالي تحول الموضع المقابل منزل القائمقام إلى ما يشبه المحشر من الزحام. أتى سكان بلدة إدرميت أفواجاً ليظهروا مرة أخرى وأخيرةً اهتمامهم واحترامهم تجاه هذا الرجل الذي بقي في نفس موقعه قرابة عشر سنوات لم يكسب فيها إلا القليل من الخصوم. ظلال الحيطان ملأى بالجالسين والمتقرفصين، حتى أمام جامع بايرام. يحس الناس، دون أن يدركوا ذلك، بأن ثمة شيئاً ما آخر يُقبر مع هذا الرجل، وأن السكون والطمأنينة التي استمرت طوال سنوات في إدرميت الهادئة، أصبحت من الماضي. كان للبلدة المنفصلة عن العالم تماماً قائمقامٌ ليس له علاقة بالدنيا كذلك، والآن برحيله وقطع روابطه مع هذا المكان يترك البلدة وسكانها لعجلة الزمن التي تدور بسرعة والتي تصل اهتزازاتها إلى هنا.

كان يوسف مذهولاً يقف عند الباب بلونٍ شاحب. ومع كل صرخة تنطلق من داخل البيت يعض على أسنانه، لكنه لم يكن يستطيع أن يبرح مكانه. لم يخطر بباله من قبل إمكانية حصول حادثة تُحزن المرء وتؤلمه إلى هذه

الدرجة. غير قادر على تصديق ما يجري، ويظن بأنه وسط كابوس مرعبٍ فقط. تغير وجهه إلى حد لم يجرؤ معه أي ممن كانوا هناك بالاقتراب منه.

وقعت عين العجوز حاسب أفندي المشغول بالمراسم المعتادة داخلاً وخارجاً من المنزل على يوسف فتوقف مكانه. أرعبه كون يوسف لم يبك بعد كثيراً مع أنه هو نفسه بكى. قال ممسكاً به من كتفه:

"هيا يا بني، اذهب وتجوّل قليلاً.."

كان حاسب أفندي قد هدّه التعب وهو يجري من مكانٍ لآخر منذ الصباح. وحين يجد لنفسه دقيقة للراحة كان يرفع نظارته إلى جبهته وينخرط في البكاء، تاركاً دموعه تسيل على لحيته البيضاء وتتقاطر على قميصه. لكن ما كان لجنازة صلاح الدين بيك أن تجهز من دونه. النساء في الدور العلوي متمددات كأنها قد فقدن وعيهن وبجانبهن أربع أو خمس جارات ينتظرن. كان حاسب أفندي يتدبر أمر كل شيء، بدءاً من جلب الصابون والليفة إلى إعلام المؤذن بالأمر، كما كان يهدئ من روع النساء ويسكنهن.

لم يكن يوسف في حالٍ تسمح له برؤية معزز حتى. بل كان يخشى من أن يقف أمامها وجهاً لوجه. لأنهما لو فعلا ذلك سيدركان حجم الخسارة بشكل أوضح ولن يكون بمقدورهما تحمل ذلك. كان لقاؤه بمعزز وسط تجمع نساء الحي سيكون سخيفاً ومزعجاً في كل الأحوال.

نزل خطوتين من على الدرجات الصخرية والتفت إلى اليسار. مر من أمام كثير من الناس المصطفين على الأطراف، والذين كانوا يتابعونه بأعينهم حتى وصل إلى جانب المسجد. كان يرغب في التقدم أكثر، في الخروج من البلدة.

لكنه توقف فجأة. ورفع رأسه لينظر إلى شرفة المنارة. جعله الصوت الصادح منها إلى أنحاء البلدة يتسمر مكانه. كان صاري حافظ يتلو الصلوات بصوت بالغ التأثير.

لم تكن ليوسف علاقة كبيرة بالمسجد والصلاة والدين والإيمان. لكن أباه كان بتعبير شاهيندة "كافراً أحمر". لكن هذه الصرخات المنطلقة من المنارة نحو أفئدة كل من في الميادين كالخطّاف جعلته يسرح خاشعاً. لم يكن لهذا الصوت علاقة بالدين. وإلا لما صرخ الشيخ صاري حافظ بكل قلبه من أجل رجل يعرف أن دينه ناقص، رجل لا يراه في المسجد إلا في الأعياد. حتى الله لم يكن حاضراً هنا. بل خطاب إنسان شعر برهبة الموت تجاه إنسان آخر ميت. من المؤكد أن القائمقام الممدد في حديقة الجامع كان يسمع ويفهم تلك الأصوات التي كانت تارة تحتد مرتعدة، وتارة تثقل مستسلمة بتوكل وتسليم. كان يوسف متيقناً من ذلك. بل ربما كان يجيب أيضاً، ولذلك كان صوت الشيخ صاري حافظ يرتفع بشجن وألم بين وقت وآخر. استند يوسف إلى جذع شجرة حور كانت بجانبه. جميع أطرافه ترتعد، واقف ينصت برهبة إلى المحادثة الجارية بين الشيخ صاري حافظ ترجمان جميع الجلود المرتعدة أمام الموت وبين الميت الممدد في الحديقة.

كان يوسف يستيقظ في الصباح أحياناً على صوت الشيخ صاري حافظ وهو يتلو الصلوات أو يؤذن. لكن صوته لم يكن يترك عليه أثراً أكثر مما يترك صوتٌ جميل. لكن ما يستمع إليه الآن كان شيئاً تام الاختلاف. هنا ليس للصوت أي دور. فالمهم هنا هي الأشياء التي يتم التعبير عنها، وهي أشياء كانت كبيرة وعامة و "إنسانية" لدرجة تضع الإنسان في الأرض وتهيل عليه التراب سائقة إياه إلى التفكير. نهض يوسف عندما رأى الناس ينهضون من

أماكنهم متجهين إلى الجامع. أدى معهم صلاة الجنازة. ثم مشى مع الجنازة الصامتة برأس مطرق إلى المقبرة.

***

لكن ذلك الحلم استمر أياماً بعد ذلك اليوم. حتى أن معزز التي كانت تنتظر منه مواساة في البداية أضحت تخشى مما هو عليه من حال.

"اضبط نفسك يا يوسف! إذا كان هذا حالك فماذا نفعل نحن؟" قالت له.

نبهت معزز يوسف دون أن تدرك ذلك، فراح يفكر في معنى ما قالته.

أصبح يوسف وحيداً في هذه الدنيا. أو بعبارة أصح، أصبح يقف وحيداً على قدميه، مجبراً على إسناد شخصين آخرين معه، دون أن يعتمد على أحد.

لم يعد يفكر بأسئلة من قبيل: كيف أدير حياتي الآن؟ أو هل هذا العمل يناسبني أم لا؟ فمن اليوم وصاعداً ستقوم الصدف والواجبات بتنظيم حياته. ربما كانت تنظم حياته من قبل أيضاً؛ لكن كانت بداخله قناعة غذاها بأنه يستطيع تغيير حياته في اليوم الذي يريده، وكانت تلك القناعة تمنحه شجاعة وأماناً.

لكنه الآن أصبح يرى ذلك الأمان يطير مختفياً، ويرى أياماً قادمة لا يدري ماذا سيجري بها، أيام تشبه جرفاً يتمدد، ويطرق برأسه مستسلماً.

لكن ما زال داخله أمل صغير يخبره بأن إطراقة الرأس هذه مؤقتة فقط، وأن إمكانات العيش "كما يريد" ستولد من جديد يوماً ما. هذا الأمل المبهم هو ما جعله يتوقف عن التفكير بأن غرفة والده المغبرة التي أصبح يتردد عليها بعد وفاة أبيه بأيام كانت هي ملجأه الدائم.

لم يتغير شيء لمدة ثلاثة أسابيع. تراجع يوسف عن التفكير في المستقبل بعد أن رأى أيامه تصبح محطمة، وأصبح يعمل على أن يبقى رأسه فارغاً من أي شيء. يعود في المساء ليجلس في الغرفة المشرفة على الشارع بعد أن يغتسل، ثم يراقب معزز وهي تحضر السفرة. الشابة التي فقدت كل حيويتها وسعادتها أضحت تتحاشى أن تتلاقى عيناها مع عيني زوجها. لأنه متى ما التقت أعينهما استذكرا فاجعتهما المشتركة واغرورقت أعينهما بالدموع.

شاهيندة التي كان رأسها مغطى وعيناها محمرتان دائماً كانت تأتي إلى السفرة لتأكل عدة لقيمات ثم تذهب إلى الغرفة التي في جهة حديقة المنزل، تتمدد على الأريكة ثم تباشر بالأنين "آه يا مصيبتي!". كان حالها بائساً وحزيناً فعلاً. تذهب في اليوم إلى أربع أو ثلاث جاراتٍ على الأقل، لتحكي لهن طريقة موت زوجها حسب ما سمعت من ابنتها معزز، مضيفةً على القصة علاوات من عندها. تكرر القصة على كل ضيفة تزورها وكل جارة تذهب إليها، بعدها ينتحبن سوية بصوت عالٍ. لكن كل ذلك كان عادة. فقد كانت كل امرأة يخرج من بيتها ميتٌ ترى نفسها مجبرة على مراعاة هذه المراسم وأدائها. حتى الجارات كنّ دقيقات في أداء هذا العمل جداً. لا يفوّتن أي تقصير يرونه في بكاء "المكلومة"، كما لا يتوانين عن واجبهن في المشاركة بالمأتم أبداً.

لذلك كانت شاهيندة التي تعود إلى البيت في وقت متأخر مرهقةً منهكةً

غير راغبة في الأكل بفضل إكرام جاراتها لها، تضرب لولديها مثلاً للوفاء ببؤسها وشهيتها المسدودة.

كانت معزز تبذل ما بوسعها حتى لا تحزن يوسف، وأصبحت متمسكة بزوجها الذي بدأ يشبه أباه في كثير من أطباعه. لا تهون وتفصح عما في نفسها إلا في النهار عندما لا يكون يوسف أو أمه في البيت، تخرج ملابس والدها المجموعة في صرّة، تشمها وتبللها بدموعها.

وعندما تجلس في المنزل وحدها في العصر، تثب من مكانها مع كل وقع أقدام يأتي من الشارع، وتنتظر قرع أبيها للباب ودخوله إلى المنزل بوجهه المرهق الشاحب. لم تكن تستطيع التصديق بأنه لن يطرق الباب، أو يطلب منها أن تجلب الماء حتى يغتسل عند المضخة، أو يتجول في المنزل بثوبه الطويل وشعره الأبيض مجدداً أبداً. لا بد له أن يحضر يوماً. سيحضر حتماً.

لكن عندما كان الباب يُطرق ويدخل منه يوسف بدل أبيها يتعرض قلبها لخيبة أمل ويختلج بسعادة في نفس الوقت، ويعلق وجهها بين تعابير السعادة والحزن.

كانا يفهمان بعضهما على نحو جيد فلا يرغبان في الحديث عن أبيهما وإثارة حزن شاهيندة والتسبب بسكبها للمزيد من الدموع بينما هي تتأوه في الداخل. رغم ذلك إلا أنهما في كل مرة تقع أعينهما على الأريكة المقابلة، الزاوية التي كان يجلس بها صلاح الدين بيك في كل مساء ويقلب فيها الكتب بعد تناول الطعام، يطرقان برأسيهما ويصمتان لدقائق متصلة.

كم كان صلاح الدين بيك الذي كان ينظر إليه كمسن وهو في السادسة

والأربعين من عمره يملأ هذا البيت؟ وكأن البيت الخشبي المؤلف من أربع حجرات أصبح فارغاً فجأة. ولغياب الخادمة الروملية التي لا يبدو أنها ستعود من عند زوجة ابنها أصبحت هذه العائلة التي تبقى ثلاثة من أفرادها فقط لا تكاد تملأ إلا زاوية صغيرة من زوايا البيت، وبقية البيت فارغ، لا بل يملؤه شبح الميت.

لم تكن شاهيندة تتحدث في غير أوقات الشجار والمشاكل. معزز تخشى من التدخل بكلمة ويوسف يصمت دائماً. كان المتحدث في هذا البيت، والمازح والحكواتي إذا سنحت الفرصة، ولو بكلمتين أو ثلاث، هو دائماً صلاح الدين بيك. بعد أن رحل هو لفتهم حيرة وذهول تصيب من كان في المطحنة عندما تتوقف الرحى عن الدوران. متوقفة لكن صوت المطحنة ما زال يرن في آذانهم.

كان من المتوقع أن يدوم تأثر يوسف ومعزز وحزنهما طويلاً، لكن وكما قلنا في البداية، فإن وتيرة الأحداث تسارعت بشكل أعاقهما عن التفكير في موضوع معين لمدة طويلة.

7

بعد وفاة صلاح الدين بيك، أوكل أعرق الموظفين في الدائرة الحكومية وهو مدير الصكوك بإدارة أعمال القائمقام لمدة ما يقارب الخمسة عشر يوماً. بعد ذلك عين قائمقام جديد في ريع الشباب اسمه عزّت. كان أول عمل يقوم به هو دعوة الأشخاص المهمين في البلدة إلى البلدية حتى يتحدث

ويقيم أحلافاً معهم. ووفقاً للكلمات التي قالها في الاجتماع فإن البلاد تمر بأوقات مهمةٍ جداً. فمن المحتمل جداً أن تدخل السفن الحربية للعدو خلال يوم أو يومين إلى خليج إدرميت وأن تقصف البلدة أيضاً. على أهل البلدة ألا ينتظروا تلك اللحظة حتى يعوا مقدار الخطر المحدق بهم، بل عليهم أن يبقوا أعينهم مفتوحة ويعملوا يداً بيد مع الحكومة. وأشياء أخرى كثيرة.

كان أشراف البلدة من بين المدعوين إلى الاجتماع أيضاً. فقد كانت كلمات القائمقام الجديد موجهة إليهم هم في الحقيقة. ولرؤيته لنفسه في مقام أهم وأعلى من الجميع، لم ينظر أثناء حديثه إلى أحد، ولا حتى إلى رئيس محكمة الجزاء والمفتي والقاضي. يبدو أنه كان يحاول أن يوضح لهم بأن له صلاحيات واسعة وسط أجواء الحرب هذه.

بعدما انتشر خبر جلسة الشراب التي أقامها في غرفة من غرف خان شنارلي مع بعض الأشراف ردد بعض الموظفين من ذوي الخبرة:

"تمام، لقد أرسلوا إلى إدرميت أسوأ من لديهم... ولن يرحل من دون أن يحمل معه شيئاً".

لكن لم يبد على عزت بيك بأنه سيحمل شيئاً معه، فقد كان مسرفاً وشهيته مفتوحة للمتعة دائماً.

أصبح الشغل الشاغل لأهل البلدة الصغيرة هو تناقل ما يفعله القائمقام كل يوم بينهم دون نسيان أي تفصيل، مصحوباً بكثير من التفسيرات والتأويلات.

رأى يوسف القائمقام الجديد في أول أيامه في البلدة. كان جالساً في غرفته

على طاولته الخشبية يعبث بأحد أقلام الخوص عندما طرق أحدهم الباب فجأة. أطلّ في الغرفة رأس أشقر وتبعه جسد نحيل.

كان للقائمقام شعرٌ أصفر كث، وشوارب وحاجبان داكنان. يظهر عليه أنه في الثلاثينيات من عمره. يتجول بعينيه ذات اللون الأزرق الشاحب حواليه بسرعة، ويتكلم بكلمات متسارعة مشيراً بساعديه الضعيفين وكأنه يحاول إيضاح شيء ما. سأل كل من في الغرفة عن اسمه، ثم أسند يديه على طاولة يوسف عندما وصل إليها.

"وأنت ماذا تفعل؟" سأله.

"الكتابة يا سيدي".

"لم أسألك عن وظيفتك يا عزيزي، بل ما تفعله".

"أفعل ما يكلفونني به يا سيدي".

أوضح أحد الموظفين الواقفين بجانب القائمقام ويداه مشبكتان ببعضهما:

"إنه زوج ابنة القائمقام السابق رحمة الله عليه يا سيدي".

هز عزت بيك رأسه بحركة ذات معنى:

"أهذا هو؟" قال.

"نعم سيدي".

يوسف واقف خلف طاولته وعيناه مثبتتان على يدي القائمقام. يدا القائمقام ذات شعر أصفر وعظام مكتنزة، وأظفار أصابعه مستقيمة ومائلة إلى الأمام. استمر يوسف الذي لم ير في حياته يداً بشعة بمراقبة حركات يدي القائمقام بذهول. كان القائمقام يقوم بالإشارة بيده عندما يسأل عن شيء، ويقوم بالطرق بأصابع يده الأخرى على الطاولة.

كانت في لسانه لهجةٌ روملية خفيفة، لكنه يحاول أن يخفيها. لم يلاحظها يوسف في البداية. لكن لأن أذنيه ممتلئتان بكلمات خادمتهم الروملية أدرك ذلك فوراً عندما قال القائمقام: "أهذا هو؟"

بعد أن تجول القائمقام بأنظاره في جدران الغرفة ونظر إلى بعض الدفاتر والسجلات القديمة والكبيرة المسندة في الزاوية قال:

"حسناً، هذا كل ما في الأمر، عودوا إلى أماكنكم" ثم خرج.

تركت هذه الزيارة انطباعاً غير سار أبداً في نفس يوسف. لم تكن تفارق ذهنه عينا القائمقام الزرقاوان اللزجتان، اللتان تعطيان إحساساً أنهما توسخان كل ما تنظران إليه، ويداه البشعتان لدرجة مرعبة واللتان التصقتا بالطاولة لمدة.

كم كان يسأل بصفاقةٍ واستخفاف.

بينما كان يسأل: "ما اسمك؟" أو "ماذا تعمل؟" كأنه جملةً أخرى صامتة تنسكب من بين أسنانه تقول "هل أنت رجل؟" ضاربة رأس المخاطَب. كانت نظراته وهو ينظر إلى العجوز حاسب ونوري أفندي نظرات استخفاف ممزوجة ببعض الشفقة، لكنها احتدّت عندما وقعت على يوسف. وعندما

لاحظ أن يد يوسف الممسكة بالقلم ينقصها إبهام برزت أسنانه المصفرة والمنتظمة بابتسامة من لا يكاد يكبح ضحكته أمام مشهد مثير للضحك.

اعترى نفس يوسف شك من سؤال القائمقام: "أهذا هو؟". معنى هذا أن أحداً تحدث عنه عنده. لماذا يا ترى؟ ومن تحدث عنه؟ بينما كان يوسف يفكر في إجابات لهذه الأسئلة أحس بكون تواجده هنا بصفته ابن أو زوج ابنة القائمقام السابق يجعله في وضع محرج. حتى قبل أن يموت أبوه كان يتحسس من معاملة الموظفين المختلفة والمتذبذبة له، لكنه الآن أصبح مضطراً إلى أن يتحمل معاملتهم المستخفة وغير المهتمة به صراحة، بل والمستهزئة به أحياناً.

التفت حاسب أفندي نحو يوسف وسأله:

"بماذا تفكر يا بني؟"

"لا شيء يا والدي".

"هل أعجبك هذا الرجل؟"

هز يوسف كتفيه.

هز حاسب أفندي الذي اعتبر إشارة يوسف نفياً رأسه قائلاً:

"ولا أنا أيضاً، لم يعجبني".

قطع نوري أفندي دعواته التي لا يكف عن ترديدها وتدخل بالكلام من زاويته بوجه عبوس:

"كل مساء يشرب مع أحد السادة".

أجاب حاسب أفندي:

"هل كان المرحوم ليجلس ويشارك هؤلاء الأوغاد متعتهم؟ رغم أنه كان يعرف بأن لا أحد سيظن به ظن سوء، إلا أنه لم يكن يلبي دعوة الأشراف حتى. حتى مع أنه أمضى هنا عشر سنوات، وجعل الجميع يعرف كم هو ساذج".

صمت لمدة، ثم تابع:

"لم تكد تمض ثلاثة أيام منذ مجيئه. فكيف تعرفوا على بعضهم وبدأوا بمعاشرة بعضهم بهذه السرعة؟ يظن نفسه ماكراً لكنه يدخل القفص بعد ثلاثة أيام. لقد رأينا قائمقامات مثله قبل أن يأتي صلاح الدين بيك، سعوا منذ مجيئهم إلى التصرف وكأنهم أذكى من الجميع، لكنهم بعدما انقلعوا من هنا قرع الناس خلفهم التنك. لا أعلم، لكن نهاية هذا أيضاً ستكون مشابهة".

قطع نوري أفندي دعواته مجدداً:

"يا بني يوسف أفندي! لقد شرب البارحة مع حلمي بيك. بدأوا سفرة شرابهم في خان شنارلي، ثم أكملوا الجلسة في بيت حلمي بيك".

فكر يوسف للحظة. قال: "ما معنى هذا؟". لكن احتمال كون حلمي بيك هو من تحدث عنه أمام القائمقام طرأ على عقله. فردد بينه وبينه نفسه: ماذا يريد هؤلاء الأوغاد مني بعد يا ترى؟!

كان يريد أن يستوضح من نوري أفندي ويتحدث معه أكثر. اليوم ولسبب ما لن يجلس صامتاً كما يفعل كل يوم. كان يشعر بضيق شديد. لكنه بينما كان يفكر خلع العجوزان جواربهما وانتعلا قبقابين، ثم راحا يتوضآن بالأباريق النحاسية.

بعد مدة اعتدل حاسب أفندي واقفاً بالأمام، ونوري بالخلف. ثم اصطفا بجانب بعضهما وهما يتمتمان بأدعية للصلاة فوق السجادة التي فرشاها.

مر الوقت على يوسف بطيئاً جداً حتى المساء. بعد أن خرج من عمله اتجه بخطوات سريعة إلى البيت. وبينما كان يمر بمنطقة السوق العلوية أخرج المحامي خلوصي بيك رأسه من مكتبه وناداه.

لم يكن خلوصي بيك قد رأى يوسف منذ وفاة والده، وفي يوم العزاء لم يتسنَّ له إلا أن يقول عدة كلمات، والتي كانت:

"يا بني، أنت تعرف الحقوق بيني وبين والدك، لو أغمك شيء، أو احتجت إلى شيء فتعال إليّ فوراً".

لكن لم يكن يوسف وقتها في حال تسمح له بالإنصات، ناهيك عن فهم ما يقال له، فإنه لم يتذكر كلمات خلوصي بيك إلا الآن.

دخل إلى المكتب الصغير المنخفض. كان مكتبا عادياً، عدا أن طلاء جدرانه من الداخل كان أبيض، كما أنه كان مؤثثاً بعدة أرائك وكراسي. وعلى الأرضية سجادة جميلة، وفي الزاوية أمام المحامي كانت طاولة واسعة عليها أوراق جلدية ومظاريف بنية اللون. وعلى الجدران لوحاتٌ كثيرة كتبت بخطوط رائعة. كان مكتوباً بخط الثلث على اللوحة الكبيرة المعلقة

فوق خلوصي بيك:

"هذا العالم مرآة، كل شيء بالحق قائم

وبمرآة محمد، يُرى الله دائماً".

وعلى يسارها قليلاً، في لوحات معلقة بجانب بعضها البعض كان مكتوب:

"إنما الأعمال بالنيات"، "لا يزول اليقين بالشك"، "المصلحة العامة فوق المصلحة الخاصة" وغيرها من الجمل المقتطعة من المجلات. وفي مقابل خلوصي بيك كانت هناك عبارة كأنها منبهة له تقول:

"أنا غريق بحر المعاصي

دخيلك يا رسول الله".

بعد أن دعى يوسف إلى الداخل، سحب خلوصي بيك كرسيه إلى الزاوية نحو رفٍّ عليه دستور وبعض مجلات، وأشار ليوسف كي يجلس على الأريكة المقابلة له، ثم سأل وكأنه يبدأ محادثة عادية:

"لم تعد تمر بنا يا بني! كيف حالك؟"

"أنا بخير يا سيدي".

"وكيف ابنتنا زوجتك؟"

"بخير سيدي".

"تشرب قهوة، أليس كذلك؟"

"أتشّكر فضلكم، لا حاجة لذلك".

"لا يجوز هذا! وهل يذهب الضيف دون أن يشرب القهوة؟"

ثم نادى القهوجي خارج الغرفة: "اثنان بسكّر!"

لم يكن يوسف يتلفت حوله. كانت قواعد طاولة خلوصي بيك مخروطية ونحيلة من الأسفل. أغمض يوسف عينيه نصف إغماضة، وراح يتأمل حلقات القواعد ويفكر في السبب الذي جعل خلوصي بيك يستدعيه. في داخله حاجةٌ للخروج والهرب من هنا بأسرع وقت.

سأل المحامي بعد أن جاءت القهوة:

"يا يوسف أفندي، يا بني، هل تنوي أن تستقر وتعيش في إدرميت؟"

توقف يوسف مدةً عند هذا السؤال الذي لم يتوقعه قط، ثم تمتم:

"لا أعلم.."

فكر خلوصي بيك قليلاً: "ما قدر أملاككم هنا؟"

أجاب يوسف:

"خمسون شجرة زيتون، وعشرة هكتارات من الحقول".

"هذا لا يكفيكم.. ثم لا بد أن يشتغل بها أحد، وأنت لا تبدو متفرغاً بعد الآن".

صمتا لبرهة. ثم عاد خلوصي بيك ليسأل:

"أليس لأمك أحد؟ قريب أو ما شابه؟"

"لا.. مضى زمن طويل مذ توفيت والدتها، ووالدها توفي قبل ثلاث سنوات على الأغلب. كان موظفاً في إدارة الريجي. لم يترك خلفه شيئاً..."

"أليس لك أنت أحد؟"

ركّز يوسف نظراته على خلوصي بيك محدقاً فيه لمدة. لم يكن يفكر في شيء، كان فقط ينتظر الشريط الذي بدأ بالدوران بسرعةٍ في عقله أن يتوقف. أخيراً نطق:

"أنا أيضاً ليس لي أحد".

عندها فتح خلوصي بيك قبضتي يديه كأنه وقع في موقف صعب قائلاً:

"إذاً ما باليد حيلة.. ستبقون هنا. لكن استمع لي جيداً يا بني! لنتحدث بصراحة. أنتم ما تبقى لي من أحب صديق إلي. لا تستأ من كلماتي. أولاً تذكر أن أباك لم يعد موجوداً. ليس لهذا علاقة بك، أقوله من أجل أمك. لا شيء لنخفيه، أنتم الآن تعتبرون عائلةً فقيرة. عليكم أن تعيشوا في العالم الذي تنتمون إليه. ثم عليك أن تتذكر أن ليس كل من في هذه البلدة صديقك. فقد حصلت لك مواقف عديدة. لذلك كن يقظاً. احرص على عملك وتمسك

به. فنحن في أيام عصيبة وصعبة. لا تستطيع أن تعمل شيئاً وحدك. لو قلت سأعمل تاجراً فستحتاج أولاً إلى رأس مال، كما أنه عمل فيه مخاطرة. انظر إلى الحرفيين، إنهم يتعرضون للنهب على يد قطاع الطرق منذ أسبوعين. ولو أخذت عربة حصان، قد تصدر الحكومة أمراً غداً تصادر به عربتك لصالح الجيش وتسلمك سنداً في يدك، عندها تبلله وتشرب ماءه. عين القائمقام الجديد عليك. لا يحب المسؤولون الجدد ترك رجال المسؤولين السابقين في أماكنهم. أنا متعجبٌ من عدم تعرضه لك بشيء خلال الثلاث أيام الفائتة. لأنك موظف تابعٌ حالياً، فإخراجك سهل. لكن من يدري، قد يكون رجلاً ذا ضمير. أنا لم أره بعد. ما يقال عنه ليس بجيد على العموم ولكن الحقيقة يعلمها الله فقط. اسمع! كدت أنسى أهم شيء. بينك وبين شاكر وحلمي بيك ماض. انسه. فليس لك أحد تستند إليه، لو لاحظوا ذرة عدوانية لديك ضدهم فسيسحقونك. لقد وثّقوا علاقتهم بالقائمقام الجديد على الفور... وحتى لو لم يوثقوها، فلديهم المال، من له القوة ليقف في وجه المال يا ولدي؟..»

أنصت يوسف إلى خلوصي بيك دون إصدار صوت. لم يكن سبب استدعاءه له هو إسداء هذه النصائح له على كل حال. خمن يوسف أن خلوصي بيك كان يحضّر لقول شيءٍ آخر في البداية. لكنه أحجم عن ذلك عندما رأى أن لا إمكان ليوسف أن يترك إدرميت إلى مكان آخر، فحوّل دفة الحديث إلى وجهةٍ أخرى. كان يوسف يشعر بذلك ويتنامى لديه فضول ليعرف ماذا كان بنية خلوصي بيك أن يقول.

لكن لم تكن لديه الجرأة الكافية ليسأله، بل من الأصوب القول إنه لم تكن لديه القدرة على إيجاد كلمات تعبر عما يريد قوله، ولا القدرة على ترتيبها. لا

يستطيع أن يقول: كنت ستقول شيئاً آخر، هيا أخبرني ما هو! بل عليه أن يصيغ كلامه بطريقة مختلفة. لكن عقله حتى وهو في أهدأ حالاته لا يستطيع أن يصوغ جملاً حاذقة. فكيف بحاله الآن وسلاسل من الأفكار والاحتمالات تلف وتدور بعقله مصدرة أنواع الضجيج.

نهض ببطء. وقال بعد أن قبّل يد المحامي:

"سأتبع نصائحك يا عم خلوصي بيك" ثم خرج.

8

في اليوم التالي، وفور وصول يوسف إلى دائرة عمله أخبره أحد الموظفين أن القائمقام يريده.

وعند دخول يوسف إلى الغرفة أسرع إليه حاسب أفندي قائلاً:

"يا بني، إن الوغد يستدعيك. نحن قلقون جداً، اذهب إليه بسرعة ثم عد وأخبرنا ماذا يريد. أتمنى ألّا تكون نية الملعون سيئة!"

كان احتمال فعل القائمقام شيئاً سيئاً ليوسف يقوى ويتحول إلى قناعة في رأسي هذين العجوزين بسبب الشكوك التي انتابتهما بشأنه، والتي كانت كافية لأن يسمياه "ملعوناً".

ترك يوسف عبوة طعام غدائه على الطاولة. ثم نفض يديه واتجه إلى الغرفة المجاورة.

تظاهر القائمقام في البداية بالانشغال بالأوراق المكدسة على مكتبه وعدم ملاحظة قدوم يوسف إليه، ثم رفع رأسه على مهل قائلاً:

"أهذا أنت؟"

ثم عاد إلى قراءة بعض الأوراق والتوقيع عليها وتغيير بعض أماكنها، جعل يوسف ينتظر لمدة تقارب العشر دقائق، بعدها نهض فجأة متجهاً نحو يوسف. وانفرج ثغره عن ابتسامة رقيقة. ارتعب يوسف من هذه الابتسامة بدل أن يرتاح إليها، بل اقشعر منها بعض الشيء. فهذا الرجل لم يكن ليبتسم لأحدٍ حتى لو كان ينوي أن يسدي له معروفاً. كما أن يوسف لم يكن يستطيع أن يفسر نظرات القائمقام النافرة من عينيه بشيء جيد. رفع القائمقام حاجبيه وراح وكأنه سيبدأ بإلقاء خطبةٍ مهمة:

"اسمع يا بني! أنت زوج ابن سلفي المرحوم. وأنا أكن للمرحوم كل الاحترام. كن على ثقة أنني أعدّك أنت أيضاً من أماناته للدولة. لقد نظرت وفكرت. فرأيت أن عمل الكتابة لا يناسبك".

صمت يوسف لمدةٍ وكأنه يحاول أن يرتب الكلمات في عقله ليعيها. قال في نفسه: يا ولد، أعرف أنك ستطردني، فلم إطالة الكلام؟ عاد القائمقام لاستكمال خطبته:

"اسمع يا بني، ينقص يدك اليمنى إبهام. متأسف لذلك. لكنك مهما حاولت واجتهدت في هذا العمل فلن تستطيع أن تجعل خطك جميلاً. وفي وظيفتك أنت أهم شيء هو خطك. وأول ما يلفت نظر المسؤول في الملاحظات المرسلة إليه هو الخط. المهم... سمعت أنك ذو طبيعة حرة. وأنا

وجدت عملاً يناسبك تماماً".

توقف القائمقام مجدداً وراح يراقب يوسف وهو ينتظره أن يكمل كلامه بابتسامة راضية:

"أفهمت يا بني؟ عمل يناسبك تماماً. تدبر أنت أمر بعض القروش، فلا بد أن لديكم بعض المال! واشتر بها حصاناً جيداً. سأجعل منك جابياً. فارساً جابياً. لقد تحدثت مع مدير المالية. سنعطيك معاشك هنا ونجعلك تعمل هناك. حتى علف الحصان سنعطيك إياه. وأنت ستجمع الضرائب من القرى. عملٌ رائع! أليس كذلك؟ ستتجول بين القرى بدل الجلوس والملل في الغرفة. وفوق هذا تضاعف مالك!"

كان يوسف يهز رأسه في ذهول وحيرة. وعندما أنهى القائمقام كلامه قال:

"كما ترون يا سيدي".

وضع القائمقام يده على كتف يوسف قائلاً:

"لقد كان القائمقام السابق أبوك، وأنا أُعتبر أخوك الكبير أيضاً. لو احتجت إلى شيء فتعال إلي. هيا، امض إلى غرفتك وانتظر أوامري".

خرج يوسف. كان عقله في غاية التشويش. لقد كان يعتقد بأن الرجل يضمر له سوءاً قبل أن يدخل إليه، بل إن هذه القناعة قويت لديه بعدما دخل إليه. لكن العمل الذي عرضه عليه ليس بالسيء حقاً. فمن أي طرفٍ فكر بالأمر، فإن عمل الجباية أفضل بكثيرٍ من العمل في دائرة التحريرات اللعينة.

في الغرفة روى لحاسب أفندي ونوري أفندي ما جرى معه بالداخل. حتى هما لم يريا في الأمر سوءاً. لكنهما قالا:

"ربما أن الوغد لا يريد تواجدك قريباً منه؟ مهما يكن، فالأمر غريب. لكن العمل الذي وجده لك ليس بسيء أبداً. فأنت ما زلت شاباً وتستطيع التحمل. التجول بين القرى في الشتاء والثلوج صعب بعض الشيء لكن ليس عليك. ليكتب لك الله ما فيه الخير".

قال نوري أفندي وهو يهز رأسه:

"لا يبدو على هذا القائمقام أنه رجل حسن الطوية، لكن يبدو أننا رأينا جانبه الجيد هذه المرة".

في طريقه إلى المنزل مرّ يوسف على المحامي خلوصي بيك وأخبره بما قال له القائمقام.

كان يظن أن خلوصي بيك سيسعد بهذا الخبر، لكن ما حدث هو أنه هز رأسه وهو يفكر بالمسألة، ثم قال كما قال حاسب ونوري أفندي:

"أتمنى أن يكون في هذا خيراً لك".

عندما أخبر يوسف معزز بوظيفته الجديدة بعد الطعام، أمالت المرأة الشابة برأسها إلى الجانب وقالت بشفتين مزمومتين حزينتين:

"جيد ولكن ماذا أفعل أنا هنا بينما تغيب أنت بالأيام متجولاً بين القرى؟"

عندها تغير وجه يوسف، وبدأ يفكر. لم يطرأ هذا على باله. فاحتار كيف

أنه لم يفكر في هذا.

فجأة طرأت على عقله جملة كان قد قالها أبوه: في قرية ذوي الرؤوس الحمراء، وبينما كان يوسف يتحدث عن العمل حوذي عربة، قال صلاح الدين بيك: "إذا خرجت إلى العمل فماذا تفعل زوجتك؟". هذا ما سيحدث الآن، سيذهب هو ليعمل وامرأته ستبقى وحدها. قال في نفسه وهو يبتسم بمرارة: "ويا ليتها تبقى وحدها!". فعندما يخرج إلى عمله ويتغيب عن البيت لأسابيع ستبقى معزز مع شاهيندة وحدها. ويعي يوسف أن هذه مصيبة أكبر من بقائها في البيت وحدها.

قالت معزز بصوت خفيض:

"يوسفي! أعرف أننا لن نكون قادرين على أن نعيش الحياة التي نتخيلها. لكن تغيبك عن البيت لفترات طويلة ليس بالشيء الجيد. أنت تعرف أن أمي أيضاً لن تكف عن إزعاجي، وستصطحبني رغماً عني لزيارة أناسٍ لا أحبهم، وتستضيفهم لدينا في البيت. من رأيي ألا تخبرها بشيء. فستعرف في النهاية على كل حال... الأهم ألا تحدث جلبةٌ في البيت. سأحاول أن أتكيف معها، لكني سأملّ وأختنق. إني أشعر بضيقٍ من الآن. لا أشعر برغبة في الصعود إلى الدور العلوي، لا أستطيع تخيله من دونك. آه يا ربي... كم هو شيء سيء!"

أدمعت عينا الفتاة. وابتلع يوسف ريقه بألم، ثم قال بنبرة من اتخذ قراراً:

"لا تحزني يا عزيزتي. صحيح أن القائمقام اقترح علي الذهاب ولكن لا أظنه يجبرني على ذلك. سأترك العمل في الحكومة..."

قاطعت معزز كلامه فوراً وقالت وهي تفكّر بالقدر الذي تفكر به امرأة:

"هل جننت؟! وماذا ستعمل لو تركت عملك؟ وهل تظن العمل الذي ستجده لن يفرقك عني أيضاً؟ هل يترك المرء عمله في هذا الوقت العصيب؟ لم يترك لنا أبونا شيئاً حتى نعتاش عليه. لكن لو بقيت في وظيفتك فسيتبقى لك بعض الوقت لتعتني بأشجار الزيتون، قد يساعد هذا في تحسين حالنا بعض الشيء".

تعجب يوسف من كلمات هذه الفتاة التي كان يعدّها طفلة. لكن ذلك لم يكفه حتى يرى بأن الحق معها.

كانت الليرات الذهبية الخمسة عشر التي تركها أبوهما لهم قد ذهبت في مصاريف الدفن والإمام والمؤذن، ولم يتبق في يد يوسف سوى بعض المجيديات. وقد تبقى على آخر الشهر عشرة أيام.

ولاقتراب حلول الشتاء كان لا بد من بعض المصاريف الإضافية. عندما تذكر يوسف ذلك أدرك مدى كون حديثه عن ترك عمله سخيفاً بل مثيراً للسخرية.

نام يوسف وقد قرر أن يتقبل كل شيء كما هو دون أن يقاومه أو يحاول تغييره. وبعد أن استيقظ بعد ليلةٍ لم تكن هادئةً كثيراً وجد الحياة أكثر حلاوة. فالأحداث لم تكن مخيفة ومثيرة لليأس بالقدر الذي يجعله يبحث أمرها على ضوء قنديل في ظلام الليل. ونسائم الخريف التي تتلاعب بأوراق الأشجار في الخارج لم تكن قادرة على اقتلاعها بعد. ليس من الصواب أن يسلم أمره لهذه الأفكار المظلمة بينما حتى هذه المخلوقات الخضراء الصغيرة لديها القوة

على الصراع والمقاومة.

انسلّ من سريره بهدوء متجهاً إلى النافذة. كانت الشمس ترتفع من خلف الأشجار وتغمر النباتات الندية لحدائق البيوت الواسعة بالضوء. فكر يوسف بأن التجول في البراري بالحصان في صباحٍ كهذا لن يكون شيئاً سيئاً. التفت إلى معزز شاعراً برغبة في أن يوقظها حتى تشاهد معه المنظر خارج النافذة، لكنها كانت دافنة رأسها في الوسادة تغط في نوم عميق كنوم الأطفال.

لم تسمح له نفسه أن يوقظها. مشى على أطراف أصابعه ليجلس على طرف السرير وراح يراقب زوجته وهي نائمة. كان شعرها منسدلاً على الوسادة كقطعتي نسيج. وكانت أطراف القطعتين هاتين محلولتين، والشعر الكستنائي متناثر كالخيوط في أطراف المسبحة. بعض الشعرات كانت ممتدة من جانب رأسها حتى وجنتها كأنها تكسو وجهها بطبقة خفيفة من الزغب الحريري. ثغرها مفتوحٌ قليلاً وأسنانها تلتمع مع كل نفس تأخذه. وفي جفنيها تتجول عروقٌ دموية زرقاء رفيعة، وحاجباها المشتتان قليلاً كانا يرتجفان بين حين وآخر.

تقلّبت الفتاة مكانها. نامت على ظهرها ملقية بإحدى ذراعيها على اللحاف وأكملت نومها بأنفاسٍ أعمق وأكثر راحة. ألقى يوسف بنظراته نحو صدرها. كان يرتفع منتفخاً مع أنفاسها المنتظمة أسفل ثوب نومها الأبيض مقفل الأزرار ومحرّكاً معه أطراف اللحاف. ويدها الملقاة على اللحاف الأزرق كانت بلا حركة. وأصابع يدها مثنية وكأنها ممسكة بتجعداته.

استمر يوسف بالتفرج عليها لنصف ساعة، وعندما لاحظ أن الشمس

طلعت نهض ليرتدي ملابسه. عندها فتحت معزز عينيها. وابتسمت لزوجها عندما رأته جالساً على طرف السرير، ثم جلست ونظرت إلى الشمس الساطعة من النافذة وهي تقول:

"آه يا يوسف، كم تأخرت في الاستيقاظ! كانت نومة عميقة!"

"لا يا عزيزتي، لم تتأخري كثيراً".

"انتظر سأجهز لك إفطارك".

وثبت من مكانها على الفور، ارتدت نعال المنزل وأسرعت نحو المطبخ.

تخيل يوسف استيقاظه في غرف مختلفة سقوفها خشبية متسخة، بدل استيقاظه في منزله مع زوجته التي تحضر له الإفطار كل صباح، وشعر بمرارة. ثم أبعد هذه الأفكار عن عقله ونهض ليرتدي ملابسه.

***

في ذلك اليوم أرسله القائمقام إلى مدير المالية وجعله يباشر بالعمل في تحصيل الأموال. تناول مميّزٌ في أواسط الثلاثينيات من عمره عدة دفاتر مقبوضاتٍ أمامه، وراح يعطي يوسف درساً مفصلاً انشغل يوسف بتمارين ذهنية حتى يحفظ ما سمعه ولا ينساه.

عليه أن يشتري حصاناً الآن. قرب المغرب وبينما هو يمر بالسوق السفلية صادف إحسان ابن الحاج رفعت والذي لم يره منذ زمنٍ طويل وطلب منه

المشورة. فأخذه إحسان إلى إسطبلٍ في طريق صوغوق طولومبه، وخلال نصف ساعةٍ أجرى المساومة على حصانٍ أبيضٍ جميل بقيمة خمس قطع ذهبية ونصف سيتم دفعها بالتقسيط قطعةً كل شهر. والدفعة المطلوبة مقدماً قام إحسان بدفعها من جيبه، ثم عادا إلى البلدة برفقة الحصان.

منذ مقتل علي لم يكونا يتحدثان في شيء. كان إحسان يرى في استشارة يوسف له بعد كل هذا الزمان كصديقٍ قديم مصدر فخرٍ له، وكان يحاول أن يثبت ليوسف أنه أهلٌ لهذه الصداقة.

أما يوسف الذي كان قد قطع رجاءه بكل الناس فقد قابل صدفة لقائه بهذا الرفيق القديم بشيء من التعجب والكثير من السرور والامتنان.

في الطريق استذكرا الأيام الخوالي والنزهات التي خرجا إليها سوياً، استرجعا ضيافات كباب الورق وحلوى الإرميك. وعندما تماست أطراف الذكريات مع ذكرى علي، صمتا. اختلس يوسف نظرةً بطرف عينيه إلى إحسان، ولاحظ أن عينيه هو أيضاً أدمعتا. لم يجدا شيئاً يقولانه لمدة. في النهاية تمتم إحسان:

"إييه يا يوسف، هكذا العمر، يمر بسرعة".

وبدل أن تضحك هذه العبارة التي قالها إحسان بطريقة الكبار في السن يوسف، جعلته يفكر. عندما وصلا إلى المفترق بين طريق جاي إيجي وبايرام يري توقفا ونظرا إلى بعضهما ثم افترقا. داخل كل منهما سرور لقاء بعد انقطاع طويل، وحزن نابع من إحساس بأنهما لن يلتقيا مرةً أخرى. فالحياة وإن بدت أنها تقرّب من فرقتهما مرة، إلا أنها لا تتركهما مع بعضهما طويلاً. فليس من

الممكن استرجاع الأيام القديمة، والذكريات وحدها ليست بالقوة الكافية حتى تربط شخصين ببعضهما.

لكن يوسف ومع ابتعاد إحسان عنه لم يشعر بتولّي ذكريات الطفولة فقط، بل كل ما يربطه بهذه البلدة أيضاً. الغربة التي يشعر بها تجاه إحسان الآن ذكرته بكونه لا يربطه بإدرميت شيء. وبعدما فكر أكثر شَعَر بأنه لا ينتمي إلى أي مكانٍ في هذه الدنيا، وفار بالغضب لكون الحياة التي يحس نفسه غريباً فيها تحاصره بالقيود وتسلب منه حرية تصرفه كما يريد.

9

كان مساءً شديد البرودة في أحد أيام تشرين الأول، عاد يوسف إلى منزله بعد انقطاع أربعة أشهر، ذهب إلى خلف الدار حتى يربط حصانه. كان قد فتح باباً في جدار الفناء وجهز مكاناً يشبه الحظيرة بجانب شجرة التوت. بعد أن ربط الحصان وعلق كيس العلف على فمه اتجه إلى المنزل. تعجب بينما هو داخل بعدم استقبال أحدٍ له. لكن الوقت ما زال مبكراً، يبدو أنهم مازالوا عند الجيران.

صعد إلى الدور الأول وتخفف من ملابسه. غسل يديه ورأسه بالصابون. كان جائعاً جداً. دخل إلى المطبخ وراح يقلب الدولاب. لم يجد شيئاً غير القليل من اللحم المفروم في قعر أحد الصحون. فتح الصندوق الأخضر عند مدخل المنزل، كان سيأخذ منه خبزاً وجبناً لكنه لم يجد شيئاً. هناك أكياس فارغة مكومة في زاوية، وفي الوسط كيس برغل نصف مفتوح.

عندما عاد إلى المطبخ لاحظ وجود قدر برغل مطبوخ على طرف الموقد. تناول ملعقةً خشبيةً من كيس الملاعق المعلق وجلس أمام قدر البرغل البارد.

بعد أن أشبع بطنه صعد إلى الأعلى وتمدد على الفراش. كان الظلام قد حل والقلق بدأ يعتريه بشأن زوجته. فلو كانتا عند أحد الجيران القريبين فمن المؤكد أنهما سمعتا بخبر قدوم يوسف من أحد أطفال الحي. في الغالب أنهما عند عائلة أحد الموظفين في حي السوق السفلية.

سمع صوت دوران المفتاح في قفل الباب فركض إلى النافذة ونظر إلى الأسفل، ففز قلبه من الفرح. قال: "لقد جاءتا!"

لولا ضبطه لنفسه لركض إلى الأسفل وعانق زوجته. أصبح يسمع صوتها الآن. قالت معزز بصوت كله دهشة:

"أ.. أمي!.. لقد جاء يوسف، انظري، الحصان في الفناء"

ثم ركضت نحو الأعلى وهي تهتف: "يوسف!"

تعلقت برقبة زوجها الذي كان ينتظرها عند رأس السلم وهي تقول:

"لم نكن نتوقع مجيئك اليوم، لكن يبدو أني كنت أشعر بقرب قدومك فقد كنت أردد على أمي: هيا نعود، هيا يا أمي، تأخر الوقت!... معنى هذا أنك تجذبني!"

نزعت غطاء رأسها. ثم التفتت إلى يوسف قائلة:

"أنت جائعٌ بالتأكيد، سأذهب لأحضر السفرة" ثم أردفت برأس مطأطئ قبل أن يقول يوسف شيئاً: "هل أحضرت شيئاً يا يوسف؟ ليس عندنا شيءٌ يؤكل بالبيت!"

فوجئ يوسف بالسؤال، وسأل:

"ألا يوجد شيءٌ للأكل؟"

"طبعاً يوجد، هناك القليل من البرغل، لكني خفت بأنه لن يشبعك بما أنك مرهق، أو ربما تشتهي شيئاً آخر. إذا لم تحضر شيئاً فلا يهم...لا تخرج مجدداً!... سأضع بعض المخلل، طعمه جيد مع البرغل. اجلس أنت وأنا سأخبرك عندما يجهز".

هرعت إلى المطبخ وبقي يوسف مكانه متسمراً. لكونه اعتاد على إشباع بطنه في القرى بأشياء مثل الخبز والجبن والزبادي والبيض، فإن البرغل الذي تناوله بالأسفل قبل قليل لم يجعله يفكر في شيء. لكن الآن عندما أوعى بأنه في دار صلاح الدين بيك تذكر بمرارةٍ بأنه لم يكن من المعتاد أن يؤكل البرغل دون شيءٍ بجانبه هنا، حتى ولو مع شيء من مخلل الفلفل. معنى هذا أن الأيام التي كان يخشاها قد بدأت. معنى هذا أن هذه العائلة التي تعتاش على مرتب سخيف لجابي ضرائب ستصبح من ضمن العوائل التي تسد جوعها بالبرغل الحاف!

تذكر الدولاب الفارغ والأكياس الخاوية في الصندوق الأخضر متمتماً بغيظ: "كيف حدث هذا؟ كيف له أن يحدث؟"

أطبقت يده على أصابعه بيأس. لم يكن هناك ثمة حل؛ بل يبدو أن حياتهم ستسوء أكثر، أما أن تتحسن فيبدو ذلك مستحيلاً. بدأ يوسف يحس بثقل المسؤولية التي يحملها على ظهره وينسحق تحتها ببطء.

سمع أصواتاً تتردد في الأسفل. كان يسمع بجانب صوت شاهيندة الذي يتعالى طبقة فطبقة صوت معزز فيه ما يشبه الرجاء. لكن لم يكن بإمكانه فهم ما تقولان. عندما دنى من الباب سمع معزز تقول:

"اصمتي يا أمي بحق الله!"

فأمسك الباب بيده وعض على أسنانه وهو يقول في نفسه: "آه من هذه المرأة!". ثم فكر في أن ليس له حق أن يغضب عليها، بل وأنها لا تلام فيما تفعله. فالمرأة بطبيعة الحال تريد من زوج ابنها أن يشبعهم، ومن الطبيعي أنها مستاءة لتزويج ابنتها لزوج مثله. رجلٌ تزوج ابنة القائمقام عن طريق الهرب معها دون أن يفكر كيف له أن يديم لهم الرفاهية التي اعتادوا عليها، يستحق كل الملامات والإيماءات التي يتلقاها من أم زوجته.

فكر يوسف "ما العمل؟"

كان سؤال "ما العمل" هذه المرة مثل كوب من السم انسكب عليه من رأسه إلى كل جسده. لقد اختلفت الهموم التي كانت تشغل تفكيره اليوم عن تلك التي كانت تشغله سابقاً. فاليوم لم يعد يفكر بالمستقبل وبالاتجاه الذي ستتخذه حياته وبكون العمل الذي يعمل به مناسباً له أم لا. فالمشكلة التي عليه إيجاد حل لها اليوم لا تتحمل التأجيل يوماً واحداً.

لكن لم يكن باليد شيءٌ يُفعل.

تحرك يوسف وهو يشعر بحلقاتٍ حديدية تعصر جسده. اتخذ وجهه تعبير شخص متقززٍ يبصق على شيءٍ قذر. لم يكن يرى نفسه يستحق كل هذه الهموم. كأن بداخله يعيش يوسف آخر صغير ينظر إلى هذا المسكين الذي يعاني من أجل لقمة العيش، ويصرخ وينادي من أجل تحصيل الضرائب من القرويين باستخفاف وتقزز.

عاد يوسف إلى الغرفة وفتح إحدى النوافذ حتى يتخلص من هذا الغثيان الذي كان يزداد.

وبينما هو على تلك الحال جاءه صوت معزز من الأسفل:

"يوسف، هلمّ إلى السفرة!"

هبط من السلالم ببطء. كانوا يأكلون في المطبخ حتى لا يضطروا إلى إشعال النار في مكانين بسبب برودة الجو.

كان قدر البرغل يقف في منتصف صينية النحاس، وأمام كل واحدٍ فيهم وضعت كسرة خبزٍ منزليٍ جاف.

قال يوسف:

"لقد تناولت عدة لقيمات عند وصولي، لا أشعر برغبةٍ في الأكل".

قالت شاهيندة بضحكةٍ غريبة:

"حتى لو كنت جائعاً فإن طعامنا اليوم لا يفتح الشهية".

حولت معزز عينيها نحو أمها بنظراتٍ حادةٍ ملؤها العتاب.

أكملت شاهيندة بنفس الضحكة:

"لم نكن نتوقع قدومه اليوم فلم نحضّر شيئاً".

نظرت معزز إلى أمها مجدداً وكأنها تريد أن تقول: "لم يكن هناك داعٍ لِقول ذلك، فهو يعرف كل شيء!"

ثبت يوسف نظراته أمامه. يتناول ملعقةً من البرغل ثم يتأملها لدقائق.

كان المصباح الموضوع على كرسيٍ منخفضٍ بجانب السفرة يجعل يدي معزز الدقيقة تبدو شاحبة صفراء. عندما وقعت عينا يوسف عليها اعترى داخله الخوف. رفع رأسه ببطء ونظر إلى معزز.

تلاقت نظراتها. اكتست وجه معزز ابتسامةٌ عذبة ولكن مرهقة. ترك يوسف الملعقة أمامه قائلاً:

"الحمد لله!"

ألقتا هما الملاعق بدورهما وكأنهما كانتا تنتظران لعذابهما أن ينتهي:

"الحمد لله!"

10

كان ما زال هناك وقت حتى يحل موسم الزيتون. وكان يوسف يتلقى الرد بالرفض من كل شخص حاول أن يبيع له محصوله مقدماً. فليس هناك من يريد الدخول في صفقة بيعٍ دون أن يرى المحصول على الأشجار عن قرب.

لم يكن ليوسف ومعزز أي ملكٍ آخر ليبيعاه. أما المجوهرات التي اشتراها والده في زمن ما فإنها تقبع داخل أحد أدراج شاهيندة، ولم يكن له ولا لمعزز الجرأة على طلبها منها. مهما ضاقت أحوالهم وصعبت لم يكونا ليقدرا على الدخول في مناقشة معها من أجل هذا الطلب.

ترك يوسف قطعتي مجيديةٍ استدانها من صديقٍ له لمعزز، وخرج إلى القرى من جديد. لم يعد منذ عشرة أيام. وحيث إنه لم يتبقَّ شيء من هذه الأربعين قرشاً كانت معزز تنتظر عودة يوسف بحزن، لكنها عندما تتذكر بأن عودته لن تغير من وضعهم شيئاً تضحك على انتظارها بمرارة.

أما شاهيندة فقد كانت تمر على المنزل بين مساءٍ وآخر، وتمضي معظم وقتها عند الجارات والصديقات.

لم تكن تتكلم مع ابنتها إلا فيما ندر، وكانت تراقبها بنظرات التي تعرف كل شيء وهي تتجول في المنزل بأعينٍ ذابلةٍ بالية وكأنها شبح. كان وضع شاهيندة يوحي بأنها تنتظر شيئاً ما. تنتظر بصبرٍ ودون ملل أو عجلة.

فلا بد أن عناد ابنتها سينكسر وستأتي إلى أمها متضرعة. كان هذا ما تريده شاهيندة. لم تكن ترى نفسها مسؤولة عن المشاكل التي هي نتيجة القرارات التي تم اتخاذها دون استشارتها، وتنتظر ممن كانوا السبب أن يأتوها ويتضرعوا إليها.

لم تكن تفكر في يوسف قط. لكن كانت رغبتها في إنقاذ ابنتها من هذه الحياة طبيعية. كيف؟ لم تفكر في كيفية ذلك، لكنها ستجد طريقةً ما.

لقد سئمت من بقائها في الخطة الاحتياطية في هذا البيت وأصبحت تغضب من عدم إعطائهم لها أي أهمية: وأكثر ما يغضبها كان عدم تفكيرهم في استشارتها والتفكير معها في حلٍ رغم كل المشاكل والهموم التي تلم بهم.

كانت قد قالت من قبل إن هذه هي النتيجة التي سيصلون إليها. فمنذ اليوم الذي جاء فيه يوسف إلى منزلهم حدست بقدوم مصيبة معه. كانت البداية في نصب الولد عينيه على ابنة ولي نعمته، والمرحوم كان يتغاضى عنهما ويسمح لهما. آه إن معظم الذنب عليه هو...

كانت تردد:

"ليرقد في النور، لقد جعل يوسف يتمكن منه كثيراً.."

وتغضب على زوجها الذي كان متعلقاً بيوسف أكثر من غضبها على يوسف.

كان مساء عاشر يومٍ من رحيل يوسف. شاهيندة بالأسفل تخيط أحد أطراف تنورة مقطوعة، ومعزز في الأعلى متمددةٌ على فراشها تهمهم ببعض الأغاني.

أذناها متعلقتان لأيام بالشارع. لم تكن المرة الأولى التي ينقطع عنهم فيها يوسف لمدة طويلة. لكنها تشعر برغبةٍ ملحة في رؤيته.

لكن وجهها عبس عندما تذكرت أن الوقت مساء وأن عليها تحضير الطعام. كانت فكرة الجلوس مقابل أمها على سفرةٍ فارغة والتعرض لنظراتها الساخرة من جديد يشعرها بالمرارة. لقد أصبحت في الأيام الأخيرة تشعر بما يشبه الحقد تجاه هذه المرأة. فحتى لو ماتت من الجوع لن تفضفض لها أو تحكي لها عن همها.

إنه لشيءٌ فظيعٌ أن تعيش في منزلٍ واحد مع شخص غريبٍ عنك تماماً. والمصيبة أن هذا الغريب هو أمها.

في فترةٍ ما غيرت أفكارها. أصبحت تخشى أن تكون قد بالغت في الهجوم على أمها ورؤيتها غير محقة في كل شيء. نعم، كانت تحب يوسف وتتحمل من أجله كل أنواع الأذى ولكن تحمل أمها التي عاشت أياماً مرفهة جداً لكل هذا الحرمان بلا سببٍ كان من الممكن أن يغضبها.

ثم أليس كل اللوم عليها هي في عدم كون أمها شريكة همها؟ هل عبّرتها ولو لمرةٍ واحدةٍ وبثت لها همها؟ والآخر يوسف بأسلوبه البارد ووجهه العابس يتجاهل كون شاهيندة تعيش معهم في نفس البيت، ولا يخاطبها ولو بكلمةٍ إلا للضرورة القصوى. رغم كل شيء فهذه المرأة هي أمهما وهي كبيرة البيت. وعلى أولادها أن تكون لهم المبادرة لإذابة الجليد بينهما وبينها.

قررت أن تخبر يوسف بذلك عندما يأتي. كانت تحتاج إلى شخصٍ يشاركها همها المادي والمعنوي في هذا المنزل، وهذه الوحدة التامة المستمرة لأيام كانت تخنقها.

بينما هي على ذلك الحال سمعت وقع أقدام في الأسفل. تسارعت نبضات قلبها. شعرت بحماسة لم تعرف معناها.

عندما دخلت شاهيندة إلى الغرفة اعتدلت معزز في جلستها.

قالت شاهيندة:

"نامي يا بنتي، استريحي!"

ثم جلست بجانبها.

انتظرتا مدةً دون كلام. ثم كسرت شاهيندة الصمت:

"أين زوجك يا ترى؟ لقد تأخر كثيراً".

"لا أعرف يا أمي. حتى أنا بدأت بالقلق".

"لا يوجد ما يستدعي القلق. فهذه هي طبيعة أعمالهم. لكن غيبته طالت هذه المرة".

لم تجب معزز. وبعد صمتٍ طويل قالت شاهيندة:

"كم مرةً أقول لك، أنت لا تذهبين معي إلى الجيران حتى وتنغلقين على نفسك في البيت. ماذا سيصبح حالك لو استمريتِ هكذا؟ ستصابين بالجنون!"

"وماذا أعمل يا أمي؟"

"تعالي معي تريِن بعض وجوه الناس وتسلين عن نفسك!"

"لكنني أملّ!"

"وهل تستمتعين كثيراً هنا؟"

حقاً هل كانت تستمتع في البيت وحدها؟ هل ستكون صحبة الصديقات المبالغات في الضحك والغناء أكثر مللاً من الجلوس في هذا البيت البارد الصامت!

مرت هذه الفكرة بعقل معزز لحظة. ولم تجد جواباً ترد به على أمها:

"ما أدراني يا أمي، لا أستطيع!"

قالت شاهيندة ممسكة ركبتها وهازةً إياها بلطف:

"استمعي إلي يا بنتي! ما زال عمرك في الخامسة عشرة، دخلتِ إلى القبر وأنت حية. كلما رأيت حالك نزف قلبي دماً. أقول لنفسي ما الحل لابنتي في عمرها الغض هذا. أنا أمٌ أيضاً!"

ثم راحت تبكي. ودمعت عينا معزز أيضاً. وطوقت رقبة أمها بذراعيها. تابعت شاهيندة بصوتٍ مرتعش:

"أنا أخرج ولا أبقى في البيت، لكن أتظنينني أفعل ذلك باختياري؟ أنا لا أطيق المكوث في البيت ورؤية حالك هكذا. سنقول حل بنا شيء وهذا هو قدرنا ونتحمل، لا بد أن هناك خيراً في نهايته. لكن المرء يُجنّ عندما ينغلق على همه ويجلس. أنت لا تأتين إلي وتشكي لي عما في نفسك مع أني أمك هل هذا تصرف ابنة تجاه أمها؟ قد ننكر الكل ولكن الأم لا تُنكَر. لقد حملتك في بطني تسعة أشهر. وأنت تعاملينني معاملةً في غاية السوء، هل يرضى الله عن ذلك؟"

انهارت معزز بالبكاء. تحضن أمها وتبلل خديها الملونين. شاهيندة أيضاً كانت في غاية الانفعال. تحس بأنها سكبت كل ما جمعته في صدرها من هموم لسنوات طويلة وتشعر تجاه ابنتها التي تشهق في حضنها بحبٍ وعطفٍ شديدين.

بدأت بالكلام مجدداً:

"يا بنتي. فكري بعقلك! ما زلت شابة. إذا تهربت من الخروج إلى الناس فأنت تجرمين بحق نفسك. الصديقات القديمات يسألن عنك في كل مرة أراهن فيها. في مثل هذا الزمان يستفيد الناس من بعضهم. وأنت ترين

حالنا. فحتى سماع كلمةٍ حلوة يمنحنا بعض الانتعاش. بينما تغلقين على نفسك الأبواب وترددين لقد أصبحنا فقراء، لم يبق لدينا خبز، لم يعد زوجي، ماذا تعتقدين زوجك يفعل؟ يأكل البيض والدجاج والزبدة ويستمتع على حصانه. ولا يفكر حتى بزوجته ماذا تفعل؟ كيف تسد جوعها؟ أليس كذلك؟.."

وجدت شاهيندة الفرصة السانحة فراحت تسكب كل السموم التي في داخلها وتقول ما على بالها. أغلقت لها معزز فمها شاهقةً:

"اسكتي يا أمي! لا تتكلمي أمامي عن يوسف بأشياء سيئة، هذا يحزنني.."

قالت شاهيندة ضاغطة على نحر معزز:

"لا أفلح من يحزنك!"

أغلقت معزز فمها من جديد:

"من أجل الله يا أمي دعك من هذه الكلمات، سأفعل ما تريدينه، وسأذهب أينما تريدين بشرط أن تكوني طيبة مع يوسف. لا تنظري إليه كعدو فهو يحزن أكثر مني".

"كان عليه أن يفكر من الأول يا بنتي، فالهرب مع فتاةٍ ليس بذكاء، الذكاء إشباع البطون آه يا بنتي الجاهلة..."

صرخت معزز:

"أمي!"

"سأسكت يا بنتي، سأسكت. هيا لننزل ولنأكل لقمة أو لقمتين. هذا إن كان هناك شيء..."

كانت معزز معتادة منذ طفولتها على كون كل كلمات أمها هكذا، موجعة ومؤلمة. لذلك لم تجبها. نزلت إلى الأسفل وهي تمسح عينيها. أخرجت قماش السفرة من زاوية الصندوق الخشبي الأخضر، وأحضرت نصف خبزة وتناولت ملعقة من الكيس المعلق بجانب الموقد ثم راحت تجهز السفرة وهي تتنهد.

11

من بعد ذلك أصبح كل شيء سريعاً وسهلاً لدرجة أن معزز لم تلاحظ. في الأيام الأولى امتدت الزيارات إلى المعارف القدامى وجيران الحي. حتى منزل حلمي بيك أصبح من بين المنازل التي يتم التردد عليها كثيراً، وهم بدورهم قابلوا هذه الزيارات بالترحاب. يبقون عندهم عدة أيام في الأسبوع حتى طعام العشاء ولا يعودون إلا في وقتٍ متأخر إلى البيت. بعد مدةٍ لم تعد هذه الزيارات تقتصر على الجلوس مع النساء فقط. في البداية كان حلمي بيك ينضم إليهن في مائدة العشاء، ثم أصبح شاكر يفعل أيضاً. وفي عدة مراتٍ جاءوا كلهم سويةً إلى منزل شاهيندة هانم وبقوا إلى أوقاتٍ متأخرة مستمتعين بألحان الراموفون الذي أحضروه من بيتهم. معزز التي كانت منذهلة في أول الأيام، رويداً رويداً تركت نفسها للامبالاةٍ عمياء. يوسف يأتي إلى البيت مرة في الأسبوع أو الأسبوعين مرهقاً ومتعباً تماماً، وبعد أن يبقى لليلة واحدة يخرج مع أذان الفجر إلى عمله من جديد.

كان موسم الزيتون. وكان أيضاً وقت تحصيل الضرائب من القرويين الذين باعوا محاصيلهم. كان مدير المالية والقائمقام يبالغون في إعطائه أوامر جديدة ويبعثونه إلى قرىً جديدة.

هذا الحال الذي استمر لعدة أشهر جعل معزز كالمخدرة. بدأت تنسى يوسف، لكنها أحياناً عندما تكون في غرفتها وحيدة تشعر برغبة قوية في رؤيته. ولأنها استمعت لنصيحة والدتها، لم تخبر يوسف شيئاً عن الزيارات في بدايتها، ساقها ذلك لمزيدٍ من الكتمان بل واختراع الأكاذيب المفصلة.

كانت مرتاحةً من جهة: فقد قلّت هموم المأكل والمشرب. لم تكن تخبرها أمها شيئاً بهذا الخصوص، وهي بالتالي كانت تتخلص من هم اضطرارها إلى قول شيءٍ ليوسف. كان عدم إحزانها ليوسف وعدم جعله مضطراً ليعاني من أجلهم يسعد معزز وجعلها تبرر لنفسها بعض تصرفاتها.

كانت كل خطوةً تتمادى فيها في هذا الطريق تأتي بتبريرها وحجتها معها. أمها بدورها كانت تهون عليها أفعالها بكلماتها فكانت إمكانية التفكير بأي شيءٍ تتناقص عند الفتاة الشابة رويداً رويداً.

كانت كالثملة أصلاً. ارتسمت على وجهها ابتسامةٌ طفولية دائمة. هذه الابتسامة التي فيها شيءٌ من الذهول كانت تمنحها جمالاً غامضاً فوق جمالها. حتى عندما تفكر بين حينٍ وآخر، لم تكن ترى في تصرفاتها بأساً. فبما أن أمها معها وتوافقها على كل شيء، بل وترتب كل شيء، فلن يقع عليها هي أي لوم. كما أنه لم يكن أحدٌ يتضرر من بينهم. فالتردد على زيارة بعض الصديقات ومجالسة ذكورهم ليست بالجريمة الكبيرة. لذلك لم تعد تُرى الأحزان المُمَزّقة في بيتهم، ونجا يوسف من نظرات شاهيندة اللائمة ومعزز المحزونة. بل حتى في الأمسيات التي يأتي فيها إلى المنزل منهكاً متعباً كان يلقى اهتماماً وعنايةً لم يعتدها من شاهيندة، وتستقبله معزز بأحلى الكلمات.

يوسف الذي لم يكن قادراً على التفكير بشيء بسبب الإرهاق، كان ينام دون أن يبحث عن سبب هذه المعاملة الحلوة ويرحل في اليوم التالي. لكنه كان يرحل بسرورٍ ووجه مبتسم. لم يكن يفكر في كيفية إدارتهما شؤونهما

بالمجيديات القليلة التي يتركها لهما بدون مشاكل، في الحقيقة فهو لم يكن يلاحظ أي شيء. كل همه كان معزز. كان سيحب عمله لولا أنه يضطره إلى فراق معزز في كل مرة. في كل مكان يذهب إليه كان وجه زوجته البشوش ورنين صوتها الجميل يلاحقانه، فتكتسي وجهه ابتسامة عذبة لا تُرى إلا على وجوه الحالمين.

كانت زوجته بأفضل وأجمل حال من أي وقت مضى. كان ذلك بفضل تلاشي المشاكل المادية في الأيام الأخيرة. ثم أن قناعتها القوية بأن الأشياء التي تفعلها دون علم زوجها ليست بالأشياء السيئة، وتفكيرها بأن إخفاءها عن زوجها هو لتفادي النقاشات التي بلا معنى معه كان يعطيها سلام ضمير ويمنحها شجاعةً ونشوةً تجعلها تبدو أجمل أمام زوجها.

بعد تقبلها لفكرة أن ما تفعله لم يكن ممنوعاً بالمرة، كانت ودون أن تلاحظ تتمادى في تصرفاتها. بل من الأصح القول إنها سيقت إلى ذلك.

بدأ شراب الراكي يظهر في الموائد التي تجلس عليها مع أمها. كانت أم شاكر وأم معزز تشربانه. معزز أيضاً بعد رفضٍ وإصرارٍ لمدة طويلة ذاقت طعم هذا الشراب الأبيض الحارق. تبعت الدوخة الخفيفة الحلوة قهقهات.

وفي ليالٍ أخرى زادت أعداد الأقداح. في هذه الليالي كانت أم شاكر وشاهيندة هانم كثيراً ما تخرجان من الغرفة وتختفيان مدة طويلة. في مرةٍ لاحظت معزز شاكراً وهو يومئ إلى أبيه ضاحكاً عند خروجهما لكنها لم تفهم شيئاً. كانت طبيعة العلاقة بين شاهيندة وهذه المرأة تحيرها.

معزز كانت على الدوام تقنع نفسها أن الوضع التي هي فيه طبيعي. لا تظهر شيئاً ليوسف وتخاف منه بعض الشيء.

لكن في إحدى الليالي جاء بصحبة شاكر وأبيه رجلٌ طويل القامة أشقر.

أظهرت أمه نحو هذا الضيف الجديد عظيم الاحترام. وحضرت المقبلات بنفسها. وبينما كانت إدرميت تبدأ بالإحساس بالحرمان والجوع بسبب الحرب، كان الطعام الذي يؤكل في منزل شاهيندة هانم أكثر وأطيب مما كان في السابق. لم تعرف معزز أن هذا الضيف هو القائمقام الجديد إلا بعد شرب عدة كؤوس على المائدة. حدقت فيه وهي مذهولة. معنى ذلك أن صاحب وجه العقرب هذا هو من حل مكان أبيها؟

أظهر صاحب وجه العقرب بعد مدة أسنانه مبتسماً وقرص خد معزز. رفعت الفتاة الدائخة والمترنحة كالنائمة وهي تسند جبهتها بكفها إلى رأسها، ونظرت إليه ثم حركت يدها وكأنها تطرد ذبابة. ثم عادت إلى دوختها.

أراد القائمقام الذي كان يزداد هيجانه بمرور الوقت أن يأخذها إلى حضنه. عندها نهضت معزز ونظرت إلى من في الغرفة ببلاهةٍ، ثم خرجت من الغرفة وهي تترنح وذهبت إلى غرفتها واستلقت على السرير.

لكن هذه المقاومة لم تدم طويلاً. أصبح في ذراع معزز الآن عدة أساور ذهبية. سألها يوسف مرة من أين لها تلك الأساور. تذكرت معزز كيف أنها في مرة ألقت بإسورةٍ كانت هديةً من حلمي بيك وذهلت من نفسها. ثم قالت:

"أمي أعطتني إياها. كانت لدينا منذ زمن طويل. قالت أمي ضعيها في يدك بدل أن تبقى في الدرج".

قالتها متملصةً من المشكلة.

أصبحت معتادةً على تأليف مثل هذا النوع من الأكاذيب. ولم تعد ترى بأساً في الكذب على يوسف، بل ترى أن عليها أن تلهيه وتسليه كما لو كان طفلاً. جعلتها هذه الأفكار تعتاد على أن ترى يوسف صغيراً. فالآن وبالنسبة

للجو التي أصبحت تعيش فيه فإن يوسف أصبح مملاً وبسيطاً. ثم يا إلهي كيف يصدق كل شيءٍ يقال له؟ سأل مرةً عن الطاولة التي ظهرت فجأة في الغرفة المطلة على الشارع في الدور الأسفل فقالت شاهيندة:

"إنها لمدير التلغراف! لم يجدوا لها مكاناً في المنزل الجديد الذي انتقلوا إليه فتركوها عندنا".

فزم يوسف شفتيه وذهب. كانت معزز تعيش توتراً كبيراً! كانت تنتظر اللحظة التي سيفتح فيها الدولاب ويرى المناديل وأطقم الأشواك والسكاكين، ويفور غضباً فتبكي وتعترف له بكل شيءٍ وتطلب منه العفو. كانت بدورها غاضبةً منه بعض الشيء ومندهشةً من كونه لا يدرك شيئاً. أحياناً كانت تجلس على السرير وتتناول القنديل من الركن وتنظر إلى وجه زوجها النائم في سكون وترغب أن تصيح فيه:

"يوسف انهض، امسكني!... يوسف! إلى أين أنا ذاهبة؟!"

لكنها تعيد القنديل ببطء وتغطي زوجها باللحاف ثم تحاول أن تشاركه نومه العميق.

لم يكن كل شيءٍ قد ضاع بعد. لكن معزز تشعر بشيءٍ لا يقاوم يجذبها، وبأن إرادتها وحدها ليست كافيةً لتنزعها عن هذا الطريق، بين حينٍ وآخر كانت تعتريها رغبةٌ في الانسياق لشخصٍ أكثر قوة والابتعاد عن هذا المكان. من يمكن أن يكون غير يوسف؟ لكنه غير مدركٍ لأي شيء، يمشط حصانه ويذهب إلى القرى، وحتى وهو ذاهب يترك في يد زوجته عدة مجيدياتٍ ويقول كأنه يتهكم:

"خذي يا زوجتي، أديري حالكِ بها".

كيف لهذا أن يحدث؟ كيف لا يحس يوسف بحصول شيءٍ يا ربي؟! وحتى

الإشاعات التي تنتشر على مهل في إدرميت لم يسمع منها شيئاً. قطع الجيران والأصدقاء الذين يخشون على سمعتهم علاقتهم بهم. والسبب في عدم اتخاذ الحي لتصرفٍ بشأنهم هو أن القائمقام مشترك بالموضوع، كما أن الأشخاص الذين يتصرفون في مثل هذه المواقف قد تم أخذهم للتجييش. والبقية الباقية من المسنين والعاجزين لم يكونوا في حالٍ تسمح لهم بالالتفات إلى شيءٍ غير هم معيشتهم.

كانت معزز تضطرب كالمجنونة في بعض الأيام وتصرخ: "يوسف! يوسف!". تريده أن يعلم بكل شيء وأن يأتي إلى البيت ويضربها، بل ويطعنها حتى ويقلب كل شيءٍ رأساً على عقب، وتشعر بأن هذه هي الطريقة الوحيدة لتتخلص من هذا كله. وإلا فإنها لا تستطيع أن تذهب إليه وتخبره أو تقاوم رغبة أمها وتعيش بشكل مغاير. ذلك سيكون أسوأ. فيوسف الذي سيلاحظ أن هناك شيئاً مختلفاً يحصل في البيت سيفهم كل شيءٍ ويقيم القيامة التي تخشاها وتنتظرها معزز.

لا، لن تستطيع تغيير أي شيءٍ بنفسها. وكل يومٍ يمضي يجعلها تتقدم في الطريق الموحل وتغوص فيه أكثر. تلاحظ أن الشاطئ الذي تركته خلفها يصبح أبعد يوماً بعد يوم، وتعتقد أنه حتى لو مد لها أحدٌ يده فإنه لن يستطيع إنقاذها.

الآن هي تنتظر حلول المساء أو فرش السفرة أو ذهابهم إلى مكانٍ ما، اعتادت على شرب الراكي دون أن تقطب وجهها ولم تعد تكره الجلوس في حضن شابٍ يرتدي إسورة فضة على ذراعه كما في السابق.

أصبح يشترك في هذه السهرات المرتبة بعض العازفين الذين أحضرهم القائمقام وقائد وحدة الدرك قدري أفندي. مقابل ذلك لم تعد أم شاكر في آخر الأيام تأتي قط، من المحتمل أنها لم تعد ترى الشهرة التي اكتسبها منزل

شاهيندة لائقة بشرفها وسمعتها. فهي من أهل إدرميت ومن الطبيعي أن تفكر بسمعتها. كان هناك الكثير من زوجات الموظفين الجاهزات من أجل إحياء ليال السهر، وإيجادهن ليس صعباً.

أصبح القائمقام من ضمن الضيوف الدائمين. يعطي معزز التي قل توحشها محاضراتٍ عن الحب، ويغرقها بالهدايا التي تستهلك نصف مرتبه. وشاكر كان ينظر إلى ما يحصل بمتعة غريبة. لم يكن الشعور الذي يحكمه هو الرغبة في معزز، بل الضغينة ليوسف. يفكر أن هذه البنت التي كانت لغيره في يده هو، ثم يضحك عندما يفكر بحظ يوسف السيء وزوجته تتنقل من حضنٍ لحضن. هكذا وفي النهاية، أخذ شاكر انتقام اللكمة التي تلقاها من يوسف. في زمنٍ ما كان لا يسمح له باستراق النظر لها، أما الآن فهو يتواقح لساعات ويأخذها في حضنه. وفي الزمان المناسب سيفعل أكثر من ذلك، وسيرى سقوط هذه البنت التي لم تعطى له.

كان عندما يرى معزز تحاول تخليص نفسها من قبلات القائمقام الواخزة وهي ثملة يشعر تجاه هذه الفتاة التي أحبها فعلاً في يوم ما ببعض الشفقة، لكنه عندما يتذكر الحوادث التي حصلت له واحدةً تلو الأخرى يغضب ويفكر بأن كل شيءٍ انتهى ولم يعد من الممكن إصلاحه، فتتحول تلك الشفقة إلى برودٍ ولا مبالاة.

ذهلت شاهيندة بعض الشيء من كون الأمور وصلت إلى هذا الحد. مع أن حياتهم تحسنت عما كانت في السابق كثيراً، وزادت زينتها وذهبها إلا أن صديقاتها القديمات لم يعدن يعطينها اعتباراً كما في السابق، بل إنهن بدأن في الابتعاد عنها. كان ذلك يشعرها بالضيق، فكانت تردد بينها وبين نفسها:

"ماذا حصل لهن يا ترى؟"

لكنها لم تكن جاهلةً بالسبب الذي جعلهن وغيرهن يبتعدن عن بيتها. بيد أنها لم تكن تريد أن تعترف لنفسها بذلك، بل وتخجل أيضاً. كان بداخلها قناعةٌ ثابتة لا تتزحزح تمنحها راحة الضمير، وهي أن كل ما تفعله هو من أجل راحة ابنتها وانتشالها من الفقر. إذا كانت تفعل شيئاً شائناً فإن الملامة تقع على يوسف أكثر منها، بل وعلى المرحوم زوجها. جزء كبير من الملامة على الأقل! لو أنهما فكرا في مستقبل أهلهم وتصرفا بذكاء لما اضطرت شاهيندة وابنتها لمجالسة الأوغاد وتملقهم وإمتاعهم. ويوسف لو أنه احترف مهنةً بدل الكسل والتهاون منذ سنين، أو لو أنه لم يطمع في معزز وتركها لشاكر لأصبح حالها مختلفاً تماماً. ليس ليوسف الذي لم يفكر في أي من هذه الأشياء الحق في أن يتدخل أو يغضب الآن، وشاهيندة لم تكن تفكر بأنها تتصرف بسوء تجاه زوج ابنتها أبداً.

12

جاء مرة يوسف إلى البيت ظهراً، على وشك التجمد من البرد. طرق الباب لمدةٍ طويلة ولم يفتح له أحد. بعد انتظارٍ جاء صوت وقع خطواتٍ من الداخل. اقتربت أصوات شبشبٍ يخطو على خشب. عندما دخل يوسف قابله وجه شاهيندة وعينيها منتفختان. قال:

"ما زلتما نائمتين؟"

"نمنا متأخراً.."

ثم أردفت بشفتين مزمومتين:

"كان هناك ضيوف..."

"ألم تشعلا الموقد؟"

"لا، ادخل أنت إلى هذه الغرفة وأنا سأشعله وأحضره".

جلس يوسف على الفراش في الغرفة دون أن ينزع معطفه، ثم أخذ يحاول تدفئة يديه بالنفخ فيهما. ثم صرخ خارج الغرفة:

"ألم تستيقظ معزز بعد؟"

أجابت شاهيندة من مدخل البيت:

"لا أدري، لم تستيقظ غالباً. لو علمت بمجيئك لنزلت!"

نهض يوسف:

"لأذهب وأراها!"

صعد درجات السلم بجوربيه الصوفيين دون إصدار صوت ودفع باب الغرفة الموارب. كانت زوجته نائمة على جنبها الأيسر. تسمر يوسف مكانه. دقق النظر في النائمة أمامه بدهشة، ثم اقترب أكثر منها وهو ينظر.

يا إلهي! هل كانت تلك زوجته؟

كان وجه زوجته دهني يلمع. وشعرها مبعثر كالقش وملتصق بوجهها المتعرق. ومنخرا أنفها كأنهما متسعان ويتحركان مع أخذها لكل نفس. ثغرها نصف مفتوح وكأنها تبتسم. أطراف عينيها ذابلة ومتعبة. وحاجباها مقطبان قليلاً. لكن ما كان يرعب يوسف هو لون وجهها الذي يميل للأصفر المتسخ. فقدت وجنتاها لونها الوردي القديم. وشفتاها جافتان. وبين وقتٍ وآخر كان خدها الأيمن يتحرك ويجعل فمها يبتسم أكثر. هذه الابتسامة التي تشكل تضاداً مع الحواجب المقطبة كانت غريبةً على يوسف تماماً. اقترب منها أكثر لكن رائحة فائحةً من فمها جعلته يرتد إلى الوراء.

لم يعرف ما هذه الرائحة. لكنه كان يعرف أنها ليست رائحة نفس زوجته

التي تصدر منها دائماً. اعترى رأسه ما يشبه الخفقان. رغب في أن يمد يده ويهزها وهو يصرخ:

"ماذا حدث لك؟! ماذا حدث لك؟!"

لكنه أدرك أنه لن يستطيع فعل ذلك. كان يخشى أن تخبره زوجته عندما تستيقظ بأشياء مفجعة. مرت حوادث الأيام الأخيرة برأسه بسرعةٍ وصخب. كاد أن يسقط مكانه. خرج من الغرفة وجلس على رأس درجات السلم

مر شهران... شهران بالتمام لم ينظر فيها إلى زوجته جيداً. تذكر أول يومٍ بدأ فيه بمزاولة عمله. يومها أيضاً تفرج على زوجته وهي نائمة. مر شهران على ذلك اليوم، لكنه يشعر وكأنها سنوات. ماذا حدث لزوجته؟ ما الذي جعلها بهذا الحال؟

كانت الذكريات وحوادث صغيرة لم يلتفت لها وأفكار ليست مرتبطةً ببعضها تدور في رأسه. مرةً يتذكر كلمةً قالها لمعزز قبل عشرة سنوات، ومرة يتذكر تصرف شاهيندة نحوه قبل عدة أيام، بالذات بعض الأحداث الصغيرة وغير المهمة، كان يتذكرها بوضوحٍ يثير الدهشة.

اتخذت الآن هذه الأحداث عديمة الأهمية معانٍ مرعبة فالاهتمام الذي كان يتلقاه بالذات من شاهيندة كان يبدو مثيراً للشبهة إلى آخر درجة، وأحوال معزز المرتبكة والأليفة والمبتهجة والميؤوسة بدأت تعبر عن أشياءٍ لا تصدق.

ضغط بقبضته على خده. فكه يشد عضلات رقبته وجبهته تشتعل.

نهض من مكانه وركض إلى الأسفل ثم أمسك بذراع شاهيندة التي كانت ترتب فراشها في الغرفة المطلة على الشارع:

"ماذا فعلتم بزوجتي؟ ماذا حدث لمعزز؟!" قالها صارخاً.

خافت شاهيندة عندما نظرت إلى وجه يوسف، سحبت يدها قائلةً:

"اتركني! ماذا حدث؟"

ثم تجاسرت. وممَ ستخاف؟ ما حدث حدث والسبب هو هذا الوغد قليل الأدب الذي لا يعرف حده. الآن يأتي ويصرخ في وجهها؟ لكن شاهيندة لن تسكت وستصرخ أعلى منه ولن تجعله فوقها.

لكن يوسف لم يصرخ، جلس على الفراش ويداه ترتعدان ووجهه شاحب. نطق بصوت مخنوقٍ لكنه هادئ:

"تعالي يا أمي، اجلسي هنا. اغلقي الباب وتعالي"

ارتبكت شاهيندة من حال يوسف هذا أكثر، لكنها أطاعته.

عندها قال يوسف مجدداً بصوت منخفضٍ وهادئ:

"لا تحاولي شرح أي شيءٍ لي! لا أريد سماع شيء فرؤية وجه زوجتي كفاني. لم يكن هذا حال زوجتي من قبل. دعينا لا نطيل الكلام! لكن لدي لك عدة كلمات. اسمعي، نحن نعيش سوية في هذا البيت منذ سنوات، لم نتحدث فيها مرةً واحدةً مع بعضنا كما يجب. والآن وجب الكلام. لا أعرف ماذا يجري. لكني أتمنى ألا تكونوا قد تماديتما كثيراً. لكني أعرفك، أنت تفعلين ما ترينه صواباً! عندما كان أبي في صحته كنت أصمت لأنه صاحب الكلمة في البيت، وأنت كنت تحاولين ربط أعيننا وتدبير الحيل من دون علمنا. حتى وأنت أم علينا حماية ابنتك منك. الآن أبي لم يعد موجوداً. وأنا مسؤول عن سمعة البيت وشرفه. دعي هذا جانباً، لكن لو جعلتِ معزز تحيد عن الطريق فسيكون ذلك سيئاً جداً".

صمت لمدة. لا يستطيع التفكير في جملةٍ مفيدة، والكلمات تتدافع من فمه بائسةً متفرقة. بعد أن صمت لمدةٍ طويلة وهو ينظر أمامه قال فجأة بحزم:

"أمي، ماذا حدث في هذا البيت؟ هل حدثت أشياء سيئة جداً؟ هل تماديتما إلى حد أنكما لا تستطيعان إخباري بما فعلتما… تذكري هذا! مهما جرى فإن معزز ليس لها أي ذنب في أي شيء. وكيف تلام بنت عمرها خمس عشرة سنة؟"

غير دفة الحديث وصرخ:

"أخبريني! من الضيوف الذين كانوا في البيت؟"

ردت شاهيندة بعصبية وفظاظة:

"ألهذه الدرجة تريد أن تعرف؟ سأخبرك إذن… كان هناك القائمقام عزت بيك، سيدك وولي نعمتك عزت بيك… جاء ليسأل عن العائلة التي تركها المرحوم أبوك خلفه هل هي جائعة أم لا…"

كاد يوسف أن يقف لكنه تراجع، قال وهو لا يكاد يمسك أعصابه:

"وهل بقي يسأل عن أحوالكما حتى آخر الليل؟"

"أخرجنا له لقمتين ليأكل، ما فعلناه قليلٌ مقابل المعروف الذي يفعله لنا!"

"أي معروف؟"

"أتعتقد أننا نشتري الطعام الموجود في البيت بالمجيديتين التي تتركهما لنا؟!"

سأل يوسف ووجهه أحمر محتقن وكأنه سيختنق وهو يحرق رقبته:

"وكيف تشترونه؟"

"لم يرض عزت بيك لعائلة قائمقام أن تعاني من الفقر فأجرى لها مساعدة

من الحكومة".

"ولم لم يخبرني أحدٌ بذلك؟"

"ألم تخبرك معزز؟ يبدو أنها نسيت".

"أنت تكذبين.."

"أنت حر في تكذيبي.."

"حتى القائمقام لم يخبرني شيئاً بخصوص ذلك!"

"ولم يخبرك أصلاً؟ أتريده أن يقول لك أنا أطعم عائلتك؟ لا بد أنه لم يرد أن يكسر خاطرك".

"أذهب إليه الآن وأسأله لمَ يتدخل في شؤون غيره!"

"أنت؟ وبأي وجه؟ أتظننا نستطيع إدارة شؤوننا بليرتين في الشهر؟ بأي وجه ستصرخ على رجلٍ وظّفك رغم جهلك هذا؟.. لو أنك رجلٌ لذهبت لتقبيل يده.."

كانت شاهيندة تصدق كل كلمةٍ تخرج من فمها، وكل كلمةٍ كانت تمنحها شجاعةً أكبر.

سكت يوسف، كان يحس بأن شيئاً ما ليس صحيحاً لكنه لم يستطع أن يرد عليها. لم يكن معتاداً على الجدال أصلاً. فقد كانت أي كلمةٍ عشوائيةٍ يُرَد بها على أقوى كلمة عنده كافية لإسكاته. لكن بعد مدةٍ عادت الشبهات لتعذبه وتجعله يضطرب.

هذه المرة ولدت كلمات شاهيندة في داخله أحاسيس جديدة. فمن جهةٍ كان يرى أن كلام شاهيندة قد يكون صحيحاً، قد يكون عزت بيك يزورهم لغرض المساعدة فقط. لكنه متأكد أن الأمر ليس كذلك. لماذا؟ هو نفسه لا

يعرف.

قفز من مكانه، ذهب إلى المدخل وارتدى حذاءه ثم خرج دون أن يقول شيئاً.

كان الجو في الخارج بارداً رطباً. شعر يوسف الذي لم ينزع معطفه داخل المنزل بالبرد يدخل عظامه. راح يمشي بسرعة. كان يريد أن يتجول ويفكر بينه وبين نفسه قليلاً.

لسببٍ ما رأى أن مكوثه في البيت سخيف، فجلوسه مع شاهيندة والاستماع لكلامها الذي لا يصدقه لكن في نفس الوقت لا يستطيع الرد عليه كان يشعره بالضيق فكر الآن وهو يمشي في الطرق الموحلة إلى أين ولم يذهب. لم يجد جواباً لذلك حتى. وعندما بلغ طرف البلدة توقف ونظر حوله. رياح حادةٌ ورطبةٌ تهب، وعلى وجه المرء تتناثر قطرات دقيقة بين حين وآخر. أغصان الأشجار الجافة تصفر وتنحني في كل الاتجاهات.

تذكر يوسف وجه معزز. قبض على كفه وتمتم:

"كذب...كل ما قالته كذب!... أنا سأريها!"

عاد إلى البيت ركضاً. كان مندهشاً من السرعة التي بلغ فيها البيت. فتحت شاهيندة الباب ثم أدارت ظهرها بعد أن ألقت عليه نظرة تقول: أنت مجدداً؟ سحبها يوسف من ذراعها وأجلسها مكان الأحذية.

لم يكن يعرف ماذا سيقول. لم يفكر في شيء يقوله في الطريق. بعد أن فكر لمدة قال بصوت خفيض يرتعد:

"أمي العزيزة.. لدي الكثير لأقوله لكني لا أستطيع جمعه. ربما لا تفكرين في أنا، فكري في ابنتك. لو أردت سأقبل يدك وأترجاك. لا تسيئي إلينا لا تجعلينا نصل إلى حال لا نستطيع فيه النظر إلى بعضنا. أنا أتحمل كل شيء لكن

لن أتسامح لو فعل أحدهم شيئاً. أمي، اسمعي، أقول لك بكل صراحة، أنا لا أقول هذا كذا وذلك كذا، لكن احذري، لو حصلت فضيحة فسأحرقكم كلكم. قلتها قبل قليل، لا ألوم معزز، فأنا أعرفها. لو طاوعتك فسأعرف أيضاً. سأقتلع جذور من يحيد طفلة صغيرة عن الطريق في غيابي. وأنت تعرفين أني أفعل ما أقول. لا تقولي إني لم أقل افعلي ما تريدين بنفسك، لكن لا تمدي يدك على ابنتك. لو حاولتِ فصل قلبها عني"

عض على أسنانه عندما لم يجد كلمةً يقولها. كانت شاهيندة ترتعد من البرد وهي تنظر إلى يوسف ولا تقول شيئاً.

قال يوسف:

"انظري، زوجتي التي تستيقظ قبل الشروق أصبحت تنام حتى الظهيرة. لا تحكي لي شيئاً آخر. ربما كان ما تقولينه صحيحاً، لكن انتبهي لكلامي! لا تجرموا بحق بيتنا فأنا لا أحتمل. أنت أمها فلا تمرغي رأسي ورأسها في التراب سأفعل ما تريدين، سأحمل صخرةً على ظهري إلى البيت كل يوم لو أردتِ، لكن أريد أن يكون قلبي مستريحاً، لا أريد أن ينشغل بالي بكم في الأماكن التي أذهب فيها.."

أصبح كما لو أنه سيختنق. داخله يؤلمه عندما يتخيل كيف ستمضي لياليه بشكلٍ مرعب عندما يفارقهم إلى القرى من جديد.

اعتدل ببطء. وعندما جاء في الصباح اتجه إلى زاوية الغرفة حيث ترك دفتره، تناوله ثم اتجه إلى مبنى الحكومة.

بقي يوسف في البلدة لمدة أسبوع وتعلم أشياء أكثر مما يحتاج. مع أنه في الحقيقة لم يكن أحدٌ يخبره شيئاً واضحاً. لكن طريقة تصرف حاسب أفندي ونوري أفندي نحوه التي اختلفت، وحال المحامي خلوصي بيك الذي يريد أن يخبر يوسف بأشياء كثيرة ولكنه لا يستطيع، كانت تلفت انتباه يوسف. هناك كلمةٌ خرجت من فم خلوصي بيك فهم منها يوسف أن أهله أعادوا علاقتهم بحلمي بيك وأصبحوا يزورونه وهو يزورهم ففوجئ.

كان يتحير من كونه هادئاً حتى الآن. فعُشر الأشياء التي عرفها اليوم كانت تكفي لإثارة جنونه. لكنه كان يسيطر على أعصابه بصعوبة ويحاول التفكير في حلول إلى درجة أن عقله يكاد ينفجر.

ربما كان ما يمنحه الهدوء هو أنه لم يضع شيءٌ بعد، وإيمانه بأنه ما زال هناك مجالٌ لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

لم يكن يخبر معزز بشيء، فقط كان يتفرج على حالها السارح البائس وقلبه يتقطع عليها. ومعزز لم تكن في وضعٍ يجعلها تفهم من حال يوسف شيئاً. وإلا فمن المؤكد أن نظرات زوجها وحاله المضطربة كانت لتلفت انتباهها وتفزعها. كان قطع معزز لعلاقتها بما حولها وسرحانها وكأنها تعيش في حلم يجعلان يوسف عاجزاً ويسلبان منه الشجاعة على التحدث معها بشيء أو إخبارها بهمومه وشكوكه.

كان الشاب يوسف يتلوى تحت فكرتين متضادتين. فتخميناته والأشياء التي سمعها وحال معزز تخبره بحصول شيء ما في هذا البيت، لكنه في كل مرة كان ينظر إلى معزز يراها أكثر إنسان براءة في الدنيا ويعجز عن أن يلومها ولو للحظة.

لو كان الوضع مختلفاً لما خسرت نفسها هكذا، فعيناها السارحتان لم تكونا تضطربان عندما تقعان على يوسف، وذراعاها لم تكونا ترتعدان بشكل محموم عندما تحضنه.

لكن كان من الواجب عمل شيءٍ ما. لا يمكن للوضع هذا أن يستمر. كان يوسف عندما تحتضنه زوجته وتكاد أن تكسر أضلاعه، وشعرها الكستنائي كأنه يريد الاحتماء بصدره من خطرٍ ما ينظر أمامه وعيناه تلمعان كأنه يبحث عن عدو ما.

لم يكن يفكر بنفسه بتاتاً، لكن ما قدر العذاب الذي كانوا يصلونها إياه؟ ألم يشعروا بالذنب لما فعلوه بها قط؟ ما الذي يفعلونه بها؟

كان يوسف يتحرق من أجل معرفة ما كان يحدث في البيت بكل تفاصيله. لكن سيسأل من؟ شاهيندة؟ يعرف ما سيسمعه منها تماماً. لم يستطع أن يصدقها رغم كل محاولاته. أم سيسأل معزز؟ ألا يكفي ما يفعلونه لها حتى يزيد غمها غماً؟ ألم تكن قناعته بأن معزز بريئة طاهرةً وبأنها تحبه كافية؟

***

لكن إلى متى يمكن أن يستمر هذا الحال؟ ألا يمكن أن تكون الغربة المسيطرة على معزز الآن بداية ابتعادها عنه رويداً رويداً؟

كان تفكيره في ذلك يمزقه من الداخل. إذا كان ما زال ينتظر دون أن يصدر صوتاً ويحاول السيطرة على غضبه الفائر فإنه يفعل ذلك لأنه متأكد من كون معزز ما زالت متعلقة به. كما كان يخشى من أن أي تصرفٍ أو حركة سخيفة أو غير مناسبة يفعلها قد تتسبب في إبعاد معزز عنه تماماً. لم يكن قد قطع الأمل في إعادة زوجته إلى حالها السابق بعد.

لكن كيف؟ كان حتى عندما يتحاسب مع مدير المالية وفي البيت وفي الشارع يفكر، وكلما فكر شعر بعجزه أكثر. ما الذي يمكن أن يفعله؟ حتى رحيله من هنا إلى مكانٍ آخر كان مستحيلاً. بأي نقودٍ وإلى أين سيذهب؟

السيطرة على من بالبيت وتهديد شاهيندة كان بلا طائل. فهي ستفعل ما تراه صواباً، كما أن فترات غياب يوسف الطويلة ستمنحها حريةً لتفعل ما تريد.

أكان يستطيع أن يقول شيئاً لمعزز؟ وهل كان لمعزز خيارٌ في كل ما حصل حتى يسألها أصلاً؟

كانت معزز لعبةً بيد أمها والآخرين. فهي طفلة. ما الفائدة من إخبارها في سبيل إنقاذها؟ ربما كان إخبارها بعمق الحفرة التي وقعت فيها سيرعبها ويوقعها في اليأس أكثر؛ لكنه لن يفيد بشيء.

كان اتخاذ موقف ضد القائمقام وشاكر وحلمي بيك مستحيلاً. سيتسبب ذلك بفصله من عمله فوراً ووقوعه تحت رحمتهم تماماً. كان ما تسبب في حصول ما حصل هو قلة المال الذي يتلقاه والفقر الذي هم فيه، فكيف لو أصبح وضعهم أسوأ؟

نعم، بإمكانه الذهاب وتهديد القائمقام والوغد شاكر المتهرب من التجنيد وغيرهم؛ لكن ماذا لو ألقي به في الحبس بعدها أو تم اغتياله، هل سيصبح وضع معزز أفضل؟

من سينقذ بفعل شيء كهذا؟ عندها ستتورط معزز معهم أكثر ولن تدعو ليوسف بعد موته حتماً.

لكن لا بد من عمل شيء، لا بد. كان يعتقد بأنه سيجن. يتجول تحت المطر في أطراف البلدة ويفكر.

كانت الذكريات تمر بعقله متلاحقة. طوال حياته كلها لم يعمل ولو لمرةٍ واحدةٍ شيئاً يحبه، وكأن شخصاً آخر يعيش عمره. علاقاته بمن حوله في طفولته وشبابه تشبه تماساتٍ حصلت مع دنيا غريبةٍ عنه تماماً. كم هو يتعذب الآن في هذه الدنيا التي يرى نفسه غريباً عنها! ما كان لزوم هذا كله؟ لماذا تعصره مثل هذه السلاسل المرعبة، ولماذا تمارس بحقه أنواع التعذيب البطيء؟ لماذا ومن أجل من؟

لم يصدق ويتعلق بشيء في هذه الحياة الغريبة والسخيفة إلا بزوجته. لم تكن معزز بالنسبة ليوسف كبيرة بالماهية التي تجعلها تسد فراغاته، لكن غيابها كان فظيعاً. فاستئصالها من حياته بإجحاف وبلا سبب كافٍ سيجعله يجن. يعلم أن ما يبحث عنه في حياته لم يكن معزز، لكنه أيضاً يعلم أنه لن يستطيع البحث عما يريد بدونها.

كان رأسه يؤلمه بشدة وهو يبحث عن حل، مثل ظبي يتخبط بيأسٍ وحقد وهو محاصرٌ من جميع الجهات. تذكر عندما جاء إلى البيت في ظهيرة اليوم الذي هرب فيه معها، كانت تطرد الأطفال. في تلك اللحظة فكر بالشبه الكبير بينه وبينها فدمعت عينه.

كانت مثله تماماً قوية ونحيلة. ومثله أيضاً يحيط بها أناسٌ جائرون. يطبقون عليها بإحكام قبل أن تطلق سمها ويصادرون منها وسيلة دفاعها عن نفسها.

يضعون أمامها لقمة طعام، وتحت التهديد بحرمانها منها يفعلون لها أفظع الأشياء. إنه لشيءٌ ساحقٌ أن تكون محكوماً من قبل الأشخاص الذين تستخف بهم وتراهم أضعف منك.

14

أذن مدير المالية بعد التدقيق في حسابات يوسف له بالبقاء في البلدة لعدة أيام. لم يكن التجول فوق الحصان في أبرد أيام الشتاء بالشيء السهل، لذلك عليه أن يستريح في الدفء لعدة أيام.

لكن في الأسبوع الذي جاء فيه يوسف إلى إدرميت سأل القائمقام مدير المالية عن سبب تجول محصل الضرائب بلا عمل في البلدة. أجاب الموظف منذ أربعين سنة وهو يزرر قميصه:

"لقد أنهكه التعب يا سيدي فرجا مني أن يستريح لعدة أيامٍ، وخادمكم يا سيدي لم يقل شيئاً. المهم، سأخبره أن يخرج إلى عمله اليوم".

زم القائمقام شفتيه قائلاً:

"ليس الأمر بالمهم يا عزيزي، سألتك فقط".

لكن يوسف تلقى الأمر بالخروج إلى القرى في ذلك اليوم. استدعاه مدير المالية وقال له:

"يا بني، أنت هنا منذ أسبوع! يبدو أن القائمقام سأل عن سبب مكوثك الطويل هنا. اخرج إلى عملك اليوم. وبإذن الله سأمنحك إجازة شهر بعد انتهاء موسم الزيتون. وبعد خمسة عشر يوماً ستأتي من جديد وتبقى لعدة أيام".

قال يوسف "سمعاً وطاعة" ثم خرج. أخذ الدفتر والإيصالات ثم ذهب إلى البيت. جهز الحصان بعد أن وضعها في مزوادته. في تلك الأثناء كانت معزز تراقب حركات زوجها بصمت. بعد أن أخرج يوسف الحصان من باب الحديقة وربطه أمام البيت عاد إلى الداخل. ارتدى حذاءه ومعطفه ثم

خرج مجدداً. ثم التفت إلى زوجته قائلاً:

"أليست أمك في البيت؟"

"لا يا يوسف!"

بعد وهلة أتبعت:

"ذهبت إلى الجيران غالباً. لا أعرف. لم تخبرني عندما ذهبت".

"في أمان الله يا معزز".

"متى تعود يا يوسف؟"

" لا أدري، ربما الأسبوع القادم".

لم يكن يستطيع الذهاب. مرة ينظر أمامه ومرةً إلى معزز، ويحفر في التراب برأس حذائه الأيمن.

كانت معزز أول من يكسر الصمت:

"هل ستستمر هكذا في الذهاب والاختفاء لفترات طويلة؟"

نظر إليها زوجها وكأنه يقول: ماذا تعنين؟ فقالت معزز:

"ما أدراني يا يوسف؟! أشعر بالضيق من دونك! أحياناً تغيب لخمسة عشر يوماً. أنتظرك بفارغ الصبر وأشعر برغبة قوية في رؤيتك".

"أهذا كل ما في الأمر يا معزز؟"

ذهل يوسف من خروج هذه الكلمة من فمه. لم يكن واضحاً ماذا يعني بها. لكن وجه معزز تغير تماماً. في البداية اكتسى وجهها الطفولي رعب، ثم تحول إلى ألم فظيع. أجابت بصوت خفيض وكأنها تأخذ نفساً:

"ليس هذا كل ما في الأمر يا يوسف". ثم راحت تشهق.

أمسك يوسف بذراعها:

"ماذا هناك إذاً يا معزز؟ ماذا هنالك أيضاً؟"

أجابت الشابة مع طوفان الدموع المنهمر من عينيها. كانت عينا يوسف تسودان. كان يريد أن يحتضن زوجته ويمسد عليها ويسليها ويسكتها، وأن يخبرها بأنه يعرف أشياء كثيرة لكنه لم يحكم عليها حتى يكسر جدار الجليد بينهما. لكن يداً كانت تبقيه متسمراً مكانه ينظر إليها بأعينٍ لا تلمع. بصوت منخفض قال:

"اسكتي يا معزز، سأعود بسرعة.."

وبعد أن تحرك وكأنه خارج التفت مجدداً إلى زوجته، وأضاف كأنه يودعها سراً:

"ربما سنصلح كل شيء.."

مع هذه الكلمة سرت بجسد معزز رعشة. قالت بأعينٍ متسعة تلمع تحت الدموع:

"يوسف...آه يا يوسف! وهل يمكن إصلاح كل شيء؟!"

" لا أعرف.. ربما! انتظريني ولا تفقدي نفسك!"

التصقت معزز هذه المرة بذراعه:

"لنرحل عن هنا يا يوسف!" قالت.

"لنرحل!"

"لنرحل عند عودتك، اتفقنا؟"

"كيف نرحل فجأة هكذا؟ دعيني أعود فنجلس ونفكر بالموضوع".

عادت المسكينة إلى حالها القديم. قالت وعينها سارحة:

"لا أعرف… قلت ستعود سريعاً، أليس كذلك؟ سأنتظرك على الدوام…"

وضع يوسف يده على كتف معزز قائلاً:

"لا تحزني… تماسكي ولا تتصرفي كالأطفال" ثم خرج وقفز على حصانه.

***

لم ينس يوسف الأيام التي تلت ذلك اليوم حتى نهاية عمره، وفي كل مرةٍ يتذكرها كان يملأ داخله تارةً غضبٌ وحقد، وتارةً حزنٌ وتأثرٍ عظيمين يدومان لأيام.

كان الجو عندما فارق البيت بارداً وصافياً. ورياح الشمال التي لم تظهر نفسها إلا خارج البلدة كانت تجوب السهول وهي تهز كل شيء مجبرةً أشجار الحور على الصفير واحتضان بعضها البعض.

كان الحصان الأبيض يتقدم، أحياناً وأذنه باتجاه الأمام وأحياناً باتجاه الخلف وذيله يطير إلى اليسار مع اتجاه الريح كالعلم.

كان صدر يوسف يصعد ويهبط بسرعة. عيناه مسلطتان على حصى الطريق. كان برأسه أشياء كثيرة تكفي لجعله دائخاً. كانت من وقت لآخر تجعل وجهه أحمر وتمنح عينيه أنواع مختلفة من اللمعان.

كان ما يحزن يوسف ويثير في نفسه الضيق هو هذا السؤال: لماذا تركتها؟..

كان هذا السؤال ينخر داخله كدودة، كما كان يعيش في نزاع عظيم مع نفسه حتى لا يتعلق بالسرج ويعود أدراجه.

أخرجت النار التي تنتشر ما بين صدره وجوفه الدموع من عينه. حل أزرار معطفه وبرد على صدره بالنسيم البارد.

رويداً رويداً كانت تسري بجسده حالةٌ من الجمود وعدم الإحساس. وانمحت كل الأفكار من رأسه تماماً. في أذنيه طنين وعيناه تؤلمانه. قاد الحصان وبلغ قرية زيتينلي بعد مدة بسيطة. كانت قرية تقع على السهل بين أقجاي وإدرميت. كان أغلب سكانها من مهاجري ٩٣. نزل يوسف في بيت أحد معارفه. وعندما هبط من الحصان على الأرض شعر بجسمه كما أن لو إبراً كانت توخزه من كل جهة. أراد أن "يتمغط" تحت معطفه الثقيل لكنه لم يستطع من التعب. وعندما دخل تمدد على الفراش على الفور.

لم ينهض من مكانه لأربعة أيام بالتمام. في الأيام الأولى أصابته الحمى لدرجة جعلته لا يعرف نفسه، حلقه يشتعل ولا يستطيع بلع ريقه. إحدى زوجتي صاحب البيت غلت له شراب الزيزفون وأشربته إياه، والأخرى سخنت له بعض القرميد ووضعته بقربه.

كان يتعرق بشكلٍ كبير ويرتجف. والمناظر والخيالات التي كانت مخيلته التي تنشط فجأة تعرضها له تجعله يتقلب في فراشه ووجهه مقطب من الألم والتوجع. وجفناه كأنما كانت لوحاتٍ تتغير حسب الخيالات التي يعرضها دماغه؛ فمرة تغطيها أقواس بنفسجية ومرات تعرض عليها أماكن وأشخاص مألوفين. كان يوسف الذي تعب من مشاهدة هذه المناظر يغرق فيها يشبه النوم، لكنه بين حين وآخر يهتز بشدة وهو يشد قبضته.

وفي الليالي كان يختنق ويمسك بركبتيه تحت اللحاف بشدة. وكان القنديل الزيتي الموضوع فوق الموقد ولهب النار المشتعلة في جذع الشجرة ببطء وهي تفرقع داخل الموقد تصبغ جزءاً من الحصير الذي يغطي أرضية الغرفة الترابية باللون الأحمر وتشكل ظلالاً فوق اللحاف البنفسجي اللون.

قال يوسف بينه وبين نفسه بندمٍ وحزن لم يسبق له أن شعر به: لم جئت إلى هنا؟ لماذا خرجت إلى العمل؟ ولماذا تركتها وحدها هناك؟ كان يريد العودة فوراً ويصب اللعنات على مرضه الذي يربطه بهذا المكان. كان هذا الحس يزداد عنده مع مرور كل ساعة، وكأن معزز مهددةٌ بخطر ما وعلى يوسف أن يهرع لإنقاذها، فيعض على شفتيه بيأس.

حاول عدة مراتٍ أن ينهض من مكانه لكنه عجز عن ذلك. كانت القيود غير المرئية تسلب منه القدرة على الحركة. عندما أدرك أنه لم يكن قوياً كما كان يعتقد وهو نائم على ظهره، وأن ليس بيده أن يفعل شيئاً لتغيير وضعه عاد إلى هدوئه وهو مجعد شفتيه بحقد.

كان يخشى من النوم، ويخشى أكثر من الحالة التي تكون بين النوم والانتباه. كانت مخيلته التي لا يعلم من أين تتلقى أوامرها تنشط عندها، وتعرض عليه لوحاتٍ لاحتمالات لا تسحبها من أمامه حتى يُنهك.

اتخذ يوسف قراراً حاسماً. فور تحسن حالته سيعود إلى إدرميت ويأخذ معزز ويرحل إلى أي مكانٍ آخر. لن يخبر شاهيندة بشيء، هذه المرة سيهرب مع زوجته. كان قد عاد إلى إدرميت من قبل من أجل صلاح الدين بيك وندم على فعلته بما يكفي. لو أنه لم يعد إلى ذلك المكان الملعون وعاش وفقاً للصدف وأكمل حياته بشكلٍ ما كما بدأها لما حلت أي من هذه المصائب به. كان متأكداً من ذلك. لن يكون مجبوراً لا على تحصيل الضرائب ولا على مهنة الكتابة، ولن يرتعد خوفاً أمام القائمقام ولن يضطر لترك زوجته خلفه مفكراً: مع من هي الآن يا ترى؟

لكن عليه إصلاح هذا الخطأ قبل أن يفوت الأوان. دون أن ينتظر لدقيقةٍ حتى... يريد أن يذهب إلى البيت ويأخذ معزز إلى مكانٍ لا يعرفه دون أن يخبر أحداً. هل كان قد فكر في المرة الأولى التي هرب فيها معها في وجهته

أو ماذا سيفعل او كيف سيعيشان؟ إذاً فليس هناك حاجةٌ لإرهاق عقله بالتفكير في هذه الأمور.

لكن هذا المرض اللعين كان يحتم عليه الانتظار، الانتظار بعذابٍ وتألم. كان يقول لنفسه وهو يتقلب ويتوجع: يوسف أيها الخنزير، لم تجد وقتاً آخر لتمرض فيه؟!

في اليوم الرابع لوصوله إلى القرية بدأ حلقه بالتعافي. أصبح يستطيع أن يبلع دون ألم. لكن إرهاقه وصداع رأسه لم ينتهِ. نهض عدة مراتٍ وتجول في الغرفة، ثم اضطر إلى العودة إلى الفراش ورأسه يدور.

في ذلك اليوم استطاع تناول لبن زبادي مع شوربة "طرهانة". عندما شعر بأنه يتماثل للشفاء لم يحتمل أن يبقى مكانه. واستطاع صاحب البيت إقناعه بصعوبة بالبقاء حتى المساء والذهاب إلى إدرميت في اليوم التالي. ولكن مع تكرر الخيالات المرعبة عندما أغمض عينيه وهو على الفراش قفز يوسف من مكانه، ارتدى بنطاله ومعطفه وخرج.

لم يستطع صاحب البيت الاعتراض أكثر عندما رآه على ذلك الحال؛ لكنه أدخله إلى الغرفة قائلاً: "تدفَّ أنت قليلاً وأنا سأجهز الحصان".

بعد قليلٍ كان يوسف على حصانه عائداً إلى إدرميت بأقصى سرعة. كان الجو أبرد بكثير مما كان عليه قبل أيامٍ قليلة. حتى أنه كان هناك ثلج خفيف يهطل، وهو شيءٌ نادر ما يحصل هناك. كانت أشجار الزيتون على طرفي الطريق جامدةً تماماً دون حركة. والحصان كان يطلق شرارات باصطدام حدواته على الحصى وهو يتنفس بسرعة. أنفاس يوسف أيضاً كانت متسارعة بقدر منهك. كان يشعر بالعرق البارد يغمر جسده وبحلقه يؤلمه من جديد. خشي أن يمرض مرة أخرى. فإذا عاد وتمدد على الفراش فإن عودته لن

يكون لها أي معنى. لكنه كان حازماً في تطبيق ما قرره ولو كان ذلك سيقتله. سيأخذ معزز ويمضي، ولو مرض بعدها فلا يهم. لابد أنهما سيجدان مكاناً يناما فيه، في قرية بعيدة أو مكانٍ منعزل.

وصل إلى البلدة في سرعة أثارت دهشته. مر من الأزقة الضيقة ذات الترصيف السيء بنفس السرعة. كان مرتادو المقاهي يلصقون وجوههم بالزجاج الضبابي حتى يروا هذا المسرع في مثل هذا الوقت من اليوم.

صرخت بعض النسوة اللواتي صادفنه في الطريق بخوف وسحبن أطفالهن إلى جوانب الطريق. بعد أن تجاوز يوسف حي بايرام يري أبطأ من سرعة حصانه، وعندما اقترب من البيت رأى أن النور مضاء في الغرفة المطلة على الشارع من الدور الأسفل. نزل عن حصانه، سحبه من السرج إلى خلف البيت ودخل من باب الحديقة.

لم يستقبله أحد. لم يفاجأ لكون الباب المؤدي إلى مدخل البيت من الحديقة مغلقاً. لا بد أنهم لم يسمعوا صوته. مسد على بطن الحصان حتى يرتخي ويحل عنه الأربطة، ثم توقف وسأل نفسه: لماذا أحلها؟ ألن آخذ معزز وأذهب؟

تساءل بينه وبين نفسه فيما إذا كان سيفعل ذلك فعلاً. فكر في حال شاهيندة. وفكر في معزز، ماذا سيكون جوابها وكيف ستستقبل هذا العرض. لم يكن سيأخذها عاريةً طبعاً. لكن ريثما ترتدي ملابسها ستكون شاهيندة قد أيقظت كل الحي.

"ليكن ما يكن!" قال. هذا التردد وهذا الخضوع هو ما خرب حياته، لذلك قرر أن يتصرف كما يملي عليه عقله. توجه إلى البيت دون أن ينزع حذاءه أو معطفه. كانت نافذة المطبخ المطلة على الحديقة مظلمة تماماً. بعد أن انتظر يوسف لثوانٍ فتح باب المدخل.

الأحداث التي سنحكيها بعد هذا حدثت كلها خلال دقيقتين.

بمجرد أن فتح يوسف الباب المؤدي إلى البيت من الحديقة صدمه هواء دافئ مع نغمات عود. ودون أن يفكر في ماهيته مشى متجهاً نحو الغرفة المطلة على الشارع. كان الباب منفرجاً بقدر إصبع وكان يخرج منه خط نورٍ برتقالي اللون.

بعد أن توقف لثوانٍ دفع الباب بيده. لم يفاجئه المنظر الذي رآه البتة. أدرك أنه منذ أربعة أيام كان يتجهز لرؤية هذا المنظر دون أن يلاحظ. في المنتصف كانت الطاولة التي ظهرت فجأة، وحولها كان يجلس حلمي بيك والقائمقام عزت بيك وشاهيندة. وعلى كرسي بعيد عن الطاولة قليلاً كان رجلٌ كث الشعر يعرفه يوسف ولكن لا يتذكر من هو يجلس عازفاً على العود. وعلى الأريكة التي تحت النافذة كان شاكر وحاجي أدهم يتحدثان مع بعضهما. وفي الزاوية الأخرى كانت معزز جالسة مستندة على بعض الوسائد تحاول دفع قائد الدرك قدري بيك الذي كان قد انحنى محاولاً تقبيلها. قلباقه مائل إلى الوراء وشعره منسدل على وجهه وهو غارق في عرقه. ومن ياقة معطفه الرسمي المفتوحة كان شعر صدره ظاهراً.

عندما دفع يوسف الباب وظهر عند العتبة في البداية نظروا كلهم إلى بعضهم دون حركة. حاول القائمقام الاستفاقة محركاً رأسه يمنةً ويسرة. الحاجي أدهم وشاكر تبادلا نظرات الأعين. وشاهيندة هانم تمسكت

بالكرسي بقوة وأخذت تنظر إلى يوسف بذهول. وعازف العود وضع العود بجانبه وراح ينظر إلى الباب. قائد الدرك الذي ترك معزز كان يعدل قلباقه بيد وباليد الأخرى يزرر معطفه. اعتدلت معزز في جلستها. في البداية نظرت حولها غير مدركة لما يحدث. شعرت بغرابة لتراجع قدري بيك المفاجئ عن هجومه ودخول الغرفة في صمت مطبق.

وعندما وقعت عيناها على الباب ورأت يوسف سرت في جسمها رعدة. مسحت وجهها بيدها كأنها تريد أن تطرد خيالاً. رويداً رويداً انقشعت السحب المشوشة للمسافة بينها وبين زوجها وأصبحت تراه أكبر وأوضح من أي وقت مضى.

بدأت سكرتها في الانحلال أيضاً. كانت ترى كل شيء حولها بوضوحٍ تام. لم يكن بداخلها أي خوف. بل على العكس من ذلك، كانت تشعر براحةٍ واطمئنانٍ لم يسبق لها أن شعرت بهما، كأنها إنسانٌ أتيح له أن يرتاح بعد رحلةٍ طويلة. كست وجهها ابتسامةٌ عذبة وحادة.

بعد أن تجول يوسف بعينيه في الغرفة خطى خطوةً نحو الداخل. سحب القائمقام كرسيه بخوف، لكن يوسف رفع يده في الهواء فجأة، وهوى بالسوط الذي كان يمسك به على وجه عزت بيك، بعدها راح السوط يرتفع ويهوي بسرعة مدهشة على من حول المائدة بشكلٍ عشوائي. لكن بينما كان يوسف يضرب بسوطه يمنة ويسرة ضرب القنديل الموضوع على الرف في الزاوية وأوقع زجاجته. اشتعل اللهب لثوانٍ، ثم انطفأ وغرقت الغرفة في الظلام.

كان يوسف قد رأى تحت نور القنديل قبل أن ينكسر شاكراً على الأريكة وهو يخرج مسدسه من جيبه، فألقى سوطه وأخرج مسدسه من معطفه هو أيضاً. وقبل أن يستجمع نفسه رأى شرارة تمر بجانب أذنه اليمنى وهي تئز

مصطدمة بالجدار خلفه.

بدأ يوسف بعدها بإطلاق الرصاص. في البداية أطلق رصاصتين أمامه وسمع شيئاً يتدحرج عند الأريكة. لكن ذلك لم يطمئنه. كان يرى بأن في كل زاويةٍ في هذه الغرفة يختبئ الموت، وأن عليه قتل الجميع حتى يخرج من هنا. لم يكن عقله في حال تسمح له بالتفكير أصلاً. فهو يعاني بمرارة من التحكمات التي صنعها في حياته تجاه نفسه، يشعر الآن أن الترس الذي تحرر داخله لن يتوقف بعد ذلك. إنه الآن يصفي حساباته مع كل حياته ومحيطه والعالم، وهذه المحاسبة بالنسبة إلى خضوعه لكل شيءٍ فيها قبل مرعبةٌ جدا الآن.

كان يطلق النار على أي شيء يتحرك. وعندما أدرك أن رصاصاته نفدت توقف للحظة. لم يكن في الغرفة المظلمة أدنى حركة. إما أن الجميع قتل، أو انزوى في ركنٍ من الخوف. تناول خرطوش الرصاص من جيب بنطاله ووضعه في المسدس. وأطلق رصاصتين على زاويتين عشوائيتين في الغرفة. ثم أعاد المسدس إلى جيبه ملتفتاً إلى يساره منادياً بصوت منخفض:

"معزز!"

بعد ثانية شعر بها تمر وكأنها مئات السنين سمع همساً بجانبه:

"يوسف!"

انحنى نحو ذلك المكان ولمس بيديه كومة قماش، سأل مجدداً:

"معزز!"

أجابت بتمتمة:

"يوسف.."

"تعالي لنذهب!"

"خذني من هنا يا يوسف.."

احتضن زوجته وساعدها على النهوض. حملها بين ذراعيه إلى الخارج. كان ظلام الليل الرصاصي يضرب مدخل البيت من خلال باب الحديقة. خرج إلى الحديقة.

عندما رأى الحصان الأبيض صاحبه التفت في فضول. أمسك يوسف بيده اليمنى خصر معزز وأجلسها على الحصان الذي لم يجف عرقه بعد. ثم قفز هو وأخذها في حضنه، احتضنها بقوةٍ حتى لا تبرد. أخرج الحصان من باب الحديقة وهو يحني رأسه ثم جعل الحصان ينطلق بسرعة من جديد.

***

في هذه المرة كان يقود حصانه ناحية مدينة بالكسير. بعد أن تجاوز منطقة صوغوك طولومبه جعل الحصان ينطلق بأقصى سرعة على الطريق المعبد بين مزارع الزيتون. كان النسيم البارد ما زال مستمراً. وفي مدة قياسية بلغ هاوران. ودون أن يدخل إلى المدينة التف حولها من جهة المقابر ماراً نحو الجهة الأخرى. لم يكن يفكر في شيء عدا الهرب والابتعاد بقدر الإمكان عن هذه المناطق التي عاش فيها أفظع مراحل حياته. لا يهم إلى أين! سواء مكانٌ معزولٌ أو غابةٌ موحشةٌ أو مدينةٌ مزدحمة.. المهم أن يذهب إلى مكانٍ بعيد لا يمكن أن يجده فيه أحد.

خف النسيم البارد عندما بلغا ناحية بالاموطلوق، لكن الثلج ازداد هطوله. كانت نقاطٌ بيضاء صغيرة تلتصق بفرو معطفه الأسود. سحب معزز نحو صدره وغطاها بمعطفه أكثر. ثم سألها مدنياً رأسه من شعرها:

"هل أنت نائمة؟"

لم تجب عليه، وعندما كرر يوسف سؤاله ارتعش الجسد الذي كان في حضنه وأخرج عدة أصواتٍ تشبه الخرخرة. هزها يوسف بخوف:

"ماذا بك يا معزز؟"

ردت بصوت ضعيفٍ ورقيق:

"يوسف.."

"أخبريني يا معزز!"

"أعتقد أني قد أُصبت يا يوسف.."

ألقى يوسف باللجام وجعل الحصان يسرع أكثر. كان فم يوسف وعيناه تمتلئان بالثلج، صرخ:

"ماذا تقولين يا معزز! أين أصبت؟ من أصابك؟"

لم تجب الفتاة، حاولت ذراعا زوجها احتضانها بقوةٍ أكبر. سألها يوسف مجدداً:

"أين جرحك؟ لنقف في مكان ونضمده!"

"لا أعرف يا يوسف.. كما تريد لا أعرف أين جرحي، لكني أشعر بألم.. ألم شديد...ثم أشعر بأن روحي تخرج مني.. لكن دعنا لا نتوقف لنذهب بسرعة!"

قال يوسف كالمذهول:

"إلى أين نذهب؟"

أجابت معزز بصوتٍ لا يكاد يُسمع:

"خذني أينما تريد يا يوسف...لنذهب.."

احتضنها يوسف بذراعيه بقوة. كان الحصان المتروك على حريته يركض كالمجنون. والثلج الذي يزداد هطوله مع الوقت يلتصق بقلباق يوسف وشعره، بل حتى رموشه ويعطي برودةً حلوة.

كانت الليلة منيرة. قليلاً فقليلاً بدأت أشجار الزيتون في الاختفاء من أطراف الطريق وراحت تظهر بعض أشجار الدلب هنا وهناك. انعطف الحصان فجأة نحو اليسار ورأى يوسف أنهما بلغا جسراً خشبياً يمر من فوق جدول ماء. مر الحصان نحو الناحية الأخرى وأخشاب الجسر المرنة تتحرك من مكانها وهناك أبطأ من سرعته كان يتنفس بسرعة ويهز رأسه.

كان الحصان الذي يركض منذ مرورهما بقرية زيتينليك غارقاً في العرق والدم. بعد أن مشى لمدة على المرتفع الذي واجههما بعد الجسر توقف تماماً.

فهم يوسف أن الحصان لن يستطيع التقدم أكثر. أمسك بمعزز ونزل عن الحصان، ثم أنزلها عنه. كان جسدها خفيفاً ونحيلاً كجسد طفلة. لفها بمعطفه مجدداً. ثم مشى متجهاً نحو الأشجار على حافة الطريق. كان الحصان يتبعهما ولجامه على الأرض. قرب يوسف فمه من وجه معزز. كان يريد أن يسألها عن مكان جرحها حتى يمزق قطعه قماش ويلفه بها. لكنه توقف عندما ضربت أنفاس معزز المنتظمة وجهه. وتحت ضوءٍ منحه الثلج للأرجاء نظر إلى وجهها. فارتعش داخله بسعادة. كان وجه معزز النائم والمتنفس بأنفاس غير واضحة هو نفسه وجه معزز القديم.

لم يكن للوجه المرهق المنهك الذي رآه قبل مدةٍ على السرير أي علاقةٍ بهذه الإنسانة. هاتان الوجنتان اللتان غسلهما الثلج كانتا تلمعان بلون أبيض، وشعرها الرطب ينشر حوله رائحة الربيع. جلدها أصبح كما لو كان شفافاً، وكأن نورانية روح طفلة تنعكس من تحته.

نزع يوسف معطفه ببطء ولف زوجته به وأرقدها تحت إحدى الأشجار. جلس هو بدوره أيضاً تحت الشجرة نفسها مسنداً ظهره إليها. ثم راح ينظر إلى الطريق الذي أتيا منه وحاول استجماع أفكاره.

يقع المكان الذي كانا فيه بين جبلين، في منفذٍ شديد الارتفاع. عند النظر إلى الأمام تبدو صخور وعرة هي عبارة عن جبل، وخلفهما على طول الطريق تمتد سهول إدرميت.

لكن يوسف لم يكن يرى شيئاً في هذه الجهة. فالثلج والضباب دفنا كل شيء. وعندما يدير يوسف وجهه إلى هذه الجهة يصبح كأنه يرى بحراً يغطيه السحاب.

في تلك الأثناء أخذته مخيلته إلى ليلةٍ أخرى، ليلة تبدو الآن بعيدة عنه مئات السنين. تذكر نزهتهما في ليلة صيف دافئة على عربة مرنة، وكانت أصوات الجلاجل تختلط بأصوات حشرات الزيز. يا إلهي! يا للفرق الكبير بين تلك الليلة وهذه الليلة! الطبيعة التي كانت تبدو ليلتها واسعةً بلا حدود والسماء الكبيرة، هبطت عليهما الآن في شكل غطاء أبيض وناعم.

يبدو أن الزمان الذي مر بين الليلتين كانت له الكثير من التغييرات والتأثيرات على يوسف. تمدد معزز بجانبه متروكةً له تماماً لم يكن يمنحه السعادة التي يريد، بل يملأ قلبه برعدات تشبه الخوف. وعندما مالت ذكرياته نحو معزز تذكر ليلةً لم تكن حلوةً قط.

معزز وقتها وتحت تأثير حس مجهول تعلقت برقبة زوجها قائلة:

"يوسف، أنا أخاف منك".

فكر فجأة بأن زوجته كانت وبلا إدراك منها تقصد هذه الليلة، ففزع من مكانه:

"لماذا؟ لماذا؟ لماذا تخافين مني؟ ما الذي فعلته لك؟"

سيوقظها ويسألها. لكنه كان خائفاً من لمس هذا الجسد الهامد تحت معطف الفرو الأسود. لم يجلس مكانه مجدداً. وتجول حول زوجته حتى الصباح.

عندما بدأت الأرجاء تستنير أخذ نفساً عميقاً. كان يريد أن يكملا طريقهام حتى يصلا إلى قريةٍ ما. بحث عن حصانه الذي سيمشي به في الأحراش تجاه المنحدر. كان قد انزوى تحت إحدى الصخور.

قال يوسف لنفسه:

"يا إلهي! لم أقم بتغطية ظهره، أتمنى ألا يمرض".

سحبه من لجامه وتوجه نحو زوجته المتمددة.

لم تكن قد استيقظت بعد. اقترب منها يوسف ببطء ثم لمسها:

"هيا يا معزز، لنكمل مسيرنا!"

عندما رأى أن جسدها لا يتحرك رفع طرف المعطف ثم راح ينظر لمدة طويلة دون أن يقول شيئاً...

كان وجه الشابة اليافعة شديد البياض. كانت تبدو بفمها المنفرج قليلاً كأنها نائمة وهي تبتسم. لكن أجفانها التي تركت جزءاً من عينيها ظاهرين كانت تعطي هذا النوم الهانئ ماهيةً مرعبة.

انحنى يوسف وأمسك بكتفي معزز. ثم قرب وجهه من رأسها الذي كان شعرها الكستنائي ينسدل منه ثم راح يشمه ويمسد على وجنتيها المتجمدتين بأصابعٍ مرتجفة. وجهه هو أيضاً كان شديد الشحوب. عض على شفتيه إلى حد جرحهما ثم مدد معزز ببطء على الأرض مجدداً. أدخل يده في المزوادة التي كانت على بردعة الحصان. كان ما زال بها بعض الدفاتر والإيصالات.

أخرجها كلها وألقاها على الأرض. في قعر المزوادة كانت هناك سكين، أخذها ثم راح يحفر بها الأرض.

ولارتفاع الشمس في السماء بدأت الثلوج في الذوبان وراحت التربة تصبح لينة. بحلول الظهيرة كان قد حفر حفرةً عميقة. حمل زوجته بالمعطف ووضعها بجانبها. كان نسيمٌ خفيفٌ يتلاعب بشعرها. لاحظ عندها أنها ترتدي فستاناً من قماش الساتان فكاد أن يغمى عليه كأنما طعن من ظهره. لولا تمسكه بالشجرة بجانبه لسقط. فقد كانت ترتدي نفس الفستان الذي ارتدته في الليلة التي هربا فيها.

جلس القرفصاء بجانب الحفرة التي حفرها ثم راح يشم الميتة في حضنه. أخذ وجهه وضعاً مخيفاً، وعيناه الجافتان بارزتان إلى درجة الانفجار، ويداه الغارقتان في الطين كانتا تحتضنان جسد معزز البارد بعصبية.

في تلك الأثناء انزلق المعطف فظهر جسد معزز. في كتفها الأيسر وبمكانٍ قريب من حلقها كانت بقع من الدم متخثرة صبغت فستانها من الأعلى حتى الأسفل. ركز يوسف نظراته على هذا الجرح وربما راح يحدق فيه لنصف ساعةٍ دون حراك. هناك، في الحفرة الدامية أصبح كأنه يرى شريط حياته.

بعد مدة أخذ نفساً عميقاً؛ لف زوجته بالمعطف مجدداً ووضعها في الحفرة بعناية فائقةٍ، كأنما كان يخشى أن يؤذيها، ثم راح يهيل عليها التراب بيديه بسرعة.

فعل كل ذلك بهدوء وعناية وكأنه يخدم شخصاً حياً. لكن عندما أصبح القبر بارزاً بالتربة الرطبة حدق فيه مجدداً، ثم صرخ وكأن حلقه سيتمزق:

"آآآه" ثم غرز قبضته في التراب الذي يغطي زوجته.

بعدها نهض ببطء. وقف بجانب القبر ونظر إلى الرابية. كانت منارات

إدرميت البيضاء تبدو من خلف أشجار الزيتون اللامعة تحت الشمس. نظر يوسف إلى هناك، ثم إلى كومة التراب بجانبه. عض على شفتيه وأسنانه وشد على قبضته، رغم ذلك تحدرت قطرات كبيرةٌ من الدموع من عينيه على خديه. غطت هذه الدموع كل ذلك المنظر. مسح دموعه بأكمامه. ثم ركب حصانه. وبعد أن التفت خلفه لمرة أخيرة ورفع قبضته تجاه هذه البلدة التي عاش فيها أسوأ أيامه كأنه يهدد، ساق حصانه إلى الأمام، نحو الجبال.

رغم كل التحطيمات وخيبات الأمل لم يكن يريد أن يحني ظهره. سيحمل حزنه وحده دون أن يظهره لأحد وسيمضي نحو حياة جديدة.

شكر من المترجم

أتقدم بالشكر لمن ساعدتني في ترجمة ما أشكل عليّ من المصطلحات: ستناي جوهر. وللأستاذة نوف الميموني لمراجعة النص بعد الترجمة.



يوسف القويوجاقلي

"شعر يوسف بنفسه ذائباً في تلك الليلة العظيمة المكتملة، وأحس برعدة تسري في جسده من الخوف. مرر يديه المبتلتين على وجهه. كان ماء المطر ينزل من رأسه ماراً برموش عينيه إلى خديه. أعطته تصرفاته شعوراً بعدم الانتماء لأي مكان. حتى أنه بدأ يستشعر حجم المسافة التي تفصله وتبعده عما حوله. ضم بكلتي يديه لحاء الشجرة خلفه. ودخلت أصابعه الباردة في شقوقها. سحب يديه فجأة ووضعهما على صدره. أحس بأن في قلبه شقوقاً كما في لحاء الشجرة، وشعر بالنار تشتعل في نحره. يا الله، كم كان وحيداً..."


ISBN 978-2-84409-630-2


@darathar
#يوسف_القويوجاقلي